
قرآن كريم
ثقافة المسلم
فى وجه التيارات المعاصرة
دكتور / عبد الحليم عويس
دار الصحوة للنشر

ثقافة المسـلم

في وجه التيارات المعاصرة

د.عبد الحليـم عويـس

المحتويات

الفصل السادس: الإسلام والتيارات والاقتصادية الحديثة

الفصل السابع: الإسلام والنظم السياسية

بين يدى هذا الكتاب

هذا زَادٌ من الثقافة الإسلامية أعتقد أن شبابنا، وكثيراً من مثقفينا في حاجة إليه في عصر أصبحت فيه «الثقافة» مقوماً كبيراً من مقومات الشخصية التاريخية، والحضارية، لكل أمة، وأصبح الصراع الثقافى فيه أبرز صور الصراع.

ومن المعروف أنه نتيجة لظروف تاريخية معينة. . . أصبح المسلمون ـ وهذا شيء محزن حقاً ـ في موقع مَنْ يتأثر أكثر مما يؤثر، ويتافعل سلباً. . أكثر من تفاعله إيجاباً. . . على الرغم من المكانة المتميزة الرائدة التي وضعهم فيها دينهم، منذ قال لهم فى كتابه الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1].

وقال لهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2].

وصار واجباً ـ ولعله واجب مرحلى ـ إن شاء الله ـ أن يتخذ الفكر الإسلامي، موقع المدافع، مع أن مكانته التي تدل عليها أصوله وتشهد بها عصور ازدهاره وقوته ـ تضعه في موقف المهاجم المنقذ من التصورات والأوضاع البعيدة عن طبيعة الفطرة الإنسانية. . . تلك التصورات والأوضاع التى سادت فترات كثيرة من فترات المسيرة التاريخية وتسود عالمنا المعاصر!!.

وقد نظرتُ حولي، ووضعت أمامى خريطة للتحديات التي يواجهها فكر المسلم ثم انتقيت من هذه التحديات ما رأيت أن في مواجهته مواجهة ضمنية لغيره. .

ولم أشأ أن يكون البحث رصفاً أكاديمياً لا يفيد منه إلا قلة قليلة، بل نهجت منهجاً وسطاً حاولت أن أجمع فيه بين البساطة والعمق والأسلوب المناسب، مخالفاً ـ بمنهجى هذا ـ ذلك المنهج الذى يرى فيه بعضُ الدارسين، أن الغموض والتعقيد دليلُ العمق، وأن كثرة الهوامش تفرض الحقيقة فرضاً. . مع أننا من منطلق إسلامي نؤمن بأن كثرة القائلين

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) آل عمران: ١١٠.

بالرأى أمر لا علاقة له بصواب الرأى أو خطئه ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[١] ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٢] . . .

وبالتالى، فقد جاء البحث ـ فيما أعتقد ـ صالحاً ليفيد منه أكبر عدد من القارئين ومؤهلاً ـ بعون الله ـ لخدمة الثقافة الإسلامية في معركتها ضد التيارات الهدَّامة المعاصرة.

وبالله التوفيق

د. عبد الحليم عويس

(١) الأنعام: ١١٦.
(٢) يوسف: ١٠٣

الفصـــل الأول

أسـاسـيات فى الثقـافة الإسـلامية

أ) مصطلح الثقافة الإسلامية.

ب) ضرورة الثقافة الإسلامية.

ج) الثقافة الإسلامية متطورة دائماً.

د) الثقافة الإسلامية إنقاذ للإنسانية المعاصرة.

أساسيات في الثقافة الإسلامية

مصطلح الثقافة:

استعمل العرب كلمة (ثقافة) بمعنى التقويم والتهذيب من ثقفت الرمح إذا هذّبته وقوّمته، واستعملوها أيضا بمعنى الحذق والفطنة، ووردت عندهم بمعنى الوجود، وبمعنى التمكُّن والغلبة[١].

وفي اللغات الأوربية كانت كلمة ثقافة ـ ولازالت ذاتَ صلة وثيقة بالزراعة، وتجمعها كلمة واحدة (Culture) ـ ومنها زراعة الأرض بعد تهذيبها وإعدادها(Agri Culture) كما استُعملت في اللاتينية بمعنى قريب من المعنى العربي فقيل: إنها (Culture Aniwi) بمعنى تهذيب الروح، وبمعنى التهذيب الرباني (Dei Culture)، وقد استعمل اللفظ بمعنى العبادة (Dei Culture) أي عبادة الله على اعتبار أن عبادة الله صقل للنفس وتهذيب لها.

ومنذ العهد الروماني ارتبط معنى الثقافة بالعلوم الإنسانية، أي العلوم الشخصية التي تنفصل فيها كلُّ أمة عن الأمم الأخرى، كعلوم الدين واللغة والآداب التي تدخل فيها الفلسفة، والفنون أي العلوم غير العملية وغير الطبيعية.

ثم في عصر النهضة الأوربية أصبح اللفظ يُطلق على الآداب والفنون[٢]، ويرى ابن خلدون (١٤٠٥م) أن الثقافة تقابل العمران، وقمة العمران، أي قمة الثقافة هي الحضارة، فلا فرق بين الحضارة والثقافة إلا في الدرجة[٣]، وعند (لوك) أن الثقافة تعني تهذيب العقل أو تهذيب الإنسان (Culture of the mind or of man) وقد اشترك في هذا الفهم لكلمة (ثقافة) مع (لوك) (ماثيو أرنولد) في كتابه المسمى (الثقافة والفوضى) (١٢٨٦ هـ) فذهب إلى أن الثقافة هي:

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ وراجع مادة ثقف في لسان العرب.

(٢) انظر: د/ حسين مؤنس: الحضارة (نشر الكويت ص ٣٦٩).

(٣) انظر: المقدمة طبعة بيروت، ص ٣٥.

«محاولتنا الوصول إلى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما في الفكر الإنساني، مما يؤدى إلى رقي البشرية، وقال: إن الدين من العناصر التي استعان بها الإنسان في محاولته الوصول إلى الكمال»!!.

ونحن نميلُ إلى هذا التعريف الأخير، فنرى أنَّ أى رقي للعقل الإنساني وأسلوب الحياة هو ثقافة، سواء جاء هذا الرقى عن طريق علوم عملية، أو نظرية، لكننا نرى أن الإسلام (بخاصته) ليس ديناً عادياً يُشكل مجرد عنصر من العناصر التي يُستعان بها على الكمال، بل هو المفتاح الأساسى - من وجهة نظرنا - وهو الطريقُ السهل الموجز الواضح للوصول إلى الكمال الإنساني.

ومع ذلك فنحن لا نرى تعارضاً بين هذا الهدف الثقافي الكبير وبين قصر مصطلح «الثقافة» على العلوم الإنسانية، باعتبارها العلوم الأكثر تأثيراً في الرقي الإنساني الحضاري من الجانب الروحى، وباعتبارها - كذلك - العلوم التى تنفصل فيها أمة عن أمة، وتُشكل معالم الشخصية الذاتية، ولا تتسعُ فيها المساحة، بحيث تكون متشابهة، أو واحدة بين كل الأمم، كما هو الشأن فى العلوم التطبيقية.

بل إننا لا نري تعارضاً بين التعريفات النوعية للثقافة، وهي تلك التعريفات التي يركز فيها المتخصصون في العلوم المختلفة على جوانب تنتمى إلى تخصصهم الدقيق.

فما يراه علماء الإنسان من أن الثقافة باعتبارها الركن الركين في فهم الإنسان والجماعات تمثل «أسلوب الحياة في مجتمع ما، بما يشمله هذا الأسلوب من تفصيلات لا تُحصى من السلوك الإنساني»[1] هو فهم صحيح لا يتعارضُ مع ما يراه علماء الاجتماع من أن الثقافة يُقْصَد بها الأنماطُ الدائبةُ التغير للسلوك الإنسانى المكتسب[2] . . . وهذا لا يتعارضُ مع أيِّ تعريف «نوعيٍّ» آخر . . بل هي تعريفات يُكمّل بعضُها بعضاً، وهي تنبع من التركيز الجزئي علي بعض الجوانب، بحيث تطغى علي بقية الجوانب، لكنها عند اجتماعها يُكمّل بعضُها بعضاً كما ذكرنا.

وحتى بين الثقافة والحضارة والمدنية، فإننا نرجح أنه لا يوجد أدنى تعارض، لأننا

---

(١) إبراهيم خورشيد: مفهوم الثقافة - مجلة الفيصل عدد (٢٠).

(٢) الموضع السابق.

نعتبرها جميعاً مظهرَ الرقي الإنساني، ودليلَ مستواه، وكلُّ ما يغذي رقىَّ الحياة من روافد هو ثقافة، وحضارة، ومدنية، وكل ما يعارضها هو جهل وتخلف، حتى ولو تلفَّع بأردية برَّاقة تستر ما وراءه من فكر أو سلوك يتسم بضحالة لا تليق بإنسانية الإنسان، وسموه الفكرى والروحى.

الثقافة الإسلامية:

تتدرج بنا التعريفات السابقة إلي التعريف الذي يُمكن أن نحددَ به فقهَنا للثقافة الإسلامية، وهو فقه مستقى من بنائها الطبيعى، ومن هدفها المحدد، ونكاد ننتهي من هذه التعريفات إلى أن الثقافة ـ فى حقيقتها ـ هي الصورة الحيَّة للأمة، فهي التي تحددملامحَ شخصيتها، وقوام جودها، وهي التي تضبط سيرَها في الحياة، وتحدد اتجاهها فيه . . إنها عقيدتها التي تؤمن بها، ومبادئها التي تحرص عليها، ونظمُها التي تعمل على التزامها . وتراثها الذي تخشى عليه الضَّياع والإندثار وفكرُها الذي تَودّ له الذيوع والانتشار[١] . . . إنها بإيجاز كما يقول فون هردر: (هي دمُّ الوجود)، أى: الدم الذي يجري في شرايين أفراده[٢] .

وقد حَرَصْتُ على اقتباس تعريف (هردر) فى هذا المقام لأربِّطَ بينه وبين ما ورد في القرآن تعبيراً عن أن الثقافة الإسلامية هي دم الحياة، وهو المعنى الذي أفهمه من قوله تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ فكأنَّ العقيدة الإسلامية والشريعةَ الإسلامية والأخلاق الإسلامية وما يحيطُ بها من فكر إسلاميّ ـ إنما هي الحياة . . . وليس استيعابُ مجموع ذلك إلا ما يمكننا أنْ نسميه بروح الثقافة الإسلامية، أو قلب الثقافة الإسلامية وعقلها .

إننا نستطيع أن نعتبرَ العلمَ تراثاً إنسانياً عاماً . . فلا يقال: هذا طبٌّ إنجليزي، وذاك طبٌّ عراقيّ، وتلك كيمياءُ مصرية، وهذه جيولوجيا سعودية . . لكن في مقام الثقافة نستطيع أن نقول، بل يجب أن نقول: إنّ هذه ثقافةٌ إسلامية، وتلك ثقافة هندية، وثالثة ثقافة شيوعيّة . . كما أننا (متفرعين من الثقافة) نستطيع أن نقول: هذا أدبٌ عربيّ، وذاك

---

(١) عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلامية ص ١٣، طبع بيروت.

(٢) الحضارة، ص ٣٦٩ .

أدب روسيّ. . وشعر ألمانيّ. . أو أمريكيّ. . . وهكذا.

وهذا أكبرُ الفوارق بين ما هو ثقافة، وما هو حضارة مع اشتراكهما في الهدف العام، ومع أن الخلافَ بينَهما خلافٌ في الدرجة لا في النَّوع كما ذكرنا. . .

وانطلاقاً من هذا يصح لنا أن نعرّفَ الثقافةَ الإسلامية. . . بقيْدها ذاك، أى بصفتها الإسلامية. . فنقول: إن الثقافةَ الإسلاميةَ هي الشخصية الإسلاميةُ التي تقومُ على العقيدة والشريعة والأخلاق المستقاة من مصادر الإسلام الأساسية، وهي - بالتالى - مجموعةَ الصفاتَ والمقوماتَ الفكرية والخلقية التي تشكّل الإنسانَ المسلمَ وفْق ركائزه الإسلامية الآنفة الذكر، سواء كان هذا التشكيلُ على مستوى الصفات الفرديةَ، أم الفلسفة الاجتماعية أو النظرة الكونية.

ضرورة الثقافة الإسلامية:

في هذا العصر الذي يعجُّ بشتَّى التيارات والأفكار، وتكاد فيه الآراءُ والاتجاهاتُ تَفرضُ نفسها فرضاً على كل إنسان، بقوة المذياع والتلفاز والصحافة. . في هذا العصر الذى يسميه البعض عصرَ الصراع «الأيديولوجى» والذي يبلغ فيه صراعُ الكلمة أقصى مداه على امتداد الكرة الأرضية!!.

أجل. . في هذا العصر، الذى تُرْصدُ فيه مئاتُ الملايين من أجل الغزو الحضاري والثقَافي، وتُقام فيه جيوشُ غزاة الفكر ناشرى المذاهب، والتصورات. .

في هذا العصر. . تبدو الثقافةُ الإسلاميةُ ضرورةَ وجود بالنسبة للإنسان المسلم، ولم يعد ممكناً أن نُغلقَ على الشباب المسلم، أو المثقف المسلم الأبْوابَ، ونظن أننا يمكنُ أن ننامَ مطمئنين، وأن «لصوص» الفكرَ لن يستطيعوا اقتحَام الأبوَاب.

إن الفكر يدخل في هذا العصر مع الهواء. . مع موجات الأثير، ويسير معك في السيارة، ويقتحمُ عليك غرفَ النوم. . عارضاً نفسه بأكثر الألوان تشويقاً وجذباً.

والحلُّ الوحيد - إذن - أن يُقَاومَ الفكر الإسلامي الفكرَ الإلحادي، وأن نبنىَ من عقيدتنا وشريعتنا وقيَمنَا وتراثنا وفكْرنا «ثَقافةً إسلامية» لا تقفُ معنا في دَحْض الهجوم الفكري الضارِّ فَحسْبَ، بل تَصْلُحَ، بما فيها من عناصر الصمود والبقاء والصلاَح - فى أن تدفعنا لتقديم فكرنا للعالم كله. . باعتباره فكراً قوياً قادراً، وليس باعتباره فكراً خائفاً متوازياً

يخشى على نفسه لفحة البرد، أو لفحةالحر، أو ميكروباً هزيلاً.

وبين هذا الرّكام والتيّه من التصورات التي تَدفعها حضارةُ العصر، وتجلبُ معها القلق والاضطراب الفكري والضياع، وتُفقدُ الإنسانيةُ طعمَ الحياة، وتَجعلُها تعيش في شبه غابة يدور فيها الصراع بين القُطعان، وتدَفعها رغائب مادية بحتة، ولا بقاء فيها إلا للأقوى والأكثر مكراً ودهاءً واللاأخلاقية...

بين زحام هذه التصورات التى تُوشك أن تُفْقد الإنسانَ المسلم ذاته وهويتَه فكراً وسلوكاً، تبدو أهميةُ، بل وضرورةُ الثقافة الإسلاميةَ...

إننا أمةٌ لنا خصائصُنا المميّزة، ولنا كيانَنا الحضاريّ، ولنا تاريخُنا العريق، الذى يَحملُ أروعَ صفحات المجد والعزة، وإنَّ لنا من الأيادى علي البشرية مالا ينكرُه إلا جاحدُ، ولازالت المبادئُ والأصولُ التي صنعتْ لنا هذا التاريخَ موجودة بيننا وقادرة بإذن الله على أن تضعنا في نفس المكان الذي كنا فيه أيامَ الراشدين، وأيام الأمَويين في المشرق والأندلس، وأيام العباسيين، وأيام الأيوبيين والمماليك، والعثمانيين فاتحى القسطنطينية.

بل إننا حينَ نقفُ فى عالم اليوم، مُدثَّرين بهذا الكيَان الحضاري، مُتَفَاعلين به فإننا سنحظى باحترام العالم نفسه.. إنه عالمَ مفكرٌ يحترَمُ أَصحاب الفكر الأصَيل وليس المستوردُ الدخيلُ... إنه يحترم من يصارونه لا من يقلدونه تقليدَ القرود.

وبالتالي.. فالثقافة الإسلامية هي فكرُنا، وهي سلاحُنا في الصراع العالمى، «وهي الدرع الواقى، والحصن المنيع الذي يمنعُ عنا أخطارَ المُجابهة الفكرية والتحدى الحضارى الذي يهدد كيان أمّتنَا وشخصيتها، ومن واجب كل فرد منا أن يتحسس مخاطرَ هذه من الظاهرة، فيحمي نفَسَه وأسرتهَ ومجتمَعه من ذلك الخطر الذي تحرص الحضارة المعاصرة على ترسيخه في أذهاننا، متمثلاً في توهين القيم الرُّوحية والفكرية التى تقوم عليها ثقافتُنا، مستخدمةً في ذلك جيشاً لجباً من المستشرقين الذين يَلْبَسُون مسوحَ الرهبان والقديسين، فيطوفون الأقطار الإسلامية، ويَحْملُون مشاعل المَحبَة والسلام والوئام، في الوقت الذي ينخرون ـ كالسوس ـ في عظام هذه الأمة، ليتساقَطَ[1] هيكلُهَا العظميّ بعد حين، وليكون عاجزاً عن مقاومة غزوهم الفكري المدمر» ومثلهم ـ وفي نفس المستوى ـ

---

(١) د/ محمد فاروق النبهان: مبادئ الثقافة الإسلامية ٧٧ نشر دار البحوث العلمية بالكويت.

جيوشُ الماديين الجدليين «الشيوعيين» أو الإشتراكيين، الذين يقفون في موقع آخر يحاولون منه إيجاد ثغرة يرمون منها سهامهَم للوصول إلى الهدف المشترك، وهو الاستيلاءُ علي عقولنا وقلوبنا ومسخُ حضارتنا وتاريخنا. . وتحويلُنا إلى أشباه مثقفين، نَلُوكُ ثقافةً تختلف ـ فى روحها وبنائها الفكَري ومُثُلهَا وقيَمها وأهدافها ـ عن ثقافتنا الإسلامية.

وعلي ضوء هذه الضروات التي توجب الاهتمامَ بالثقافة الإسلامية، نَستطيعُ أن نحدد الأساسياتَ التي تقوم بها الثقافة الإسلامية للأمة الإسلامية في العصر الحديث، وفي معترك الصراع الفكري.

إنها تستطيعُ تقديمَ التصور الإسلامي الشامل والنظرة الكلية للحياة، بما يدورُ فيها من نشاط مختلف يَرتَدُّ كلهُ إلى أصول واحدة.

وهي تقدِّم هذا التصورَ من خلال تجربة الإسلام الحضارية المتكاملة. . .

وهي كفيلة بإحياء الانتماء للإسلام ولأمته، وتزكيةِ روحِ العمل به، وبيان دوره الأساسيّ في علاج واقع الأمة الإسلامية[١].

وهي ـ كذلك ـ تصلُ حاضرَنا ومُستقبلنَا في عالمِ المتغيرات، والتكنولوجيا المتطورة، بماضينا الزاخر الدافع لمستقبلٍ وضيىء مادياً وروحياً تَتوازن فيه أساسياتُ الحياة وتتعاونُ ولا تتناقض.

ومن هذه الأهداف ـ وغيرها ـ تستمدُ الثقافةُ الإسلامية مكانتها وأهميةَ دورها في حياة المسلم المعاصر.

الثقافة الإسلامية.. متطورة دائما :

لا مراءَ في أنَّ أصول الثقافة الإسلامية وركائزَ تصورها ثابتةٌ؛ لأنها حقائقُ كلية كُبْرَى، وضعها الخالق. . سبحانه. . . صالحَةَ لكل زمان ومكان، وقادرةَ علي قيادة كل مراحل التاريخ.

لكن هذه الأسس وهذه الركائز تتفرعُ عنها قضايا معاشية أو تطبيقية سلوكية في مجالات الاجتماع والاقتصاد والسياسة، وبالتالى فإن علي الثقافة الأسلامية أن تُعدَّ من

(١) انظر: د/ أاحمد العسال، مقال مادة الثقافة الإسلامية مجلة المسلم المعاصر، عدد ١٥.

الوسائل المعاصرة ما يمكّنُ من تطبيق هذه الأصول الكلية الإسلامية . . وبالتحديد تَلتزم حركة الفكر الإسلامي بحيثُ يتمكّنُ العقلُ الإسلامي من تطبيق النُظُم الإسلامية في مجالات الحياة المختلفة، اقتصادية واجتماعية وسياسة .

ولا يكفى أن تَرْفُضَ الثقافةُ الإسلاميةُ المفاهيمَ المتعارضةَ مع الإسلام كما نصتْ علي ذلك أصولُها، بل يجب أن تُقدِّم «البدائل» التي تُظهرُ إمكانيةَ التطبيق للمبادئ الإسلامية .

فإذا رفض الإسلام «الربا» ـ وبالتالى البنوك الربوية ـ وجب علي الثقافة الإسلامية أن تقدِّم أسس إقامة بنوك إسلامية لا ربوية تدرّ عائداً طيباً، وتقوم بالخدمات المصرفية دون اللجوء إلي التعامل الربوى، وإذا رفض الإسلامُ الفنونَ والآدابَ العابثةَ اللاهادفة، وجب علي الثقافة الإسلامية أن تقدِّم البديل في إطار نماذجَ فنية تتوافر لها كلُّ مقومات النجاح الفني شكلاً ومضموناً ـ لكنها مع ذلك تخدم الأهداف الإسلامية في الحياة، وهكذا في بقية مناحي الحياة .

وما يقال عن هذه الأمور؛ ليثْبتَ تطور مهامَ الثقافة الإسلامية ـ يقال من جانب آخر، ويثبت ـ كذلك ـ تطورها .

فإن الثقافة الإسلامية، بينما تقوم بواجب بناء الإنسان المسلم تقومُ في الوقت نفسه بواجب الدفاع عن حصنه ضد التيارات المعادية . . وبما أن هذه التيارات يمكن أن تتطورَ وتَلْبَسَ أثواباً جديدة، أو تتلفَّع بشعارات بَرَّاقة، أو تَظْهَرَ لها ذيولُ أو واجهاتٌ جديدة ـ فإن علي الثقافة الإسلامية أن تُطوّرَ وسائلها الدفاعيّة، وأن تستعدَّ لكل خصم جديد يريد أن يُزيِّفَ العقلَ المسلم، أو يتلبَّس بالوجدان الإسلامي، أو يشّوه تكَامُليته ونقاءَ التصور الإسلاميَ المُنسجِم الشامل .

إن الشيوعيين في المشرق الإسلاميّ ـ مثلاً ـ قد أغفلوا كلمة الشيوعية في حوارهم وهجومهم على الإنسان المسلم، وأحلّوا كلمة «الاشتراكية» محلها . . ثمَّ لما فشلت اشتراكيتهُم، أطلقوا على أنفسهم شعار «اليَسَارية»، ويزعمون أنه يعني الأسلوبَ الثوري المعارض . . وليس له عَلاقة برفض الدين أو المادية الجدلية، بل هو أسبقُ زماناً من الشيوعية، فكل هذه الأساليب يجب أن تَرْصُدَها الثقافةُ الإسلامية، وأن تُحصِّنَ الإنسان المسلم ضدَّ ألوانها الماكرة .

إن تطور الثقافة الإسلامية حقيقة من حقائق بنائها الداخلى، وهذا هو الذي يعطيها بُعداً تنفرَّد به عن بعض العلوم الإسلامية، كالتوحيد، والحديث، والتفسير، ولئن اشترك الفقه معها في نفس الخصيصة، فإن فرقاً أساسياً يَبقَى قائماً بينهما هو أن الفقه يواجه تطور الحركة الداخلية للحياة الإسلامية.

أما الثقافة الإسلامية، فمهمتُها أنْ تقفَ كحارس يحمي الجبهة الخارجيّة، وتردَّ الأعداءَ المتربصين، وتساعدَ «الفقه» في الوقت نفسه علي أداء رسالته وتطوير المجتمعات الإسلامية، وتقدَّم لفروعه التصورات الكلية والأبنيَّة التطبيقية...

إنها الزاد الضروري لكل مسلم معاصر يريد أن يعيش وفق الصياغة الإسلامية للحياة، ويملك الإرادة الإيمانية التي يواجه بها التصورات المعادية، مسلحاً بأصول الإسلام الثابتة، وثقافته الإسلامية المتطورة.

الثقافة الإسلامية إنقاذ للإنسانية المعاصرة:

من بين الثقافات المعاصرة، في عالمنا الذي تتلاطمُ فيه أمواجُ الثقافات من يسار إلي يمين - تقف الثقافةُ الاسلامية حاملةً رايةَ الإنقاذ للبشرية.

أجل.. إن زماننا - كما يقول «رايت ملس» - لهو زمان القلق وعدم الاهتمام واللامبالاة بصورة لا تسمحُ للعقل أن يفعلَ مفعولَه الهادئ، ولا تَسمحَ للحياء أو الشعور الرقيق النبيل أن يفعلَ مثْله.

وقد اضطرب أمر الفكر الإنسانى، لكثرة ما حُشر فيه من زيف، وما زُيِّنَ فيه من باطل، وما انحرف فيه الإنسان عن الفطرة؛ حتى أصبح الوصول إلي الحق - وإلي الحلول الصحيحة المطابقة للسنن الكونية والاجتماعية - أمراً متعذراً غاية التعذر..

ولقد ساعد على ذلك تلك الوسائلُ الإعلاميةُ الرهيبةُ القائمة على استغلال أحدث أساليب الدعاية، من تحليل، وتركيب، قائمين على «أن الغاية تبرر الوسيلة»!!

وبالتالي، فلم يَعُدْ بالإمكان تخليص الأفكار الحديثة من الجراثيم التى دخلت إلى بنْيتها الداخليّة، وأصبحت كالسرطان لا تنفصل إلا ببتر العضو نفسه..

ويترجم المفكر البروفسور «بومان» عن هذا المرض الفكري الخطير الذي دخل إلى جسم الحضارة الحديثة ولم يَعُدْ بالإمكان إخراجه منها، فيقول لنا: «إنه مهما تختلف

محاولاتُ الإصلاح بين كونها جسورةً أو خجولةً، بعيدةَ المرمى أو حذرة، فإنها ـ جميعاً تتفقُ على أن الأفكار الموجهة للحضارة أو الثقافة الجديدة «المنشودة» يجب أن لا يُبحثَ عنها في الأشكال العادية أو المألوفة، بل إن المطلوب عمله ضرورةً لهو شيء أبعد مدى بكثير من مجرد إعادة تشكيل، أو إعادة تنظيم للآراء السائدة» . .

والذى لم يستطعْ «بومان» الاهتداء إليه . . بحكم تكوينه الغربى الذي لم يَتَلَقَ إلا صورةً مشوهةً عن الثقافة الإسلامية، هو أن «الثقافة الإسلامية» ـ وحدها في الأرض ـ وهي ثقافةغيرُ حاضرة الحضور الجدير بها في ساحة الصراع الثقافي العالمى ـ هي الثقافة البديلةَ لهذه الآراء اسائدة، ولهذه الأشكال الإعادية.

وما هو مختل في الغرب بسبب من سيطرة «التكنولوجيا» علي إنسانية الإنسان، أو بسبب الانفصام بين الروح والمادة، أو غياب الأهداف العُليا الواضحة، أو الصراع بين العقل والدين الكَنَسيّ . .

. . وهذه الاضطرابات ـ وغيرها ـ التي أوْدَتْ بوضع الفكر الأوروبي الحديث تبرأ منها ثقافةٌواحدة، وفكرٌ واحد، في هذا العالم . . إنها الثقافة الإسلامية.

إنها الثقافة الوحيدة التي تجيب على سؤالين يبدوان متعارضين للنظر العادي بينما هما . . وجهان لعُملة واحدة، ومع أن ثقافة العصر قد جعلت منهما قضيتين متصارعتين . . وهذان السّؤلان هما :

* ما حدود أن يعيش الإنسان في دائرة نفسه؟ .

* وما حدود أن يعيش الإنسان للآخرين؟ .

وبتعبير آخر : كيف تبقى الذاتُ الإنسانيةُ في مستوييها الفردي والاجتماعي، عاملةَ ومؤثرةَ بتوازن والتزام؟ .

لقد كانت الثقافةُ في الماضى هي الشخصيةُ الحضاريةُ للأمة بمعنى الكلمة، فكان من الممكن التعبير عن الأمة بثقافتها، بل كان من المُمكنِ تقسيم العالم إلى ثقافات . . .

لكن تقدُّم وسائل المواصلت، وبخاصة وسائل مواصلات الفكر . . يضاف إلي ذلك

---

(١) المسلم المعاصر، عدد ١٦، مقال خالد إسحاق (الدعوة والالتزام).

تلك النزعةُ الغربيّةُ الراميةُ إلي فرض وحدة ثقافية غربية مادية علي العالم المعاصر . . هذان العاملان قد أحدثا التحاماً وتشابكاً بين ثقافات الأرض، بحيث اختلطت الأسلاك من هنا ومن هناك، وأصبح يمرّ من خلالها كلّها، في الصين، أو في اليابان، أو في ألمانيا الغربية، أو الشرقية، أو الهند أو أقطار العالم الإسلامي ـ سلك واحد، يكاد يُشْعِلُ الشحنات المنبثة في كل الأسلاك، هذا السلك الذي أحدث هذا الارتباك والتشابك بينَ الأسلاك، وأفقد أكثرَها أجزاءً كبيرةً من مقومات ثقافته، هو سلكُ الثقافة الغربية.

ولما كان تيار الثقافة الغربية، والتيارات الدائرة في جاذبيته، قد دخلها جميعاً من أمراض الحضارة، ما يستحيل معه إمكانية الإرسال والاستقبال الصحيحةً . .

فبالتالى، وجب توجيه خط كهربائي آخر منفصل . . قائم على دعائمَ أُخرَى، وبعيد كل البُعد عن مجال الفوضى الفكرية المتشابكة.

ومن هنا تأتى ضرورة الثقافة الإسلامية للإنسان الحديث!!

والخطر الآخر الخطير الذي أحدثته السيطرة الأوربية الثقافية، في تصورها المادى، فضلاً عن أنها أفقدت الثقافةَ مُحْتَوَاها الشخصي للأمة أنها ـ أيضاً ـ فرَّغت الثقافة من محتواها الديني، بل إن الذهنية المعاصرة أصبحت تفهم الثقافة على أنها شيءُ منفصل عن الدين . .

وإنه لمن المحزن حقاً أن يُقْصَدَ بالثقافة ـ في المستوى التطبيقي والتنظيمي الحديث ـ مراكزُ العناية بالفنون والآداب وحسب، وربما بنوع واحد من هذه الفنون والآداب، وأعنى به الفنون والآداب العاميّة أو «الفولكلورية».

أما ثقافة الأمة الرفيعة، فهي مُنْزَوِيَةٌ في المعاهد ذات الصيغة الأكاديمّية.

ولهذا التدهور ـ في تصور وتوجيه مضمون الثقافة ـ فقدت الثقافة المعاصرة دورها، كمحيط يتحرك الإنسان في داخله، وكبُوَيْضَة ينمو جنينُ الحضارة في أحشائها، وينمو معه جميعُ خصائصه الحضاريَة.

ومن هنا . . فإن قيد «الإسلامية» في الثقافة، وارتباط «الثقافة» بالإسلامية يُعيد إلى الوظيفة الثقافية دورها في التاريخ، وهو إذ يعيدها إلى دورها، يعيدها عامرةً بكل مضمونها الإيجابي والتاريخى الفاعل . . ويُعيدُ في الوقت نفسه إلي عالم اليوم المُسْتَعْمَرِ

بالغزو التغريبي المدمر الشامل - الأملَ في إمكانية بروز ثقافاته المستقلة، والأملَ في أن تظهر في العالم «ثقافاتٌ» حرةٌ متعددةٌ، غيرُ مقهورة بالثقافة التغريبية التي تتكئ على استعمارين في آن واحد:

١ - استعمارٍ عسكري وسياسي وأخلاقي مدمِّر للحضارة البشرية جمعاء..

٢ - واستعمارٍ «تكنولوجي» مدمر لإنسانية الإنسان.

إن أخطر ما يواجه العالم المعاصر هو ما يسمى «بالواحدية الثقافية» أي أن يسير قطار الحضارة على هوى السائق المخمور الذي يسمى بالثقافة الغربية، ومعروف نتيجة قيادة سائق هذا شأنه!!.

ومن هنا.. تأتي أهمية الثقافة الإسلامية لعالمنا المعاصر، إنها الثقافة التي تؤمن بضرورة الصراع والتنوع، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[١]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

ومن هنا.. فإن الإنسانية المعاصرة تستطيع أن تعيش في ظل هذه الثقافة، وتعطي عطاءً متنوعاً، وتجد دائماً الطريق إلى المثل الأعلى، الذي يشدّ كل الخيوط الثقافية إليه.

---

(١) هود: ١١٨، ١١٩.

(٢) يونس: ٩٩.

الفصل الثاني

بناء الثقافة الإسلامية

وحدته العضوية، وأجزاؤه

١- الثقافة الإسلامية.. وحدة لا تتجزأ.

٢- العقيدة الإسلامية...

٣- الشريعة الإسلامية...

٤- الأخلاق الإسلامية...

بناء الثقافة الإسلامية
وحدته العضوية، وأجزاؤه

الثقافة الإسلامية.. وحدة لا تتجزأ:

«الدين» ـ مهما اختلف في تعريفه ـ هو الانقياد الكلى لله وفق المنهج الذي يحدده سبحانه[1]، وبالتالى . . فإن التكامل بين الاعتقاد والتشريع والأخلاق ـ ضرورة في كل دين .

ومهما يكن الجانب التشريعى قليلاً في أي دين، فإنّ هذا الدين لابُد وأن يؤدي بالضرورة إلى ربط سلوك الفرد بتعاليم الله، وإلا كان الدينُ مجردَ تأثيرات نفسية لا رصيد لها من الواقع، كما هو الحال الذي آلَ إليه أمرُ النصرانية في كثير من حقب التاريخ؛ بسبب إهمال القائمين عليها للجانب التشريعي، والاعتماد علي النصح الأخلاقي الفردى؛ وبسبب شيوع ذلك الشعار الخادع بين أوساط المؤمنين بها: «أعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر» فهذه القسمة الضيزى لا يمكن أن يرضى بها الله ـ سبحانه وتعالي ـ وليست من طبيعة الدين . . أيّ دين . .

«إن ملكوت الله» ـ شاء النصارى أم أبوا ـ هو الدنيا والآخرة معاً، ولا يليق بمقامه وقدره جل جلاله أن يشاركه أحدُ من عباده في كونه دنيا وآخرة!! .

ولذا . . فالشريعة إنما هي بمعنى من المعانى، قلَّت تعاليمها أو كثرت، جزء من العقيدة الدينية . . وهى هدفها . . والعلاقة بينهما هى العلاقة التى تربط القلب بالدم .

أما الخلل الذي جاء في التصور النصراني، فالحقيقةُ أنَّ مرجعَه ليس إلى أنَّه دينٌ نشاز عن بقية الأديان، كلا، فالحقيقة الدينية في أصلها وطبيعتها واحدة .

وإنما يرجع الخلل، بفعل ظروف تاريخية ـ إلي سببين أساسيين:

أولهما- أنه لم يوجد إنجيلُ عيسى نفسه، وما وجد، أو ما عرف من الأناجيل المعتمدة

---

(١) انظر: في تعريفات الدين: محمد عبد الله دراز: الدين، ص ٣٠، طبعة الكويت.

لدى فرق شَعْب الكنيسة، وهى الأناجيل الأربعة (لوقا ومرقص ويوحنا ومتّى)..
هذه الأناجيل ليست أكثرَ من مذكرات شخصية دوّنها تلامذة للمسيح ـ عليه السلام ـ بعد مدة من وقوع الأحداث، وفي جوّ مضطرب نفسياً واجتماعياً.

وثانيهما- أن النصرانية ليست إلا امتداداً في تشريعاتها لليهودية، ويعتبر العهد القديم «التوراة» الأصل لهذه الأناجيل، وبالتالى فهو مصدر للنصارى كما عند اليهود، وهو بالتالى يسدّ العجز الموجود في الجانب التشريعي لدى النصرانية!!

ومعلوم أن التعريف المعتمد للتوراة هو أنها «المجموعة الدينية والتشريعية لأولى»[1]، وهي تضم ثلاثة كتب:

١- كتاب الملوك (توراة موسى الأصلية، وخمسة إصحاحات).

٢- كتاب الأنبياء (بعض الأخبار).

٣- كتاب القضاة أو الفريسيين (العهد القديم).

وقد أضاف اليهود فيما بعدُ إلى توراتهم بأجزائها الثلاثة، كتابين آخرين هما: التلمود والبروتوكولات.

وقد استمرت الشريعة المُوسَويّة معمولاً بها في الأوساط اليهودية، وتكَّونت من التوراة ومن الآثار الشفويّة مدوَّنة فقهَية تُعرف باسم«المشنا» ألفها الحبر «يهود أحكادوش» الذي عاش بين سنتى ١٣٥ وسنة ٢١٠ عبرية[2].

فالجانب التشريعي في الدين اليهودي جانب بارز وغير منكور، بل وله فقهه واجتهاداته، التي اعتبر آخرها وأكثرها خطراً وخطيئة هو «البروتوكولات»!!

وما يقال عن دور اليهودية والمسيحية يقال كذلك عن دور الأديان كلها، وصدق القرآن الكريم الذي يقول للمسلمين، مترجماً هذه الحقيقة:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ

---

(١) علال الفاس: مقاصد الشريعة، ص ٢٧ نشر الدار البيضاء.

(٢) المرجع السابق.

يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[١].

وإذا كانت هذه هي طبيعة البناء الداخلي لكل دين، فهذه الطبيعة ألصق ما تكون بالإسلام، إذ أن هذه «الانفصامية» ليست من طبيعة المبادئ الإسلامية، لا بين العقيدة ولا الشريعة ولا الأخلاق.

«فللعقيدة» جانبها «التشريعي» المؤكد لها في واقع الحياة.

وما يسمى «شريعة» قد يتدرج ـ أحياناً ـ في «الأخلاق».

«والأخلاق» قد تفرض أو تقنن، وتصير «تشريعاً».

بل إن الإجحاف بالعقيدة، أي الإشراك بالله، قد اعتبره القرآن عملاً منافياً للأخلاق وللتشريع: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٢].

والآية الواحدة من القرآن قد ترد، وهي شاملة لجوانب العقيدة والشريعة والأخلاق دون أية انفصامية، ولنضرب مثلاً بالآية الكريمة:

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٣].

فجمع القرآن في آية واحدة بين الجوانب الاعتقادية والتشريعية والأخلاقية، ولم تقف الآية بالدين عند ذلك المعني الضيق الذي حدّده الغربيون للدين، وسارت عليه الكنيسة، وهو معني «العقيدة الشخصية أو الوجدانية» ذلك الذي لا يمتّ إلى حقيقة الدين ولا طبيعته بصلة موضوعيّة[٤].

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) لقمان: ١٣.

(٣) الأنعام: ١٥١.

(٤) انظر: د/ محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث، ص ٢٢٥، طبعة مكتبة وهبة «الثامنة» القاهرة.

يقول الفيلسوف الشاعر محمد إقبال: «إن الإسلام ـ كوحدة روحية مثالية ـ يتضمن مبدأين أساسين يساعدان الفرد والمجتمع علي مسايرة التغير المستمر في العالم الواقعي، وهما: ختم الرسالة، والاجتهاد في الأحكام».

فإقبال هنا يُبرز فقهه للإسلام في أنه «وحدة روحية مثالية» تقبل التطور، بينما هي محافظة على هذه الوحدة.

ويقول الشاطبي في الموافقات: «إن القرآن الكريم كلُ الشريعة، وهو عمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة».

أما الداعية الإسلامي أبو الأعلى المودودي، فيحدد هذه الوحدة تحت عنوان سماه: «نظامُ الشريعة كل لا يقبلُ التجزئة» ـ بقوله:

«هذه الصورة للحياة صورة متشابكة متكاملة، ولا طبيعة يمكنها البقاء إلا وهي متكاملة الأجزاء والفروع كأن وحدتَها كوحدة الجسد الإنساني؛ لأن الشيء الذي تعرفونه بالإنسان إنما هو جسد الإنسان الكامل»[١].

وعلي هذا «فإن جزء الشريعة المعبر عنه ـ حسب المصطلح الجديد ـ بلفظ القانون، إنما هو جزء من خطة متكاملة متشابكة للحياة، وليس هو في حد ذاته بشيء مستقل حتى يكون من السهل فهمه وتنفيذه مع تجزئته عن كله»[٢]، وما يقال عن الشريعة يقال عن العقيدة وعن الأخلاق!!

أما المفكّر الذي هداه الله إلي الإسلام وتسمّى باسم (محمد أسد) فهو يُعبّرَ عن هذه الحقيقة الشموليّة التي استهوتْه في الإسلام بقوله:

«ولا أستطيع اليوم أن أقول أيّ النواحي قد استهوتني أكثرَ من غيرها، فإن الإسلام علي ما يبدو لي بناءٌ تامُ الصنعة، وكلُّ أجزائه قد صيغت ليتمم بعضُها بعضاً، ويشدّ بعضها بعضاً فليس هناك شيءٌ لا حاجة إليه، وليس هناك نقصٌ في شيء؛ فنتج عن ذلك كله ائتلافٌ مُتَّزنٌ مرصوصٌ، ولعل هذا الشعور من أن جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض «قد وضِعت مواضعها، هو الذي كان له أقوي الأثر في نفسى»[٣].

---

(١) نظرية الإسلام وهدية، مؤسسة الرسالة، ص١٥٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الإسلام علي مفترق الطرق، ص ١٥.

العقيدة الإسلامية:

عقيدة المسلم، تتلخص في مبادئ بسيطة، واضحة، لا غموضَ فيها ولا التواء.

أولاً: لا إله إلا الله أي: الوحدانية المطلقة المنزهة عن كل مظاهر الشرك.

ثانياً: محمدٌ رسولُ الله وخاتمُ النبيين «عليه الصلاة والسلام».

ثالثاً: الاعتقاد في نبوة كلِّ مَنْ وَرَدَ ذكرُهم في القرآن من المرسلين.وفي غيرهم ممن لم يرد ذكرهم وصحَّتَ نبوتهمَ، أو بتعبير وجيز «الإيمان بمبدأ الوحى والنبوة» من ناحيتي القوة «الإمكان»، والفعل «الوجود».

رابعاً: الإيمان بالكتب السماوية من ناحية أصل التنزيل ونَبْذ ما حرّف منها.

خامساً: الإيمان بالملائكة.

سادسا: الإيمان بالبعث والحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار، والقضاء والقدر ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾(١).

إن الله في عقيدة المسلم لا يشبهه البشر في شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٢).

﴿قل هو الله، أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد﴾.

إنه ـ سبحانه وتعالي ـ:

*** خالق كل شيء:**

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٣).

والعليم بكل شيء:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾(٤).

---

(١) البقرة: ٢٨٥.
(٢) الشورى: ١١
(٣) الزمر: ٦٢، ٦٣.
(٤) الرعد: ٨، ٩.

والمنعم بكل شيء:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[1].

ومبدع كلّ شيء:

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2].

وتنزيه الله من كل شبهة تجسيم أو تشبيه ـ حقيقة «أساسية» من حقائق التصور الإسلامي.

كما أن تفردّ الله سبحانه بكل حقوق الرُّبوبية الواحدة حقيقةٌ أساسيةٌ في هذا التصور كذلك.

فهو سبحانه بريء من كل ما تنسبه إليه التوراة من أنه كان يتعب ويستريح أو كان يصارع عبده يعقوب، أو يتمثل في صورة بشر، أو يظلم جنساً من البشر لحساب جنس آخر، أو يجهل بعض الأنبياء.. أو يحزن أو يندم.. إلى آخر هذا الزيف من التصورات السَّاذجة التى لا تليق بجلال الله ـ تعالى ـ عن ذلك علواً كبيراً.

كما أنه ـ سبحانه ـ بريء من الولد، وما يتبعه، قبل وبعد، من مشاعر وأعمال.. فالخلقُ كلهُم عبيده وعياله، وهو يصطفى منهم من يشاء، ومقياس تفاضلهم جميعاً واحد.. وحاشاه أنْ يتّحدَ مع أحد، أو أن يقتربَ إلي درجة ألوهيته أحدٌ، أو أن يتجاوز أحد مهما كان درجة عبوديته سواء كان عيسى، أو محمد، أو إبراهيم أبو الأنبياء، فكلهم عبيده ورسله، وهذا أكبرُ فَخْرِهم وشرفهم.

وحاشاه ـ سبحانه وهو الواحد الأحد المتفرد ـ أن يرضى بعبودية المشاعر ويتنازل عن عبودية السلوك.. أى أن يقبل الأعمال المتصلة بالآخرة، ويتنازل عن أعمال الدنيا.. ولأيّ شيء جاءَ الدينُ إذنْ؟!!

---

(١) غافر: ٦٤.

(٢) الأنعام: ١٠١: ١٠٣.

ألم يأتِ الدينُ للدنيا . . نظاماً ومشاعراً معاً؟!!

وإن مقتضى وحدانيته الحقة ـ سبحانه ـ أن يُفردَ بالعبادة، فلا يُركعُ ولا يُسجدُ لسواه، ولا يُؤَلَّه غيرُه . .

وإن مقتضى هذه الوحدانية الحقة ـ كذلك أن تخضعَ أعمال الناس لحكمه سبحانه دون شريك، من «مجلس قانوني» أو «تشريع بشري وضعى» لا يحيط بالبناء الفطري الإنساني فالحكم من مقتضى عبوديته، وصَدَقَ القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ـ وهكذا، فهو توحيد مطلق ممتد، ومنساب في عالم المشاعر والسلوك، وليس في هذا التوحيد شركاءُ ولا أندادُ، سواءَ سُمُّوا بهذه الأسماء، أو تلفَّعُوا بأردية قانونية أو جدلية أُخرَى.

الشريعة الإسلامية ومصادرها:

تَستَمدُ الثقافةُ الإسلامْية ـ عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً ـ منابعَ حياتها الأساسية من مصدَرين أساسين هما:

أ- القرآن الكريم.

ب- والسنة الشريفة.

وهما اللذان اصطُلِحَ على جعلهما مصادرَ التشريع الإسلامي الثابتة.

أما القرآن الكريم فهو كتاب الله المنَّزل على محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلسان عربي مبين، منجماً في مدة ثلاث وعشرين سنةً، والمُتَعَبَّدُ بلفظه ومعناه، ولا يجوز عليه التبديلُ ولا التحريفُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

ويحتوي القرآن علي (١١٤) سورة، وعلي ثلاثين جزءاً، وستين حزباً، و(٢٤٠) ربعاً، وعلى نحو (٦٢١٩) آيةً.

وقد قرأ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ القرآن كاملاً علي الصحابة، كما هو بوضعه في المصاحف قبل وفاته، وبَعْدَما تُوفي النبيُّ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أمر أبو بكر الصديق ـ الخليفة الأول بعد رسول اللّه ـ والذي تولّى لمدة عامين فقط ثم مات إثرهما ـ أمر

---

(١) الحجر: ٩.

أحدَ الصحابة وهو زيد بن ثابت ـ بجمع القرآن من الرِّقاع وسعاف النخل، ومراجعته على حفظ الناس، مع الاستعانة في ذلك بجيل الصحابة كلِّه، وهو ذلك الجيل الذي كان يتعبدُ بالقرآن في صلاته وحياته، وكان من الورع وخشية الله ـ مع مراقبة جيل الصحابة كلِّه ـ، بحيث يستحيلُ معهم أيُّ تغيير أو تحريف، في ذلك الكتاب الذي يقدِّسونه، والذي لازال عهدهم به حياً لم يجاوز عامين بعد وفاته ـ عليه السلام ـ وكان يتعاون على جمعه صحابة صالحون أبرار مع زيد بن ثابت، مثل عليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير.

ثم في عهد عثمان بن عفان (سنة ٣٠هـ - ٦٥٠م) نُسختْ من هذا القرآن عدةُ نسخ (بدون خلافات لهجية قرائية)، ووزعت على الأقطار كلها!!

«ويشتمل القرآن علي أحكام في العقيدة والمعاملات وأخرى في الأخلاق والعبادات وآيات الأحكام المتعلقة بالمعاملات فيه، وهي أقل من غيرها، وقد قدرها الغزالي وابن العربي بخمسمائة آية، قال الشيخ خضر بن حسين ـ رحمهُ الله ـ واقتصروا في تقديرها علي هذا العدد؛ لأنهم رأوْا مقاتلَ بن سليمان ـ وهو أول من أفرد آيات الأحكام في تصنيف ـ قد جعلها خمسمائةَ آية، وقد نازعهم ابن دقيق العيد في هذا التقدير، وقال: «إن مقدار آيات الأحكام لا تنحصر في هذا العدد، بل هو يختلف باختلاف القرائح والأذهان، وما يفتحه الله من وجوه الاستنباط، والراسخ في علوم الشريعة يعرف أن منْ أصولها وأحكامها ما يؤخذ من مواردَ متعددةٍ حتى الايات الواردةُ في القصص والأمثال»[1].

وينقسم القرآن من حيث الإجمال والتفصيل إلي أربعة أقسام:

١- التشريع المجمل، وهو معظم العبادات.

٢- التشريع الذي فيه البيان علي نحو ما، كالأحكام المتعلقة بالجهاد، والدفاع عن النفس، والعلاقات الدولية.

٣- التشريع التفصيلى، ومثاله القصاص والحدود، والحلال والحرام من الطعام، وأصول روابط الأسرة والميراث.

---

(١) علال الفاس: ٨٣.

٤- القواعد العامة للتشريع والاجتهاد[١].

أما من ناحية «الموضوع القرآني»، «فهو كتاب حياة» «ومنهج وجود للإنسان» بالمعنى الممتد للوجود، أي: في الماضي والحاضر والمستقبل» فالماضي هو ما حكاه القرآن عن قصص الأولين منذ بدء الخليقة، ومروراً بقافلة الصراع بين الأنبياء وأممهم، وحاضراً من ناحية التشريع الصالح في الحياة الدنيا ـ فضلاً عن ملابسات مسيرة الدعوة الإسلامية، والقيم المستخلصة منها، ومستقبلاً. . فيما يتعلق بالمستقبل الإنساني على وجه الأرض في ظل تدهور القيم الإنسانية، وفقدان الصلة بالله، وما يلي ذلك من قيامة وحساب وثواب وعقاب، وجنة ونار، . . ويتخلل ذلك كلّه «منهجٌ تربويٌ» فيتلقي الحقائق، والتعامل معها، والنظر في آفاق الكون والنفس، كما يتخلل ذلك كلّه نظريةٌ في المعرفة، التجريبي منها والتجريدى.

وفي الوقت نفسه. . ثمة إجابات شافية عن كل التساؤلات الكبرى حولَ «الميتافيزقيا»، وحولَ الطبيعة البشرية، وأسلوب التعامل المنسجم مع الفطرة والسنة الكونية ـ وكل ذلك يرتبط بالمنهج. . أي بالشريعة، ولا ينفك عن العقيدة، كما لا يمكن إحداث أيّ فصل ـ سواء علي مستوي التصور أو التطبيق بين أجزاء القرآن الكريم، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

وقد حظى القرآن بعناية كبيرة دلّتْ عليها الحقائقُ التي ذكرناها من ناحية جمعه وتدوينه، وليس في البشرية الآنَ كتاب يدانيه في هذا، كما يشهد المستشرقون المنصفون أنفسُهم، وحسبنا أن نراجعَ واحداً من أبرز الكتب الحديثة عن «التوراة والأناجيل والقرآن في ضوء الحقائق العلمية»[٣] لمؤلفه الجراح الفرنسى العالمى «موريس بوكاي» لنعرف أن القرآن هو المصدر الوحيد في الأرض الذي يصح أن ينسب بكل ثقة واطمئنان إلى الله سبحانه وتعالي.

---

(١) بتصرف واختصار من المرجع السابق.

(٢) البقرة: ٨٥.

(٣) اسم الكتاب: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، طبع دار المعارف بمصر.

وكما عُنى المسلمون بالقرآن، عبادةً، وتلاوةً، وحفظاً في الصدور، وكتابةً، ونشراً في الآفاق، وترتيلاً بالصوت ـ كذلك أقاموا حول القرآن سوراً من العلوم التي تعيش عليه، وتستمد وجودَها منه، وتصنع مناهجها وموضوعَ بحثها مِنْ بُعْدِ من أبعاده، وجانبٍ منْ جوانبه.

فهذا علم التفسير الذي كان أولَ من صنَّفَ فيه «عبد الملك بن جريح» المُتَوَفَّي سنة ١٤٩هـ ـ ٧٦٦م ومن أشهرهم ابن جرير الطبري المَتَوَفَّي سنة ٣١٠هـ ـ ٩٢٢م، إذ صنف كتاباً في ثلاثين جزء.

ومن مشاهير المفسرين ـ كذلك ـ الرازى صاحب «مفاتيح الغيب»، والزمخشرى، والبيضاوي وغيرهم، حتَى وصل التفسير في العصر الحديث إلي أيدي مفكرين كالشيخ محمد عبده، والشيخ رضا، والمراغي، ومحمد أبو زهرة، والشهيد سيد قطب.

وهذا علم إعجاز القرآن الذي ألَّف فيه «الجاحظُ» صاحب «نظم القرآن»، والجرجاني، والباقلاني، والرُّمَّاني، والقاضي عياض، حتى وصل إلي رشيد رضا في الوحي المحمدى، ومصطفى صادق الرافعى في «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية».

وهذا علم يُسمَّى «علوم القرآن» يتحدث عن أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ.. والمحكم والمتشابه، والقراءات، وجمع المصحف وتدوينه، وما إلى ذلك، وقد ألَّف فيه السيوطى صاحب «الإتقان في علوم القرآن» قديماً، ومن المحدَّثين ألَف فيه الشيخ الزرقاني صاحب «مناهل العرفان» والشيخ منَّاع القطان في كتابه «مباحث في علوم القرآن».

وقد أخذ فن القصة نصيباً من الاهتمام، فألَّف فيه كثيرون منهم في العصر الحديث الدكتور مصطفى عبد الواحد (المصرى)، والدكتور التهامي نقره (التونسى) صاحب كتاب (سيكولوجية القصة في القرآن)، والأستاذ (عبد المتعال الصعيدي)، وسقط في فهمه وتحليله وتوثيقة أصحاب الاتجاهات المادية، ومنهم الدكتور محمد خلف الله صاحب كتاب «الفن القصصي في القرآن».

وهكذا توافر للقرآن الكريم من وسائل العناية والحفظ والفقه والمعايشةً ـ من أجيال الأمة المسلمة ـ جاهلهم، وعالمهم ـ ما لم يتوافر لكتاب سماويّ، كما أنّ تدوينه المبكر جداً على خلاف بقية الكَتب المقدسَة، والتعبُّد به في الصلاة وفي سائر الأوقات ـ كل ذلك،

وغيره ـ قد جعل القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الفريد المعجز الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١).

وكان هذا الكتابُ الكريمُ ـ الذى لا يرقى إليه شك ـ المصدرَ الأولَ للتشريع الإسلامي.

السنة النبوية:

والسنة هي ـ المصدر الثاني للإسلام فكراً وتشريعاً ـ وهي تنتظم كل ما صدر عن الرسول ـ ﷺ ـ ودخل في باب التعليم والتربية لأمته، سواءٌ كان قولاً منه ـ عليه السلام ـ أو فعلاً، أو تقريراً.

ودورها أنها تأتي بعد القرآن مُبَيِّنَةً ومُوضحة ومُؤكدة، وقد تأتي باضافة فرعيّة لم ينص عليها القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢) وقد بقيت السنة محفوظة في الصدور مدةً تزيدُ قليلاً عن ثمانية عقود بعد رسول الله ـ ﷺ ـ إذ أن تسجيلها كتابة لم يكن مرغوباً فيه، علي نحو عام وشائع، إبان الفترة الأولي، حتى لا تختلط في الذاكرة المسلمة مع تطاول العقود ـ بالقرآن الكريم.

لكن ـ وعلى مستوى خاص جداً ـ أبيح لبعض الصحابة تدوين السُّنَّة، مثل إباحة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لعبد الله بن عمرو بن العاص، تسجيلَ الحديث، كما أن هناك صحابة عُرفوا ـ منذ أيام الرسول الأولى ـ بالتخصص في متابعة الحديث النبوى مثل: «أبي هريرة». أما القرآن فكانت متابعته واجب الأمة كلّها.

وفي عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز (٧١٧م ـ ٧١٩م) ابتدأ جمع الحديث.

وثمة رواية أخرى تقول بأن هذا الجمع بدأ قبل ذلك أيام إمارة عبدالعزيزبن مروان لمصرَ (٨٥هـ ـ ٧٠٤م)(٣).

ويضع الجراح الفرنسى المعاصر «موريس بوكاي» الحديث النبوى في مرتبة

---

(١) فصلت: ٤٢.

(٢) النحل: ٤٤.

(٣) انظر: د/ فاروق النبهان: مبادئ الثقافة الإسلامية، ص١٦٨، طبع الكويت.

«الأناجيل» من ناحية أنها تنسب إلى رواة ينسبونها إلى النبى - عليه الصلاة والسلام - ومن ناحية أنها مثلُ الأناجيل - وعكس القرآن - في التأخر الذي لحق بتدوينها[١].

لكن الذي لم يدركه «بوكاي» - أن منهج الفحص العلمي الذي خضع له الحديث منهج يفوق بمراحل كثيرة المنهج الذي اعتمد في تدوين وتمحيص الأناجيل. فالأحاديث أوثق من الأناجيل؛ على الأقل لأن الحديث قد دُوِّن بعد ثمانية عقود فقط من وفاة الرسول - لكنّ الأناجيل - لم يعتمد تدوينها إلا بعد ثلاثة قرون كاملة (مجمع نيقية ٣٢٠هـ - ٩٣٢م) وقبل ذلك كانت أناجيل عادية كأية أناجيل، ولو أنَّ اعتمادَ الأناجيل الأربعة التي تعترفُ بها الكنيسة جاء نتيجة إخضاع نصوصها للمنهج العلمي، أو المنهج النقدي التاريخي، كما جرى في الحديث بواسطة «علم الجرح والتعديل» الذي ينظر في «السند» «بأسلوب النقد التاريخي» الذي يُعْنَى بتسلسل الحلقات، وشخصيات الرواة، وينظر في «المتن» ومدى انسجامه مع القرآن والحقائق الإسلامية، وهو ما نسميه بالنقد العلمي للنص.

نقول: لو أن اعتماد هذه الأناجيل جاء نتيجة هذا المنهج لكان من الممكن أن ترتفع «بتوثيقها» إلى المستوى الذي تستحقه - لكنّ الذي حدث في «مجمع نيقية» كان أشبه بقرار عسكري من «قسطنطين» بضرورة إيجاد «صلح» بين الوثنية والنصرانية والانتهاء من الخلافات الدينية القائمة على أساس الخلافات بين نصوص الأناجيل التي وصل عددها إلى نحو مائة إنجيل فيما يقول المؤرخون.

ومعروفٌ من مؤرخي الدولة البيزنطيّة - أن الأناجيل الأربعَة التي أُقرَّتْ، لم تحظَ بأغلبية من المجتمعين، وإنما فُرضتْ كما ألمحنا - بتدخل خارجيّ من قسطَنطين، فالسُّنَّة النبوية - كما نرى - أوثقُ من الأناجيل عند العرض على أصول المنهج العلمي.

والسُّنَّة تعني الطريقة، أى أنها تنقل إلينا الطريقة التي نتبيّنُ بها كيف قام النبى - ﷺ - بترجمة القرآن إلى واقع مُعَاش، وكيف أفرغ الفكرة الإسلامية في القالب العمليّ، وكيف شكَّل مجتمعاً إسلامياً على أساس هذه الفكرة، ثم كيف نظم هذا المجتمع وأبرزه في صورة دولة كاملة، وبهذه السُّنة - أيضاً - نعرف وجهة القرآن الحقيقة، فكأنها انطباق لمبادئ

---

(١) انظر: كتابه السابق الذكر، طبع دار المعارف بمصر.

القرآن علي الأحوال العملية تزوّدنا بسوابق ثمينة للدستور الإسلامي ونحصل بها على مجموعة مهمة كبيرة من التقاليد الدستورية(١).

ومنذ أربعةَ عشرَ قرناً من الزمان والسُّنةُ تمثلُ المفْتَاحَ الذي يُفْهَمُ به أسلوبُ الحياة الإسلامية، ويُفْهَمُ به سبيلُ العودة إليها، وطريق النهضة الإسلامية بوجه عام، أليست هي «المثال» الذي أقامه لنا الرسول من أعماله وأقواله؟!! أليست هي التفسير الأول الصحيح للقرآن الكريم؟!! ومن جانب آخر تقوم السُّنة بدور ذي ثلاث شُعَب:

١- فهي تمرّنُ الإنسان بطريقة فردية منظمة علي أن يحيا - دائماً - في حال من الوعي الداخلي والضبط واليقظة «اعبد ربك كأنك تراه».

٢- وهي تمرّن الإنسان على أن يكون نافعاً اجتماعياً، وإيجابياً في مواجهة العادات والتقاليد، ومتماسكاً مع مجتمعه الصغير والكبير(٢).

٣- وهي تجعل من إشعاعات الرسالة، الممثلة في سلوك الرسول حقيقة يمكن أن يتمثلَها المسلم، بمعني: أنّ هذا المسلم العادي الصغير الموجود في تركيا، أو باكستان، أو الجزيرة العربية، أو أندونيسيا، أو مصر، أو إيران - يستطيع أن يتمثل - مع اختلاف في مستوى التمثيل - شخصية أعظم مثل أعلى في التاريخ.

أليس اكتمال جوانب العظمة في حياة محمد أمراً اعترف به كل الدارسين والمفكرين والمؤرخين - أصدقاءً وأعداءً - ماداموا قد درسوا بحياد وإنصاف، حتي ولو لم يؤمنوا به؟!! ولعل آخر هؤلاء الدارسين الكاتب الأمريكي المسيحي «مايكل هارت» صاحب الكتاب الذي أحدث - كما يقولون - ضجة عالمية وتُرجم إلي معظم اللغات الحيّة، ونُشر في عشرات الصحف، وهو كتاب: «الخالدون مائة أولهم محمد رسول الله» فقد جعل هذا الكاتبُ (محمداً) - عليه الصلاة والسلام - في الدرجة الأولى كما نرى من عنوان الكتاب، بينما جعل المسيح في الدرجة الثالثة، وموسى - عليهم جميعاً السلام - في الدرجة الخامسة عشرة!! ومع أننا ننكر مثل هذا الخلط في أفكار الكاتب والنظر إلى عظمة الأنبياء، بنفس منظار عظمة البشر العاديين، الذين كان بعضُهم أذىً للبشرية - إلا أنَ ما

---

(١) انظر: المودودى نظرية الإسلام وهديه، ص ٢٣٨.

(٢) بتصرف من محمد أسد، ص٨٨.

يُركَّزُ عليه هنا الشهادة الإنسانية العامة المعترف بها لسموّ شخصية نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو الشخصية التي تدور حولها السنة، قولاً وفعلاً وتقريراً.

والسنة قسمان: متواترة، وأحاديث آحاد.

فالمتواتر ما نقل عن النبى ـ ﷺ ـ برواية جماعة ممن يؤمن تواطؤهم على الكذب، عن جماعة مثلهم حتى يصلوا إلى الرسول. . . وكل ما ليس كذلك فهو حديث آحاد.

والأحاديث المتواترة نادرة، وقد أفردها العلماء بالتأليف، وممن ألّف فيها ابن حجر العسقلاني، والسيوطي، ومن المتأخرين محمد بن جعفر الكتاني.

ولا خلاف بين الأئمة في الحديث المتواتر، ويُستدلُ به في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق العامة والخاصة، أما حديث الآحاد، فذهب جمهور الأمة إلى أنه يُستدل به فيما عدا العقائد، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2]﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[3] وتصرُّفُ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينقسم أربعة أقسام:

١- تَصرّفُ بالإمامة كالإقطاع وإقامة الحدود وإرسال الجيوش ونحوها.

٢- تصرفُ بالقضاء كألزام آداء الديون وتسليم السلع ونقد الأثمان وفسخ الأنكحة.

٣- تصرفَ بالفتيا كابلاغ الصلة وإقامة المناسك.

٤- تصرفٌ متردد بينَ هذه الأقسام[4] (والجمهور على أن هذه الأقسام كلها من باب التشريع والتوجيه).

أما الجانب المتطور «الاجتهادي» فى الحياة، كأمور الحرف والمهن، وتدبير الحرف، والزراعة، وطرق المعيشة، والبناء، وما إلى ذلك، فهذه كلُّها أمور غير تشريعية ويصح فيها ـ وحدها ـ قول الرسول عليه الصلاة والسلام ـ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

(٣) النساء: ٨٠.

(٤) انظر: علال الفاسى: مقاصد الشريعة.

وقد نبغ فى فن جمع الحديث كثيرون اشتهر منهم في عصر الصحابة أبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأم المؤمنين عائشة، وعبد الله بن عباس، وجابر ابن عبد الله، وأبو سعيد الخدرى.

كما اشتهر منهم في عصر التابعين كثيرون منهم سعيد بن المسيب، والزهري، ومحمد بن سيرين، بَيْدَ أنَّ أولَ مَنْ صنف في الحديث الصحيح «كَفَن» قائم علي التمحيص «الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتولى سنة ٢٥٦ هـ - ٨٦٩م» ثم جاء بعده الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١ هـ - ٨٧٤م) وقد التزاما بمنهج علمي صح أنْ يقولَ فيه الإمام ابن تيمية: «ليس تحتَ أديمِ السماء كتابٌ أصحَ من البخاري ومسلم بَعْدَ القرآن».

الأخلاق الإسلامية:

للجانب الأخلاقي في الإسلام دوره الذي لا يُنكر، وحجمه المناسب؛ لأهميته في الحياة.

وليس لنا أن نتوقع تنظيراً مستقلاً في البناء الإسلامي، يسمى «بالنظرية الأخلاقية الإسلامية» فهذه الانفصالية بين ما هو عَقَديّ، وما هو تشريعيْ، وما هو أخلاقيْ، لا تسمحُ بها طبيعة «الإسلام» التي لا تقبل التجزئة.

ومع ذلك فنحنُ نستطيعُ أن نرصدَ أُسُساً وقواعد للأخلاق في الإسلام، كما نستطيع أن نرصد أسساً وقواعد للجوانب التشريعية والعَقَدَيَة.

لا أخلاق بدون التزام..

إن هذه القاعدة تضطرد في المنظور الإسلامي.. لا بالمعنى الإلزامي القانوني الظاهري، ولكن بالمعنى «الإلزامي الداخلي» الذي يُوَاجهُ بقوة داخليَّة الانحرافَ العشوائيَّ نحو الشهوات، أو نحو التقصير في الواجبات الأخلاقية، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]، ﴿لَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾[2].

---

(١) ص: ٢٦.

(٢) النساء: ١٣٥.

والقوة الباطنيـة الملزمة، هي تلك القوة الموجهـة الفطرية، التي تستطيع أن تميز بين طريقَي الخير والشر ﴿وهديناه النجدين﴾[1] وتضغط لترجيح كفة الخير ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[2].

إن هذه القوة الباطنية تعتمد علي أن في نفس كل إنسان طاقة نورانية يمكن له بالعقل الواعي البصير أنْ يشعلَهَا «بأن يقرأ في كتاب فطرته النقية ـ ما سبق أن فطرها الله عليه، وبعبارة أُخرى فإنه عندما يرجعُ أشدُّ الناس إلحاداً إلي سلطة العقل فإنه لا يفعل سوى الإنصات إلى ذلكم الصوت الإلهي الذي يتكلم في داخل كلٍّ منا، دون أن يذكر اسمه، وهو ينطق صراحة، عندما يتحدث إلى المؤمن»[3]!!.

ويتصل بهذه الفكرة الأساسية، في التصور الأخلاقي في الإسلام وهي فكرة «الإلزام» فكرتان أساسيتان ناتجتان عنها، تستلزم إحداهما الأخرى، وهما: فكرة المسئولية، وفكرة الجزاء.

فأما المسئولية، أى التكليف بمعناه الإنساني العام، فتحدده تلك الآية القرآنية الكريمة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾[4].

ويرى الدكتور «محمد عبد الله دراز»، أن هذه المسئولية تتفرع عنها ثلاثة أنواع من المسئولية:

مسئولية دينية، ومسئولية اجتماعية، ومسئولية أخلاقية محضة[5] ويجمع هذه المسئوليات الثلاث تلك الآية القرآنية الكريمة التي تقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[6]، وأما فكرة الجزاء، فتأتي كَرَدِّ فعل طبيعي علي الموقف الأخلاقي الذي التزمنا به وتحملنا مسئوليته، بأعبائها الشخصية والاجتماعية.

---

(١) البلد: ٨.

(٢) النازعات: ٤١.

(٣) دراز: دستور الأخلاق في القرآن، ص ٣٦.

(٤) الأحزاب: ٧٢.

(٥) دستور الأخلاق في القرآن ص ١٤٠.

(٦) الأنفال: ٢٧.

وأنواع الجزاء التي يقول بها باحثو الأخلاق الإسلامية ثلاثة :

١- جزاء أخلاقي يغلب عليه الشعور النفسي، كما أنه قد يساعد مسار النفس علي الاستزادة من الالتزامات الأخلاقية، فيكون هذا، أيضاً، نوعاً من الجزاء، وكما يقولون فإن الحسنةَ تَلدُ حسنةً، كما أنَّ المعصية تلد معصية.

هذا، بالإضافة إلي تلك السعادة الروحية التي تغمر النفس، حين تشعر بأنها أدّتْ واجباً أخلاقياً، ولعلَّ في حديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما يؤكدُ هذا المعنى : «إذا ساءتْكَ سيئتُكَ وسرَّتْكَ حسنتُكَ فأنتَ مؤمن»[١]!!

٢- جزاء قانوني : وهو جزاء يتمثل في الحدود التي جاءت بها الشريعة من قصاص، ورجم، وجَلدوغيرها . .

٣- جزاء إلهي : ويتمثل في نوعين من الجزاء :

أ- جزاء دنيويّ عاجل، وإن كان غيرَ كامل؛ لأن الدنيا بطبيعتها غيرُ كاملة : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٢]، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٣].

ب- وجزاء أخروي آجل، يمتاز بالوفاء والكمال : ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٣] ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[٤].

ويقف وراءَ هذا البناء الأخلاقي الإسلامي ركنان أساسيان، يفرقان بينه وبين سائر النظريات الأخلاقية الوضعية، وهذان الركنان هما :

أ- النية، أى الباعث الداخلي.

(١) انظر : دستور الأخلاق د/ عبد الله دراز، فصل «الجزاء».
(٢) النحل : ٩٧ .
(٣) البقرة : ٢٠١ .
(٤) المؤمنون : ١١١ .

ب- والدافع، أى الهدف والغاية.

فمهما تكن مادةُ العمل جميلةً وطيبةَ المظهر، فإن افتقادَ أيِّ عمل - عبادةً كان أو معاملة - للنية السليمة الخيّرَة، وللهدف السامي العلوي، يجعلان أيَّ عمل مهما كان «أخلاقياً» عملاً تجارياً، لايمتُّ إلي بناء الأخلاق الإسلامية بصلة قال - عليه الصلاة والسلام - عن النية: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»**[1].

وقال عن الغاية أو الهدف عندما سأله رجلٌ من الأعراب: يا رسول الله: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرىَ مكانه فمن في سبيل الله؟ فقالِ رسول الله - ﷺ - : **«من قاتل لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا فهوَ في سبيل الله»**[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

الفصل الثالث

الثقـافة الإسـلامية

فى وجـه العقائد والمذاهب المتصارعة

١- تمهيد .

٢- النصرانية والتبشير الكنسى.

٣- اليهودية والصهيونية.

٤- الوثنيات والمذاهب الفوضوية.

الثقافة الإسلامية في وجه العقائد

الثقافة الإسلامية فى وجه العقائد والمذاهب المتصارعة

تمهيد:

إنَّ تعايشَ العقائد وتعاصرها علي امتداد التاريخ حقيقةٌ إنسانية اعترف الإسلام بها منذ جاء ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[(١)]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[(٢)]﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

وبالتالى.. فإن ما يسمى بالنظرة الواحدية للتاريخ، أو الوحدة العالمية المرتقبة، أمرٌ لم يَسْعَ الإسلامُ إليه، باعتباره خارجاً عن نواميس الكون، وتَخْديراً «طوباوياً» يُشبه أحلام صانعي المدن الفاضلة في التاريخ...

وهذا هو التاريخ الماضى الطويل أمامنا...

وهذا هو الحاضر أيضاً.. كلاهما شاهد علي صدق الرؤية الإسلاميةفي رفض النظرة الواحدية!!

لكن الذي يؤمن به المسلمون ويسعون بكل جهدهم إليه هو أنْ تضعَ عقائدُ الأرض أُسساً موضوعيةً للبحث والحوار فيما بينَها..

وأن يكون أسلوب الحوار العقلي الهادئ الذي ينشدُ الحقيقة ـ وحدها ـ هو الطريق الذى يسير فيه الجميع، وأن تكون الوسائلُ شريفةً مصابقةً للغايات الشريفة؛ لأن العقائد الصحيحة لا يمكن أن تلجأ إلى أساليبَ كريهةٍ، تنفّر الناس وتصطدم مع الفطرة وتشوّه الغايات.

---

(١) هود: ١١٨، ١١٩.
(٢) الكافرون: ١، ٢، ٣.
(٣) يوسف: ١٠٣.

ونحن ـ المسلمين ـ عندما كنا أصحابَ حضارة متفوِّقة مسيطرة ـ كان بإمكاننا ـ لو كان ذلك جزءً من ديننا ـ أن نظلَّ في حرب مع الناس حتى نُرغمهم علي عقيدتنا . . لكنَّ وجود أقليات غير إسلامية عاشت ولازالت تعيش أطيبَ حياة في كل بلد إسلامي ـ دليلٌ قويّ على أننا نحن ـ المسلمين ـ لم نفعل ذلك ـ بل شهدَ تاريخُنا أن التسامح كان صفةً أصيلةً في كل سلوكنا . . وكما يقولون : فإن الشذوذ لا حكم له ، ويقول قرآننا الكريم : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] ويقول ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[2] ـ ويقول أيضاً : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[3] . . وثمة عشرات الآيات التى تبين طبيعة المنهج الإسلامي في التعامل مع العقائد الأخرى ، وهو ـ كما نرى ـ منهج ، يعتمد وسائلَ هادئةً كريمةً ، ويؤمن بأن البقاء للأصلح . . أي : للحق وحده .

وبناءً على هذا . . فإن ما بيننا وبين العقائد في الأرض قديماً وحديثاً ، إنما هو تعايشٌ مسالم من جانبنا ، وهو بحث عن الحق ، وإيمان بالبقاء للحق وحده .

لكن العصور الحديثة شهدت خللاً في موازين القوى في العالم ليس لصالح المسلمين ، كان من أسبابه أن أهمل المسلمون الأخذ بأسباب القوة المادية والفكرية ، وركنوا إلى الدَّعة والسكون ، والمفاهيم المغلوطة في حق دينهم . . فأصبح الزهد تواكلاً ، وأصبح القرآن لا يجاوز حناجرهم ، وأخذوا بنصف وأهملوا نصفه الآخر ، وانفصلوا حضارياً عن عصور تألقهم ومجدهم . . واختلفوا هل يركنون إلي العقل أم الوحي ، وكأن العقل والوحي ضدان لا يجتمعان وتفشَّتْ أمراضٌ كثيرةٌ من هذا القبيل . . ففوجىء المسلمون فى القرن الثامنَ عشرَ بأنهم آخر السلَّم الحضاري ، وبأن عصر «الرّمُح» قد ولَّى وحلَّ مكانه عصر المدفع والقنبلة . .

---

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) الأنعام : ١٠٨ .

(٣) الرعد : ١٧ .

وأخذ المسلمون موقع المُدَافع، بعد أن كانوا قادة الأرضُ ينْصَرون بالرعب، وأجهز عليهم عدوهم بكل ثقله، مستخدماً كل الوسائل غير الشريفة، وأفاق المسلمون علي أخطار داهمة، من تبشير نصراني لا يهاجم بالحجة، وإنما بالمدفع الاستعماري، وبغيره من الوسائل التي سنبسطها في ثنايا البحث، ومن يهودية تتعاون مع النصرانية التبشيرية في هذا الغزو، وتقتسم معها الأسلاب والمغانم، ومن شيوعية جدلية لا تقلُّ عنها خُبثاً وسَفَكاً لدماء المسلمين، وتهجماًعلى عقائدهم، ومن وثنيات وفوضويات تحاول ـ بدورها ـ أن تغزو هذا التراث الإسلامي.

ومنذ القرن الثامنَ عشرَ والمعركةُ مستمرة تتعدد فيها الأسلحة، ويفيق المسلمون ـ في أثنائها ـ على خطر ليكتشفوا أن ثمة خطراً آخر داهماً يقترب منهم..

وفي الصفحات التالية نركز علي أبرز هذه العقائد التي تهاجم الثقافة الإسلامية والإنسان المسلم..

وفي تصورنا أن أهم هذه العقائد هي النصرانية (التبشير)، واليهودية (الصهيونية)، والشيوعية (المادية الجدلية)، و(الوثنيات) وما يتبعها من عقائدَ فوضوية.

أولاً: (النصـــــرانية)

اللقاء التاريخي بين الإسلام والنصرانية:

كان لنا نحن ـ المسلمين ، منذ ظهور ديننا علي وجه الأرض ـ موقف مشرف من النصرانية، لم يشترك فيه أحد غيرنا من أبناء العقائد الأخرى.

وهذه بديهية من بديهيات التاريخ لا تحتاج إلى كثير من الأدلة، وحسبنا أن نستشهد في هذا المجال بالكلمة التي ألقاها الكاردينال (أنريكى تراتكون) مطران مدريد، ورئيس أساقفة أسبانيا في مناسبة افتتاح ندوة للحوار المسيحى والإسلامي بمدريد. . قال:

«إن علينا نحن ـ المسحيين ـ أن نعترف بالانشراح الذي نشعر به إزاء المكانة التي يحتلها في الإسلام عيسى ومريمُ والدينُ المسيحي، إن هناك كثيراً من النصوص القرآنية التي تسمي عيسى «مسيحاً» و«رسول الله» ، «كلمتَه»، وتساعد مهمته العالمية ورسالته، وتُؤكد بكارة مريم وقداستها، وتُوصي بمعاملة المسيحين معاملةً أخوية ومحترمة.

وإن لَمنَ العدل أن نعترف بأن الإسلام ـ هو بلا ريب ـ الدين (الوحيد) غير المسيحي الذي يعظم المسيح تعظيماً كبيراً».

هذا ما قاله الكاردينال (تراتكون)، ولعله لا يدري أن هذا جزءُ أساسيُ من ديننا نتعدَّد به، ونعتبر أيَّ مساس بشخص (عيسي وأمّه) (عليهما السلام) إنما هو كفر بالإسلام كله مثل الكفر بمحمد ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾[1] . . وقد سار تاريخنا كله نظيفاً في هذا الجانب.

إن هذا كله من البديهيات. . لكن المشكلة هي:

ماذا قدم الجانب الآخر على مستوى الفكر، وعلى مستوى التجربة التاريخية خلال أربعةَ عشرَ قرناً هي عمر الإسلام في الأرض؟!!

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

من بديهيات التاريخ التي يُجمعُ عليها مؤرخو النصرانية والإسلام أنَّ اللقاء الأول بين الإسلام والمسيحية كان لقاءً ودياً غايةَ الودّ.

فمن خلال ذلك الرجل الصالح «نجاشيِّ الحبشة» الذي آوى اللاجئين المسلمين وحماهم من أعدائهم.

ومن خلال ما ورد في القرآن الكريم بشأن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأمه العذراء البتول مريم وهو ما سمعه النجاشيُّ من فم جعفر بن أبي طالب، وبكى له حتى اخضلَّتْ لحيتُه، وبكى له أساقفته حتى أخضلوا أناجيلهم، ثم قال النجاشي كلمته المعروفة الذائعة بين المسلمين: «إنَّ هذا والذي جاء به عيسى لَيَخْرُجُ من مشكَاة واحدة».

ومن خلال تعاطف المسلمين مع دولة الروم وتنبؤ القرآن بانتصارها، وهو ذلك التنبؤ الذي عجب له مؤرخو النصرانية والدولة البيزنطية؛ لأنَّ كلَّ الشواهد كانت تخالفه ـ من خلال ذلك كله ـ فضلاً عن موقف المقوقس عظيم القبط في مصر تكونت بداية طيبة كان في الإمكان أن تكون فاتحةَ خيرٍ كبير، بحيث يكون الأمرُ «صراعَ فكر» لا صراعَ حرب!!

ونحن نستطيع أن نقول بكل حيدة علمية مستعينين في حكمنا هذا بكل قراءاتنا للمؤرخين ـ النصارى بالدرجة الأولى ـ إن المسلمين كانوا دائماً أكثرَ تسامحاً وإنصافاً مع المسيحيين، وقد عاشت الأقليات المسيحية في المجتمعات الإسلامية على نحو أرقى عشرات المرات من حياة الأقليات المسلمة التي كثيراً ما اضْطُهِدت أبشعَ اضطهاد، وعُقِدتْ لها محاكمُ تفتيش في المجتمعات المسيحية، بل إنه لا وجه للمقارنة بين هذه وتلك.. كما أن النظرة الكريمة إلى المسيح، لم تتغير في الفكر الإسلامي؛ لأنها جزءٌ من عقيدة المسلمين على الرغم من كل إساءات المستشرقين المتعمَّدة (ومعظمهم من رجال الكنيسة) ومغالطاتهم العلمية الفاحشة التي روَّجوا لها وخدعوا بها الإنسان الأوربي قروناً متطاولة، وذلك فيما يتعلق بحقائق الإسلام وبشخصية نبيه محمد ـ عليه السلام ـ.

وحتى في العصر الحديث، ومع انحسار دور الكنيسة الروحي في المجتمعات الأوربية، والأمريكية، وانهزامها التام في روسيا، والصين، ودول الكتلة الشرقية التي كانت المسيحية هي السائد فيها... أي بإيجاز: مع أن الكنيسة قد غُلبتْ على

أمرها في مواقعها الحيويّة والأساسيّة، فإنها مازالت متشبثة بالحرب الدائمة ضد الإسلام سواءٌ في مجال الفكر أو الحركة.

وهي في ذلك تضع أيديها في أيدي الاستعمار الحديث، ولعلها تصور له أنها الستار الواقي والجدارُ القويّ الذي يقف ضد الزحف الإسلامي الذي من شأنه أن يَحُولَ دون تحقيق الأطماع الاستعمارية في إفريقيا وآسيا، والذي يمكن - كما تتصور الكنيسة - أن يهدد أوربا وأمريكا!

وهذا دورٌ نَرّباً بالكنيسة أن تكون قد رَضيتْهُ لنفسها في هذا العصر الحديث، وإن كانت كل الشواهد تؤكده، بل إنها لتؤكد أنكي من ذلك، حين تدل القرائن كلُّها علي أن الكنيسة تضع يدها حتى في يد الشيوعية الملحدة إذا كان الأمر يتعلق بالإسلام والمسلمين.

أما تواطؤ الكنيسة مع الصهيونية ضدَّ الإسلام في كل بلاد أمريكا وأوربا وإفريقيا وآسيا فأمر لا يحتاج إلي دليل، مع أنَّ اليهودَ هم أكثر من أساءوا إلى المسيحية، وإلي شخص المسيح - عليه السلام -، لكنها «السياسة» التي تجعل أصحابها ينسون تحت ظلالها بعض أساسيات الدين.

ولعل المفكرين المسحيين، وهم الذين اكتشفوا بروتوكولات حكماء صهيون، لا يزالون يذكرون قول اليهود في بروتوكولاتهم[1]: «لقد اهتممنا بإسقاط هيبة الأكليروس عند الأمين، ولقد خطونا خطوة عظيمة في هذا السبيل، فأصبح نفوذ الأكليروس علي الشعب يتناقص. ولن يمر القليل من الأعوام حتى يتلاشى الدينُ المسيحي».

«ومتى حان لنا أن نمحق قصر الفاتيكان تهجم عنيه جماعات تُديرها يد غير منظورة، وإذ ذاك يصبح ملك إسرائيل البابا الحقيقى للعالم ورأس الكنيسة الدولية»!!

---

(١) البيروتوكولات بترجمة التونسى، ص ٦٨.

ثم تطورت الأمور بين المسيحيّة والإسلام إلى ما هو أكثر من الحروب العابرة والاتفاقات مع أعداء الإسلام، وأعداء الأديان كلها. . ضد الإسلام، باعتباره ـ من وجهة النظر الكنيسية ـ (الخطر الأكبر). .

أجل. . . تطورت الأمور إلى ما هو أكثر من ذلك فأعلنت الكنيسة في العصر الحديث ـ حرباً عالمية شاملة على الإسلام، راغبة في التخلص منه إلى الأبد، كما يخيل لها.

وتلجأ الكنيسة في حربها إلى الأسلوب السياسي (والميكيافيللى) المعروف فهي تستغل كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ضد الإسلام، وهي ـ أيضاً ـ مستعدة للتعاون حتى مع الشيطان. . ضد الإسلام.

ومع أننا نرى إعلانات بَابَويةّ متكررة عن ضرورة «الحوار بين المسيحية والإسلام» ـ إلا أننا لم نرَ ـ ولو لحظة ـ هدنة واحدة فى حرب الكنيسة العالمية على الإسلام، حتي باتت ضرباتها الآن على مقربة من قلب العالم الإسلامي ومركز الإشعاع الروحي للمسلمين.

ففى اليمن الجنوبي تَسْكُتْ الدول النصرانية ـ وعلي رأسها أمريكا ـ على المد الشيوعي، بل ولا نبالغ إذا قلنا إنها تحرسُه وتَدْعَمُه.

وفى اليمن الشمالي ثمة غزو تبشيري تتبناه أمريكا والسويد وغيرهما، ويتمثل في عدة مخالب قوية، مثل: ما يُسمى بمكاتب التنمية الدولية الأمريكية أو مشاريع (ساعد نفسك)، أو الجمعية السويدية، أو بيت النشاط الثقافي السويدي، أو مستشفى جبلة المعمداني في تعز، أو منظمة «اليونسيف» للتغذية والإغاثة الكاثوليكية، أومشروع تطوير التعليم، أو فرقة السلام الأمريكية، أو معهد السكرتارية في صنعاء، وهلم جراً من وسائلَ أو قُل: مخالبَ الغزو التطويقي الذي يقف علي مقربة من قلب العالم الإسلامي. . من «الكعبة» وخلف هذا الخط الأول للهجوم وتقفُ خطوط أُخرى كثيرة مثل القرن الأفريقي. . كالصومال. . وجنوب السودان الذي اشتراه التبشير الفاتيكاني في صفقة من أغرب الصفقات في التاريخ.

وتكاد «أريتريا» ـ كجزء من هذا الخط الثاني ـ تسقط أمام «مانجيستو» الشيوعي، بل إنني أُومنُ بأنها سقطت فعلاً، ومعروف أن الشيوعية في الحبشة يؤيدها التبشير، كما كان يُؤيد (هيلا سلاسى) سواء بسواء.. مادام الأمر يتعلق بالإسلام.

ثم تأتي خطوط أخرى كثيرة.. لكن أكثر الخطوط الآن تعرضاً للدمار الكَنسيّ هو خط الفلبين وتايلاند وأندونيسيا (في آسيا)، وخط نيجيريا، ومصر فَي إفريقيا...

وسوف نلقي أضواء كافية على نماذجَ واقعية من هذه الغارة التبشيرية، بعد أن نعرض ـ بشيء من البسط ـ لقصة الغارة التبشيرية وأبعادها، وللعقيدة النصرانية وموقف الإسلام منها.

عقيدة النصارى والموقف الإسلامي منها:

للنصارى أن يؤمنوا بما شاءوا ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2]، لكننا نحن ـ المسلمين ـ نعتقد أن نصرانية العصر الحديث، تلك النصرانية المنتشرة الآن ليست هى النصرانية التي تنزلت على المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإنما هي نصرانية جديدة اتُّفِقَ عليها في مجتمع «نيقية» بضغوط «قسطنطين» سنة ٣٢٠م، أى بعد ثلاثة قرونَ مَن وفاة المسيح ورفعه إلى السماء.

وعقيدتنا أن الله لا ولد له ولا شريك، وأن المسيح عبد الله ورسوله مثله مثل إبراهيم ونوح وموسى ومحمد وسائر الأنبياء المرسلين.

ونحن نبني عقيدتنا على أسس الفطرة، وعلى تنزيهنا لله سبحانه، وعلى معقولات الأشياء وأدلة التاريخ الصحيح.

وما كنا نقوله على امتداد تاريخنا أصبح فكراً رائجاً بين عقلاء النصارى، يدل على ذلك آخرُ كتاب ظهر لمؤلفين نصاري، واسمه «المسيح ليس إلهاً»[3] وللأسف

---

(١) الكافرون: ٦.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) الترجمة اللفظية لعنوان الكتاب هى: «وهم الإله المجسم».

فإن هذا الكتاب لم يترجم بعد حتى كتابة هذه السطور!!

أما كتاب «موريس بوكاي» الجراح النصراني العالمي الذي كشف فيه تناقضات الأناجيل، مما يستحيل معه أن تكون صادرة عن مصدر واحد هو «الله» الذي لا يمكن أن يصدر عنه سبحانه متناقضات.. أما هذا الكتاب فقد ترجم إلى اثنتَيْ عشرةَ لغةً، ولقي احتراماً كبيراً من سائر الأوساط العلمية!!

بل إن إنجيل المسيح، أى كلامه نفسه لفظاً ومعني.. لم يصل إليها.. وإنما الذي نقل إليها هو مجموعة مذكرات شخصية لبعض تلاميذه الذين لا يرتفع أكثرهم فوق الشبهات.

وقد اختلفت التصورات، وتقاتلت، حولَ ذات الله نفسه، إلى أن أراد (قسطنطين) القضاء على الفتن، فعقد مجمعه الشهير، وأرغم القساوسة على الوقوف عند تصور يُرضي الجميع، كحل وسط، فكان هذا الحل الوسط هو تقسيم المسيح عليه السلام بين الألوهية والبشرية.. فهو بشر إله.. أو إله بشر.. تماماً مثل الزيت والماء!!.

وهذا في الحقيقة تصور غريب.. لأنه إما خالق فهو إله، وإما مخلوق فهو بشر.. أما أن يكون إلهاً وبشراً فهذا خلط عقليّ غريب.

وعن مرتبة التوراة (العهد القديم) والأناجيل (العهد الجديد) كمصادر للوحي - يقول موريس بوكاي:

«لم يكن يجري الحديث (منذ مجمع نيقية) حتى مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥) عن أصالة نصوص التوراة والأناجيل، باستثناء الاختصاصين النادرين... ومن ذلك أنه ما من أحد كان يتجرأ على أن يتشكك في كونها - أي الأناجيل - تنقل إلينا كلام عيسى بدقة وإحكام، فهو - كما كان يقال - نتاج شهود مباشرين لرسالته - ألم تكن الأناجيل تدعى «مذكرات الحورايين»؟ ولكن لائحة من لوائح مجمع الفاتيكان الثاني في سنة ١٩٦٥ لم تنحُ هذا النحو بصورة قطعيّة.

غير أن هذا التصور قد هاجمته بعد سنوات قلائل من المجتمع الزخير بحوثٌ أخذتْ تظهْر ابتداءً من سنة ١٩٧٠ ، وهي من إنتاج «لاهوتيين» مسيحيين أنفسهم، فقد قام هؤلاء بدراسة دقيقة للنصوص مستعملين كل العناصر التي تمنحها لهم المعرفة العصرية في مجال علم اللغة وعلم الآثار، والتاريخ. . . الخ.

فقد أصبح الناس اليوم يسلِّمون بأن الأناجيل الشرعية الأربعة ليست سوى ترجمة لما كانت تعتقده في عيسى جماعاتُ مختلفة لا تتفق فيه ـ كما يبدو من النصوص ـ علي رأى واحد، لأن أحداثاً من رسالته قد عولجت بصورة تختلف باختلاف نظرة أصحاب الأناجيل الناطقين بلسان تلك الجماعات. إن شروح الترجمة المسكونية الأخيرة للتوراة (العهد القديم ١٩٧٢) وهي عمل اشترك في إنتاجه أكثر من ١٠٠ اختصاصي من الكاثوليك والبروتستانت لتصرح بذلك دون أدني التباس أو غموض، كما تعبر عنه أيضاً أعمال مدرسة القدس التوراتية، هذا إذا اقتصرنا علي أهمها فقط.

بيد أن مجمع الفاتيكان كان قد استثنى ـ في الحقيقة ـ العهد القديم، إذ أكد في التصريح المجمعي رقم ٤ أن هذه الكتب «تتضمن نقصاً» بل وحتى «باطلاً»وتبين الأعمال الحديثة أنه من المشروع تقويم الأناجيل بمثل هذه التقويمات(١) !!.

فكيف نتصور كون هذه الأناجيل لا تنقل إلينا إلا الحقيقة التي أوحى بها الله عندما نجد فيها مقاطع لا يقبلها العقل ولا المنطق ولا التاريخ إطلاقاً؟، وهى أكثر من أن تُحصى!!!

وفي موضع آخر يصل «بوكاي» النصراني إلي النتيجة الحاسمة. . فيقول:

«وكانت التوراة ـ العهد القديم ومثلها العهد الجديد ـ قدوفرت مجالاً للتفكير في تعارض صارخ بين بعض مقاطع نصوصها، وبينَ المعارف الحديثة، وما كان جديراً بالبحث عنه هو سبب وجود هذه التعارضات في نصوص تنقل إلينا وحي

---

(١) نقلاً عن محاضرة بوكاى في الملتقى الفكري الثانى عشر بالجزائر ١٩٧٨م.

الله، على أن ما يجري مجرى اليقين منذ أن حصلت لنا مفاهيم كانت إلى ذلك الحين، تعزّينا عن أصول نصوص التوراة، وعن صياغتها التحريرية، وبلوغها إلينا، هو أن دورَ التلاعبات البشرية بها دورٌ كبير جداً، وأن كثيراً من النصوص هي كتابات المناسبة الظرفية مثل قصة التكوين الكهنوتية أو حتى كتابات النضال، كما يقول سماحة الأب «كننجيسر» في وصفه للأناجيل، وفي هذه الظروف تجد حالات عدم التوافق مع المعارف العصرية تفسيرها الكامل والذي كان يمكن أن يدُهشنا هو عدم تضمنها لمثل هذه الحالات المتنافية[١].

والحق أن ما انتهي إليه «موريس بوكاي» وأمثالهُ ـ أمر مقرر في تراثنا منذ اشتبك الإسلام مع المسيحية، وعرض المفكرون المسلمون المسيحية علي محك النقد. . . وللإمام ابن تيمية كتاب مستقل في الرد على من بدَّل دين المسيح «الرد الصحيح على من بدَّل دين المسيح» حافل بالردود العلمية على ما طرأ من تغيرات وتحريفات بشرية على المسحية وأناجيلها.

كما أن أبا محمد علي بن حزم ـ أحد مؤسسى علم مقارنة الأديان في العالم ـ قد انتهى إلى نتائج خطيرة عندما درس المصادر الأصلية للمسيحية، وهى المصادر التي يعترف بها النصارى أنفسهم.

ومن مناقشات ابن حزم للنصارى في عقيدتهم قوله:

«ليس في باب المحال أعظم من أن يكون الذي لم يزل يعود محدثاً لم يكن، ثم كان»[٢] ومَنْ ياتُرى دبَّر العالم خلال الثلاثة أيام التي يقولون إن التحول قد تمَّ فيها؟

وكيف يمكن أن يصبح الثلاثة شيئاً واحداً؟ وبأيّ معنىً ـ إذن ـ استحق أن يُسمَّى أحدهما أباً والآخر ابناً، مع أن الإنجيل يقول: سأقعد عن يمين أبي، وأن القيامة لا يعلمها إلا الأب وحده، فهذا يوجب أن الأبَ غيرُ الإبن.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الفصل فى الملل والنحل ١/ ٤٩.

وإن كانت الثلاثة متغايرة فيلزم أن يكون في الابن معنيٌ من الضعف أو الحدوث يوجب أن ينحط عن درجة الأب والنقص ليس من صفة الذي لم يزل[١].

وأما ما يقول به النصارى من اتحاد الإله مع الإنسان كاتحاد الماء يُلقَى فى الخمر أو الزيت ـ فيرد عليه ابن حزم متسائلاً: تُرى أيهما استحال في الآخر الإله أم الإنسان؟ وأيهما أصبح عرضاً والاخر جوهراً؟ وأيضاً إن كان الإله استحال إنساناً فالمسيح ـ إذن ـ إنسان، وإن كان الإنسان استحال إلهاً فالمسيح إله[٢]!!

ومن أساليب مناقشة ابن حزم للنصارى استعراضه لكتبهم وبيان ما يُعترضُ به عليها من الناحية التاريخية والتدوينية (ونحن نستشهد به كنموذج لمفكري الإسلام المتخصصين):

" والنصاري لا يدَّعون أن الأناجيل منزَّلة من عند الله على المسيح، ولا أن المسيح أتاهم بها، بل كلهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفًها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة. . . أولها تاريخ ألف «متي اللاواني» بالعبرانية بعد تسع سنين من رفع المسيح، في ثمان وعشرين ورقةً بخط متوسط[٣] والآخر ألفَّه «مارقش الهاروني» بعد اثنين وعشرين عاماً من رفع المسيح ـ عليه السلام ـ وكتبه باليونانية في أنطاكية، والثالث تاريخ ألَّفه «لوقا الطبيب» تلميذ شمعون باطرة، كتبه باليونانية بعد تأليف مرقص المذكور في حجم إنجيل متي، والرابع تاريخ ألَّفه باليونانية (يوحنا بن سيذاي) بعد رفع المسيح ببضع وستين سنة في أربع وعشرين ورقة[٤] ثم ليس للنصاري كتاب يعظِّمونه سوى «الافركسيس» الذي ألفَّه لوقا، وكتاب (الوحى والإعلان) ليوحنا، و«الرسائل القانونية»، ورسالتين لباطرة

---

(١) الفصل ١/ ٥٠.
(٢) انظر: الفصل ١/ ٥٥.
(٣) انظر: الفصل ٢/ ٢.
(٤) انظر: الفصل ٢/ ٢, ٣ وانظر في ذلك دراسة الدكتور أحمد شلبى: المسيحية، ص ١٠٣، وما بعدها ص ١٤٧ وما بعدها.

شمعون ورسالة ليعقوب بن يوسف النجار، وأخري لأخيه يهوذا ورسائل بولس تلميذ شمعون[١].

وكل كتاب لهم بعد ذلك فهو من تأليف المتأخرين من أساقفتهم وبطارقتهم[٢] وبديهى أن ما ألَّفه فرد ـ ونسبه إلى الله ـ لا يمكنُ أن يكون في ثقة ما صدر عن الله مباشرة باللفظ والمعنى، بدليل ذلك التفاوت في الأساليب والمضامين بين هذه الأناجيل، حتي في العقيدة ذاتها ـ مع أن ما يصدر عن اله إنما هو شيء واحد فى أسلوبه ومضمونه، أما ما يصدر عن البشر فحقيق به أن ينزل إلى هذا المستوى من التناقض والتحريف!

وكنموذج لمدى التناقض فى هذه الكتب، مما يسقطها كلها، ويجعل قول ابن حزم فيها صائباً موضوعياً ـ يسوقُ إلينا ابن حزم التصورات المتناقضة للمسيح، والتي عبرت عنها هذه الكتب. . . فيقول:

«وجملةُ أمرهم في المسيح ـ عليه السلام ـ أنه مرة بنَصٍّ أناجيلهم ابن الله، ومرةً هو ابن يوسف، وابن داود، وابن الإنسان، ومرة هو إله يخلق ويرزق، ومرة هو خروف الله، ومرة هو «في الله»، ومرة هو في تلاميذه وتلاميذه فيه، ومرة هو علم الله وقدرته، ومرة لا يحكم علي أحد ولا ينفذ إرادته، ومرة هو نبي وغلام الله، ومرة أسلمه الله إلى أعدائه، ومرة قد انعزل الله له عن الملك وتولاه هو، وصار يولِّي أصحابه خطة التحريم والتحليل في السموات والأرض، ومرة يجوع ويطلب ما يأكل، ويعرقُ من الخوف، ويفشلُ فيركب حمارَه، ويُؤْخَذَ ويَلْطَمُ وجهُه ويُضرَبُ رأسُه بالقصبة، ويُميته الشرط، ويُصلب بين سارقين، ومات ودفن ثم قام بعد الموت فلم يكن له من هَمٍّ بعد أن قام إلا طلب ما يأكل ثم انطلق إلى شغله»[٣].

ومع كل ذلك، فنحن المسلمون ندعو الناس إلي الحق بالحسنى، ونقول

(١) انظر الفصل ٢/ ٣.

(٢) انظر المصدر الساق وانظر ص ٦٩ وما بعدها.

(٣) الفصل ٢/ ٦٩ وانظر د/ أحمد شلبى - المسيحية، ص ٨٤.

لمخالفينا من أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

لكن النصارى لم يرضوا بهذا السلام، ومنذ ظهر الإسلام وهم يعلنون على الإسلام حرباً عالمية طاحنة، ويُسَخِّرون لذلك كتائبَ مجندة ومدرعة بأحدث الأسلحة العصرية المادية والفكرية. . . وهذه الكتائب يُطلق عليها. . كتائبُ التبشير، ولها ـ في الحق - خطرُها الجسيم على العالم الإسلامي، وتُوشك أن تزلزلَ قواعده ـ إذا لم يستيقظ المسلمون على حقيقة ما يدبِّره التبشيرُ لهم.

قصة التبشير:

كان ارتدادُ فلول الصليبيين منهزمة أمام جيوش المسلمين في الحروب الصليبية باعثاً على التفكير في وسيلة أخرى للقضاء على المسلمين مادام الصدام المباشر والملح لم يفلح في الإجهاز على هذه الأمة، بل كان في أكثر الأحايين باعثاً على وحدتها وإظهار معدنها الأصيل.

ولقد عُقدتْ عدةُ مؤتمرات ودار جدل طويل حول الأسلوب الجديد الذي يجب اتباعه للغارة على العالم الإسلامي. . ثم تمخضت هذه المؤتمرات وهذا الجدل عن الإيمان بمعادلة بسيطة واضحة:

«إذا كان هدف الغرب من القضاء على المسلمين هو القضاء على الإسلام وقوته السياسية والمعنوية. . فلماذا لا يتجه الغرب مباشرة للقضاء على الإسلام. . وهو الطاقة المحركة للعالم الإسلامي، وبهذا يبقى المسلمون بلا طاقة محركة. . أي منطقة فراغ يمكن ملؤها بأي طاقات أخرى كالمسحية أو الشيوعية». . .

وكانت هذه المعادلة هي المنهج الذي سار عليه الغرب منذ ارتداد الجيوش الصليبية وحتى اليوم. . ولم يكن صدامَه المباشرُ مع المسلمين في القرنين التاسعَ

---

(١) آل عمران: ٦٤.

عشرَ والعشرين إلا مرحلةً تأكيدية للقضاء على الإسلام وعلى قوته السياسية والمعنوية. . على أنه فى نفس مرحلة الاستعمار العسكري هذه كان يستغل انتصاراته التي كان يطوق بها العالم الإسلامي من أطرافه. . فيتبعها فوراً بمُخَطط تبشيري يقضي به على ما يكون قد بقي لدى المسلمين من طاقة إسلامية محركة. . أريد أن أقول: إن «استراتيجية» الغرب قد تبلورت فلم تعد هجوماً مباشراً على المسلمين لأن المسلمين ـ حتى في الحروب التي مُنُّوا فيها علي يدالاستعمار بعديدٍ من الهزائم العسكرية كانوا يعودون بالإسلام ـ أقوياءَ من جديد!!

يقول «رشتز»:

«خابت دول أوربا في الحروب الصليبية الأولى من طريق السيف، فأرادت أن تثير على المسلمين حرباً صليبية جديدة من طريق التبشير، فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات وفرَّقت المبشرين في العالم وهكذا تبنَّت الدول حركة التبشير لمآربها السياسية ومطامعها الاقتصادية، ولقد استطاع «ريموند لول» في عام ١٢٩٩ وعام ١٣٠٠ للميلاد أن يحصل على إذن من الملك يعقوب صاحب أرغونة ليبشر في مساجد برشلونة محتمياً بالسلطة المسيحية في أسبانيا[١]...!!

ويعتبر هذا التاريخ (١٢٩٩م) أول عهد الأوربيين بالتبشير كما يعتبر «ريموند لول» أول من تولَّي التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها. . فقدتعلم «لول» اللغة العربية وجَالَ في بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة[٢].

. . وإلى جانب «لول» كانت السفن البحرية تطوق العرب وتفرض شبكة من التجسس حول العالم الإسلامي تسرق حضارته وتفتت ركائزَ قوته.

طافت هذه السفن حول إفريقيا تقيم أكبر سوق للرقيق في تاريخ البشرية وتُغيرُ علي الأطراف القصيَّة للعالم الإسلامى. . أندونيسيا. . الفلبين. . الملايو. . الهند. . إلخ. . . إلي جانب التوسع الروسى في آسيا المسلمة. .

---

(١) نقلاً عن كتاب التبشير والاستعمار، عمر فروخ، ص ١١٥ ط٣.

(٢) الغارة علي العالم الإسلامي، ص ١٧، ترجمة الأستاذ محب الدين الخطيب (تأليف أ. ل شاتليه).

وقد وصف «آرنولد توينبى» نهاية هذه المرحلة. . أى مرحلة التطويق بقوله: وهكذا في لمحة البصر اخْتَطَفَ البرتغاليون من أيدى العرب السيادةَ البحرية علي المحيط الهندى، وبينما كان الرواد البرتغاليون يحدقون شرقاً بالعالم الإسلامى كان التوسع البحري الغربي يحدق من الجنوب كما كان ملاحو الأنهار من القوازق يتجهون شرقاً ويوسعون حدود العالم الروسى بنفس السرعة والاكتساح وذلك بإحداقهم بالعالم الإيراني من الشمال»!!

وهكذا. . . . كما يقول توينبى: في غضون فترة تقل عن قرن لم يقتصر الأمر علي الإحداق بالعالم الإسلامي الذي كان شركة بين المجتمعين العربي والإيراني، ولكن أمكن تطويقه تماماً. . «ففي القرن السادسُ عشرَ والسابعَ عشرَ وُضِعَ الطوقُ حول رقبة الفريسة. . . »

«كما انقضى وقت طويل قبل أن يتنبه المسلمون أنفسُهم إلى ما يجب عليهم عمله لمجابهة الموقف، وتبلور هذا العمل بالنسبة للجانبين الغربي والروسي في الانقضاض علي فريسة عاجزةً عجزاً واضحاً» ـ «وجنباً إلى جنب مع عملية التطويق كان التسلل داخل القلعة عن طريق المبشّرين. . أجل. . كانت عملية التطويق مستمرة»[1].

وكان علي المبشّرين القيام بمهام التجسُّس واستطلاع نقط الضعف وكشفها في داخل القلعة الإسلامية، وشراء العملاء، وبث الأعوان، ونشر الفتن. . !!

ويأتى المبشّر تحت علم الصليب ـ كما يقول الأب شانتور[2]. . يحلم بالماضي وينظر إلى المستقبل وهو يصغي إلي الريح التي تصفر من بعيد من شواطئ رومية ومن شواطئ فرنسا. . وليس من أحد يستطيع أن يمنع الريح من أن تعيد على آذاننا قولها بالأمس وصرخة أسلافنا (الصليبيين) من قبل: إن الله يريدها»[3] ولم يَفْتُرْ عداء الغرب الصليبي للشرق منذ رحلت الجيوش الصليبية عن بلاد العرب. . بل إن

---

(١) توينبى مختصر دراسة للتاريخ، جـ٣، ص ٣١٩، ترجمة فؤاد شبل.

(٢) رأس الكلية اليسوعية في بيروت أيام الانتداب الفرنسى.

(٣) التبشير والاستعمار، ص ٣٨، ط ٣.

سبعة قرون كاملة تلت تاريخ ارتحال الجيوش الصليبية، حملت في طواياها مئات المؤامرات للغارة على العالم الإسلامي، وللقضاء علي كل قوة تنشأ فيه تستطيع أن تقف أمام الزحف الصليبي المستتر وراء الدين، الساعي وراء تحويل العالم الإسلامي إلى دائرة نفوذ صليبي وزحزحة الإسلام كقوة عالمية عن مكانه التاريخي. . لأن الله ـ كما يقول شانتور ـ يريدها». . !!.

وليس من باب المصادفة لهذا أن نرى العنصر التركي المسلم يحظى بمزيد من الغارات الصليبية الغربية باعتباره على وجه العموم أكبر قوة سياسية إسلامية قادت العالم الإسلامى على امتداد هذه القرون. .

إن الأستاذ (دجوفارا) أحد وزراء رومانيا الأسبقين يكتب كتاباً بعنوان «مائة مشروع لتقسيم تركيا» [١]. . يسرد فيه مائة مشروع استمرت عدة قرون في محاولة القضاء علي قوة الإسلام السياسية الممثلة في العنصر التركي. . حتى نجحت أخيراً في القضاء علي الخلافة العثمانية، وتَفَتُّت العالم الإسلامي. . والوزير الروماني يعترف في كتابه السالف الذكر ـ بعد عرضه لَلمائة مشروع ـ بأن أصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الأوربيون للأتراك «راجعة إلى العداء الشديد الواقع بين الإسلام والنصرانية» [٢]. .

. . . بقي سؤال بعد هذا العرض الموجز:

هل مازالت أوربا عند صليبيتها؟. .

هل مازال التبشير ـ في العصر الحديث ـ وسيلة للاستعمار الغربي؟ أم مازال الاستعمار والتبشير يتبادلان التأثير والتأثر؟

. . ويمكن أن نزيد الأمر دهشة إذا سلمنا حقيقة ـ لا جدلاً ـ بأن الإنسان الأوربي الحديث لا تُمثل قضيةُ الدين من تفكيره أو سلوكه الشيءَ الكثير، فكيف نتهم هذا الإنسان بالصليبية والحقد الديني والسياسي معاً؟

---

(١)، (٢) نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي، جـ٣، ص ٢١٨ شكيب أرسلان.

وأنا أشهد بأن كثيراً من المبشَّرين لم يكونوا النموذج الكامل للدعوات التي قَدمُوا من أجلها، بل كان منهم كثيرون أصحابَ مطامعَ شخصية. . وكثيراً ما غادر المَبشّر جمعية إلى جمعية حسب أهوائه، فإن ـ وليم بلغريف ـ الإنجليزي قد دعته أطماعه الخاصة إلى أن ينقلب رااهباً يسوعيا ويجادل البروتستانَت قومه ولما استغنى عن اليسوعيين عاد بروتستانتياً، حتي إنه سمى «الحرباء». . وليس هذا فقط بل إن من المبشَّرين نفراً يَسْعَوْنَ وراء أطماع ومُغامرات شخصية شوَّهتْ اسم النصرانيين في الشرق، فلقد ذكر (جب) في كتابه الذي طبع سنة ١٩١٠ بعض الأمثلة على ما تردَّى فيه هؤلاء من فسادَ، ويهاجم «جب» نظام الأدْيرَة كله، ويقول: «إنه كان لعنةً على سورية، ثم يقول: إن بعض هذه الَأديرة كان مُستَقَراً للفاحشة [١]!!

كل هذا صحيح. . وأكثر من هذا يمكن أن يكون صحيحاً. . إن الجنرال ساراي المفوض السامي الفَرَنْسي في لبنان كان علمانياً لا دينياً، ومع ذلك فقد كان يحمي الراهبات ليذهبن إلي (صَافيتا) في بلاد العلويين لتنصير الناس هناك وقد ساعدهن بحرابه على تنصير الناس في جنينة رسلان بلبنان ـ إن هذا الجنرال لم يكن يعطف على حركة دينية بقدر ما كان يُنفَّذُ خطة سياسية تَستَغلُ الدين، لأنه شخصياً ـ كما قلنا ـ كان علمانياً لا يؤمن بدين!!

. . . واللورد اللنبي الذي قاد الفيالق الإنجليزية التي زحفت على القدس والذي قال قولته المشهورة: «الآن انتهتْ الحروبُ الصليبية».

هذا الرجل كان بقولته هذه يترجم عن روح صليبية لا مجال للشك فيها.

لكنّ هذا الرجل كان عضواً في جمعية إلحادية ـ وهذا ثابت كذلك من سيرته!!

وإيطاليا التى ناصبت الكنيسة العداء وحجزت البابا في الفاتيكان، كانت تبنى سياستها كلها علي جهود المبشرين والرهبان، وروسيا «ستالين» التي تحارب الأديان تظاهرت بالعطف علي رجال الدين، ودَعَت إلى مجتمع مسكوني في موسكو، وشرّف (ستالين) نفسه المؤتمرين بمقابلته.

---

(١) نقلاً عن الغزو الفكرى، ص ٤٠ محمد جلال كشك.

كذلك فإن فرنسا لا تهتم كثيراً بقضية الدين في داخلها لكنها في «الجزائر» كانت تترجم عن عقلية صليبية ضج منها الضمير العالمي»[(١)]!!

فما سر هذا الازدواج في شخصية الإنسان الأوربي؟!!

هل ثمة تناقض حقيقي بين هذه المسالك المتضاربة مظهرياً؟

إن تفسير هذا الازدواج ـ أو هذا التناقض ـ هو المدخل الوحيد لتفسير طبيعة «التبشير».. أو قُلْ: لإظهار حقيقته..

إن القضية ليست قضية دين يُراد إدخال الناس إلى حظيرته؛ ذلك لأن الدينَ ـ كلَّ دين ـ غاية شريفة لابد لها من وسائل شريفة.. هذه واحدة.. ثم إن القضية ليست قضية «المحبّة المسيحية» التي يرددها المبشرون في كل مناقشاتهم.. فهؤلاء المبشرون قد كشفوا في كثير من الأحايين عن روح وحشية همجية لا تحترم إنسانية الإنسان، أو تحس بتعاطف مع آلام الإنسان وآماله، ولمزيد من الوضوح دعنا نسرد هذا الحوار الذي دار بين «لويس لومكس» الصحفي الأمريكي في كتابه «الإفريقى النافر» وبين «سيلونديكا» عضو اللجنة التنفيذية للحزب الوطني الديموقراطي في روديسيا الجنوبية.. سأله الصحفي الأمريكي قائلا:

ـ هناك تقارير منتظمة تؤكد أن المسيحية تنحسر في إفريقيا.. هل هذا صحيح.

ـ الزعيم الإفريقي: نعم صحيح فالكنيسة لم تلعب دوراً سليماً في الشئون الإفريقية، لقد وقفت ضدنا إلى جانب هؤلاء الذين استعبدونا.. إنها اليوم تقف على قدمها الأخيرة في إفريقيا.

ـ الصحفى الأمريكى: هل أنت مسيحي؟

ـ الزعيم الإفريقي: نعم أنا كاثوليكى تعلمتُ في كلية «ماريان» في ناتال بجنوب إفريقيا.. وأنا ـ طبعاً ـ لم أنضم للكنيسة لدوافعَ سياسية، بل عن اعتقاد روحي، ورغم ذلك شعرتُ أنها خذلتْني.. الإسلام سينتصر في إفريقيا، وبالرغم

---

(١) التبشير والاستعمار، ص ٣٥ - ٣٦.

من أنني سأظل كاثوليكياً إلا أنني لا أستطيع أن أقول مخلصاً، إنني آسف لتطور الأحداث، ـ رغم كل شيء ـ فإن الدين يشكل جانباً حاسماً من قيم الإنسان، ومن ثمَّ . . يدفعه إلي الحرية . . وهذا ما فشلتْ فيه الكنيسة . . لقد أعطتنا كل شيء ماعدا الحرية [١].

وإلى هنا انتهى حديث الصحفى الأمريكى مع الزعيم الوطنى الروديسي المسيحي . . ولنا تعليق:

هذا الموقف الذي شرحه الزعيم الوطنى الروديسي هو مَعْلَم من معالمنا للوصول إلى حقيقة التبشير . . إن هذا الزعيم كاثوليكى لكنه يرتبط وطنياً بإفريقيا الباحثة عن الحرية .

ولقد ظن أن اعتناقه لدين المستعمر سيمنحه الحرية، لكن الحقيقة التي فاجأته: هي أن اعتناقه للكاثوليكية لم يعطه هذه الحرية . . فالكنيسة الكاثوليكية لم تذهب هناك لتحرير الناس عن طريق الدين، بل لاستعبادهم عن طريق الدين . . والارتباط بالدين مدعاة لزيادة الارتباط بالاستعباد والعمالة للأطماع الأوربية، وليس مدعاة لرفع الرأس وطلب الحرية . .

ومن حق الكنيسة . . مادام هذا هدفها ـ أن تخذله؛ لأن الدين المجرد من العبودية للبشر ليس هدفَها . .

---

(١) الغزو الفكرى للأستاذ محمد جلال كشك، ص ٤٠ .

وعندما أخذ الضعف يدب في الإمبراطورية العثمانية، اخترقت الدول الأوربية السور الذي كان مضروبا عليها، ثم تغلغلت عن طريق الفتح والتسلل السياسي في شبه جزيرة العرب ومصر وسوريا وغيرها. .

عند هذا ـ ومع أن الإمبراطورية الإسلامية الكبرى «الدولة العثمانية» قد أصبحت رجلاً مريضاً وأصبحت مسألتها تطرح على موائد الغرب لتقسيمها بين الذئاب الجائعة ويطلق عليها اسم «المسألة الشرقية».

. . أقول في هذا الوقت كان المبشّرون يزحفون كصفوف «أمامية وخلفية» تثبّت دعائم الاستعمار وتمهّد لمزيد منه. . .

كان (جب) يقول: إن القسم الأكبر من المسلمين قد أصبح في حكم الدول النصرانية فيجب الاستفادة من هذه الحالة الراهنة. . وكان «رشتر» يصرخُ بصوت عالٍ:

«إن مائة وستين مليوناً من مجموع مائتين وخمسين مليوناً من المسلمين في حكم الدول النصرانية، فواجب هذه الدول إذن أن تمهد السبيل لتبديل دين هؤلاء الرعايا»[1].

. . . وبتأثير من هذه الأصوات انطلق التبشير يَدْعَمُ الكتيبة الاستعمارية حتى يَتمّ التهام «الرجل المريض» ويُقْضَى تماماً على «الإسلام» كقوة عالمية موازية للقوى العالمية المتصارعة الأخرى.

وليس ما نقوله عن دور المبشرين في سحق الدول الإسلامية العالمية «الخلافة العثمانية» من باب تحميل الأمور أكثر مما تتحمل فإن مؤتمر «أدنبرج»[2] التبشيري قد اكتفى فيما يتعلق بالمسلمين بوضع هذه الكلمة التي هي جماع ما نقول:

«اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة على أن معاهد التعليم

---

(١) التبشير والاستعمار، ص ١٤٥، ط ٣.

(٢) عُقد سنة ١٩١٠ ميلادية.

الثانوية التي أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية، يرجع على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوربا كلها»[1].

إن التبشير ـ كما نرىَ وكما هو فعلاً ـ ليس إلا واجهةً مُزَيَّفةً من تلك الواجهات الكثيرة التى يُخْفي بها الاستعمارُ ملامحَ وجهه الحقيقة.. لتحقيق غزو حضاريّ عَقَديٍّ يكَفل له تَحقيقَ أطماعه!!

.. إنه بضاعة للتصدير من أجل الحصول علي العملات الصعبة، بصرف النظر عن كونه معداً للاستهلاك المحلى أو غير معدٍّ لهذا الاستهلاك!!

.. إن التبشير ـ في رأيى ـ ليس مجرد حفز للناس إلي انتهاج منهج معين في الحياة أو الالتزام بطقوس وشعائر معينة.. كلا.. إنه غزوٌ حضاريٌّ كامل يستغل كل تَفَوّق الإنسان الأوربي المادى لتسخيرَ بقية الأجناس البشرية لخدمة هذا الإنسانَ.

إنه بالنسبة للتخطيط الأوربي الاستعماري ليس مجردَ أداة استعمارية من جملةَ عديد من الأدوات...

إنه في كثير من الأحايين مرادف ـ تماماً ـ لكلمة استعمار حتى ليبدوان معاً مادة مكونة من عنصرين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

إن رجال الدولة الفَرَنسية ـ يعدون التبشير بالمذهب الكاثوليكى أو الدين الكاثوليكى عملاً وطنياً، و «رينيه بوتيه» في كتابه «الكاردينال لافيجيري» يقول:

«إن العمل الوطنَى الذي قام به لافيجيري[2] بدأ مع عمله التبشيري عندما بدأ بنشره علي السوريين تلك العطايا التي تمنحها الكنيسة الكاثوليكية، إنه جعل فرنسا محبوبة لدي السوريين.... باسم المسيح»[3].

---

(١) الغارة علي العالم الإسلامي، ص ٧٢.

(٢) كان لافيجيري أسقفاً ثم كردينالا ثم رئيس أساقفة إفريقيا.

(٣) نقلاً عن التبشير والاستعمار، ص ١٢٦.

التبشير والسياسة:

إن العلاقة الوثيقة التي نُظْهِرُها هنا والتي تربط السياسة بالتبشير تؤكد لنا أن هذا التبشيرَ «سياسةٌ كاملة تقف علي قدميها»، ولربما تحركت جيوش استعمارية بأكملها من أجل خدمتها ونحن هنا لا نريد التأكيد على خدمة السياسة للتبشير ومن ارتداء التبشير ثوب المناصب السياسية ومن تعاونهما معاً علي تحقيق غاية واحدة، كلا . . . إنما نريد فقط أن نبرز الدور الهام الذي قام به التبشير في خدمة السياسة ولاسيّماً على مستوى العالم العربي خلال هذا العصر الحديث.

والملاحظ أن الاستراتيجية الاستعمارية في التهام العالم الإسلامي كانت تخطط بيد تبشيرية، فإذا كان مبشر مثل «أشعيا» يسيطر علي العالم الغربي بحجة أن الإسلام منذ ظهر وهو يتزايد عدداً ولم يتفق قط أن شعباً دخل في الإسلام ثم عاد نصرانياً، ثم يقترح هذا المبشّر أن تتفق بريطانيا وفرنسا علي سياسة السيطرة علي الشواطئ حيث يمكن وصول المدرعات وآلات القتال الحديثة بسهولة، ونقول نحن بحق: إن هذه الاستراتيجية هي نفسها التي أنتجها الاستعمار الإيطالي في طرابلس الغرب حيث طرد العرب إلي داخل البلاد، كما انتهجتها هيئة الأمم في فلسطين حين أعطت الشواطئ لليهود كما حدث نفس الشيء في الاحتلال الأسباني لبلاد المغرب العربي، ولم يقف أمر التبشير عند حد التخطيط للإستعمار فقط بل نزل إلي حلبة الميدان فإذا استثنينا الدور التبشيري في الحصول علي الامتيازات الأجنبية واستغلال هذه الامتيازات على يد الراهب الفرنسى (ده فورست) الذي عُيّن فيما بعد سفيراً لفرنسا في عاصمة الخلافة العثمانية. . إذا استثنينا هذا وجدنا أن المبشرين كانوا اليد الخفية وراء الاضرابات والفتن والمذابح التي شهدتها البلاد العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

والمبشر (جب) يعترف بأن تركيا علي حق في خوفها من المبشرين الذين لم يكونوا فقط يثيرَون الفتن في إمبراطوريتها بل كانوا أيضاً يتجسسون لدولهم سياسياً وعسكريا، فالدروز يعتمدون على إنجلترا، والموارنة يرون أن حليفهم الطبيعي في

فرنسا[١].

ولكي نتأكد من أن هذه الطوائف التبشيرية لم تهدف إلى خدمة الدين فيجب أن نعلم أنها كانت تُولي اهتمامها بالبيئة المسيحية، فتثير الخلاف في طبقاتها وبين أهل مذاهبها، وكان «الأكليروس» المارونى يحث أتباعه على الابتعاد عن البروتستانت بل كان يحمل أتباعه على اضطهاد أهل المذاهب النصرانية الأخرى، ومن هنا كان للتبشير دوره في تقسيم جبل لبنان في القرن الماضى وتقسيم فلسطين سنة ١٩٤٨م.

وكما اعتمد هؤلاء علي إثارة تلك النزعات الطائفية ولو بين العرب المسحيين من أجل إحداث خلخلة في الكيان السياسي والاجتماعي للأمة العربية، كذلك عَمَدُوا إلي إثارة النزعات القومية وإحياء الحركات الشعوبية المعادية للعروبة والمناهضة للنزعة الإسلامية، ومع أنَّ المبشرين هؤلاء يُعْرَفُون عند البحث في القومية أن ثمة صلة وثيقة بينها وبين الحضارة الدينية باعتبار الدين مكوناً هاماً من مكونات الشخصية القومية المستقلة وأن أحداً لا ينكر ـ وهم لا ينكرون ـ أن (البروتستانتية) جزءٌ أصيل في القومية الهولندية والإنجليزية وأن الأرثوذكية جزء أصيل في القومية اليونانية والبلغارية، وأن الإسلام بدوره جزء أصيل في القومية التركية الإيرانية والأفغانية والعربية.

مع هذا الوضوح في مفهوم القومية روَّج المبشرون لفكرة قومية معادية للإسلام، تنتمي إلى فترات تاريخية مندثرة، فالفرعونية من خلال حجارة الأهرام في مصر!!! والفينيقية من خلال خرائب الساحل الممتد من يافا إلي اللاذقية علي الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، كما لفَّقوا في العراق دعوة أشورية شأنها شأن الدعوات الجاهلية العنصرية الأُخرى، ومع أن هذه الحركات أو بعضها روجها الذين ابتلعهم الغزو الفكري وامتص قواهم الذاتية فإنها وجدت من يهتف بها ويُغني لها.

ولما كان الاستعمار والتبشير ركنين يتطوران مع كل الظروف، فمن هنا... ومع فجر استقلال أمتنا (السياسي) بزغ فجر جديد يُوقظ الناس على فكرة العروبة

(١) انظر: كتاب التبشير والاستعمار - للدكتور عمر فروخ، ص ١٣٥.

الجماعية كرابطة قومية مناقضة للإسلام، سياسة العروبة التي لا صلة لها بالإسلام بل المعادية للإسلام عقديًّاً وتنظيمياً.

وهكذا وفقاً لسياسة (الحيَّات) التي عُرفَ بها (التبشير) يتفنَّن هذا الخط الاستعماري في تدويخ أمتنا وتعميتها عن حقيقتها الوحيدة وكيانها الحضاري الأول المنبثق من القرآن والمتعانق (أيديولوجياً) مع الخط الصحيح!!

ومنذ وقف اللورد (جلادستون) يصرخ بمجلس العموم البريطاني وقد أمسك بنسخة من القرآن، ويقول:

«مادام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربا السيطرة علي الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان».

منذ هذا الحين وأوربا تبحث في ظل خيط معاد للقرآن عن وسائل السيطرة على الشرق، وأمتنا المكافحة التائهة تبحث عن حل، وإنها لتتعثر كثيراً في خطواتها، ولاتزال جاهدة تتلمس الطريق، وإنها لذاهبة إليه بإذن الله ولو كره المشركون!!

التبشير واليهود:

يمثل اليهود وسيلة من وسائل التبشير الظاهرة، لكن هذه الوسيلة مع وضوحها تكاد تكون أخفى الوسائل على الإطلاق، وأعتقد أن أصحاب «بروتوكولات حكماء صهيون» القادرين على التخطيط الشامل لتدمير العالم دون أن يحس بهم أحد ـ أعتقد أن هؤلاء يستطيعون أن يكونوا «يداً خفية» في مجال العمل التبشيري دون أن يُحسَّ بهم أحد كذلك، ومنذ ظهر (محمد علي) في مصر يرنو بنظره إلى أوربا متطلَعاً إلى فرنسا في سبيل تكوين إمبراطوية عربية مناهضة للدولة العثمانية، منذ هذا الحين والتبشيريتعاون مع اليهود للوصول إلي غايتهما المشتركة وهي: انتزاع فلسطين من دار الإسلام، ومن هنا... فقد تم لها إنشاء ما دَعَوْهُ «بكنيسة صهيون» أول كنيسة بروتستانتية في فلسطين ـ وكان المبشرون جد مقتنعين بأن جمع اليهود في فلسطين يسهل لهم مهمتهم في الوصول إلى المسلمين، من أجل ذلك أرادوا أن يفتحوا أبواب فلسطين علي مصاريعها لليهود، فليس من المستغرب إذن أن نجد سبعاً

وعشرين جمعية تبشيرية مختلفة الجنسيات كانت تعمل في فلسطين[١].

ويذكر (ويلس كاسن) أن في القدس مدرستين عاليتين يديرهما ثلاثُ إرساليات مختلفة ويذكر (كاسن) أن اليهود والنصارى والمسلمين يلعبون في ملاعب هذه المدارس لعبة كرة القدم ويبدون في اللعب من ضروب التعاون ما يساعد علي أن يخلق لهم نظرة جديدة إلى مشاكلهم القومية الحاضرة، أي أن يتهيأ الطلاب العرب من المسلمين والنصاري في فلسطين لِيَقْبلُوا عن اقتناع بنزول اليهود في الأراضي المقدسة[٢]، وليس هذا فقط بل إن تأسيسَ الدولة اليهودية كان أمراً مقررا عند المبشرين، ولقد كتب المبشر «جون فان آسى» سنة ١٩٤٣م يذكر إسرائيل ويعلن حدودها كما هي الآن وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧م، ـ تقريباً ـ ويبرِّر المبشر «لورانس براون» تفضيل المبشرين التعاون مع اليهود ضد القضية الإسلامية بقوله:

إن المسلمين يختلفون عن اليهود في أن دينهم «دين دعوة» أما اليهود فهم جماعة مغلقة، ثم يعلن «لورانس براون» رأيه بالتفصيل فيقول: «لقد كنا نُخَوَّفُ بشعوب مختلفة ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف.. لقد كنا نخوَّف بالخطر اليهودي لكنَّنا وجدنا اليهودَ أصدقاء لنا، وعلى هذا... يكون كلُّ مُضْطَهد لهم عَدُوّنا الألدّ.. ولكنّ الخطرَ الحقيقى كامنٌ في نظام الإسلام وفي قدرته علَىَ التوسع والإخضاع، وفي حيويته.

إنها الجدار الوحيد في وجه الاستعمار[٣]!! أرأيت أصرح من هذه الحقيقة في تصور التبشير الغربي للإسلام، وفي تصوره كذلك لليهودية، وفي إيثاره التعاون مع اليهودية وفقاً للمنطق النفعى الذى يقود قوافلَ الاستعمار كلهْا!!!

---

(١) النص لرشتر نقلاً عن كتاب «التبشير والاستعمار»، ص ١٨٢، ط ٣.

(٢) المراجع السابقة نفس الصفحة، ويبدو أن الرياضة من وسائل اليهود لتحقيق أطماعهم في العالم كله باعتبارها آفة عالمية خرجت عن حدود الرياضة لتصبح في كثير من الأحايين أداة سياسية يستعملها الكثيرون من محترفى السياسة وهذه الوسيلة اليهودية إقتبسها المبشِّرون وهم يروجون لها كثيراً باعتبارها تخلق جواً من التسامح يساعدهم علي تحقيق ماربهم.

(٣) التبشير والاستعمار، ص ١٩٤.

إن «اليهودية» وجه من وجوه الاستعمار، «والتبشيرية» وجه آخر من هذه الوجوه، «والاستعمار» قادر كلَّ القدرة في كل الميادين علي إخفاء وجهه الصحيح.

التبشير والخدمات الاجتماعية:

البحثُ عن وسائل التبشير علي سبيل الحصر يقتضي جهداً صخماً وتتبعاً ذكياً لكل المخططات الفكرية والسياسية، فربما تلمح هناك شيئاً خفياً، ولن يكون هذا الشيء سوى يد استعمارية تتقمص ثوباً بريئاً يشبه أثوابَ المبشرين والمبشرات الخادعة وللأسف فإن بحثنا لا يتسع للقيام بهذه المهمة الشريفة وحسبُنا أن نومئ إلى أبرز هذه الوسائل وأوْلاها باهتمام العالم الإسلامي.

لقد استغل المبشرون كل شيء، واندسُّوا وراء كل فكرة وقاوموا بأسماء مختلفة كل حركة لإرجاع الإسلام إلى مكان القيادة في العالم الإسلامي والعربي، وحتى الأعمال الاجتماعية استغلها هؤلاء لمصلحته، فاستغلوا الأندية العامة وأنشئوها لهذا الغرض، وأنشأوا الجمعيات للشبان والشابات لنفس الغرض وجمعية الشبان المسيحيين والشابات المسيحيات نموذج لمثل هذا الاستغلال، ولهما نظائر بأسماء مختلفة في كل بلدان العالم العربي والإسلامي، وأنشأوا جمعيات لإصلاح الأحداث وهي في الواقع لإفسادهم ودعوا إلى إنصاف العمال جذباً لهم، ولم يتورعوا عن إنشاء جمعيات للرفق بالحيوان تجذب إليها السذج من المسلمين الذين لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم في مواجهة جمعيات «ظلم الإنسان» لا الرفق بالحيوان!! وكما استغلوا من قبل «المرضى» فأنشأوا لهم المستشفيات، واستغلوا الجهل فأنشأوا له المدارس والجامعات ـ كذلك استغلوا الفقر فأنشأوا له جمعيات الإحسان، وإن الكتاب الذي ألفه مجموعة من المبشرين باسم «أسس جديدة للتبشير» ليوضح أن أعمال الخير يجب أن تُستغل بحكمة فلا تُنفق الأموال إلا في سبيلها، ويجب أن تُعْطَى الأموالُ أولاً للعداء، ثم يقلُ دفعُها تدريجيًا كلما زاد اقتراب هؤلاء إلى الكنيسة، فإذا دخلوها مُنعتْ عنهم أعمالُ الخير، ودخل التبشير إلى دنيا الإعلام فحرِّك صحفًا بأكملها في فلكه، وكانت «البشيرُ» لسانَ حال المذهب الكاثوليكي ـ

أبرز هذه الجرائد إلى جانب ثلاث صحف كانت تصدر في «لبنان» سنة ١٨٧١م، لصالح البروتستانت[١] وتعتبر جريدةُ «وطني» لسانَ حال البقية الموجودة والمستترة للنفوذ التبشيري في (مصر) الآن، واستغل المبشرون «الكشفية والمجتمعات» للتأثير على الصغار «والمكتبات والتصوير» والاستكشاف والنشر وشجعوا الزواج من الأجنبيات لخلق أجيال تحس غربةً نفسية عن دينها وأمتها، وكانت ثالثة الأثافي في وسائل التبشير وإظهاره علي حقيقته الاستعمارية هومحاولته نشر الفساد وتحطيم القيم الأخلاقية بين الجماهير المسلمة؛ فعندما فتح الفَرَنسيون سوريا فتحوا خمسين حانة ، وفتحوا عددًا كبيرًا من بيوت الدعارة، وجاراهم الانجليز في هذا الأسلوب فعملوا علي نشر الخمور وإشاعة تهريب (الحشيش والأفيون)، والمبشر(جب) على الرغم من ميوله ـيأسف لهذا السلوك الذي انحط إليه الاستعمار الأوربيَ ورصيفه التبشير، وهو يقول:

«إن هذا العمل قد حط من قدر الإنجليز في عيون أهل بيروت، وكان مما يقلل الثقة بالمبشرين»[٢].

و(جب) لم يتألم لأن هذا السلوك يتنافى مع الأديان والأخلاق، وإنما تألم فقط لأن نتائجَه أساءت إلى التبشير والاستعمار، مما يؤكد لنا خلوَّ هذه الطوائف كلها من الضمير المحايد، ومن المنهج العلمى الموضوعى الذي تتشدق به، ويؤكد لنا أن شحنة التعصب الأعمي قد سدّت عليها كل منافذ الضمير الحىّ والعقل السليم!!

التبشير المكشوف وروح العصر:

ما الصورة الجديدة ـ ياتُرى ـ لقوافل التبشير التي تزحف على العالم الإسلامي؟

إن المبشّر الحديث لم يَعُدْ راهباً يحمل عصا السحر الكَنَسِيّ ويعد الناس بملكوت لله . .

---

١) المرجع السابق، ص ٢١٣.

٢) المكان السابق.

ولم يَعُدْ المبشر الجديد ذيلاً أو تمهيداً للاستعمار العسكري فربما كانت هذه المرحلة قد أصبحت تتنافي مع روح العصر . .

كذلك فإن المبشر الجديد في العالم الإسلامي قد صار يعلم جيداً أنه يقف على أرض جديدة . . إنه مهدد بالطرد إذا أظهر مخالبه الحقيقية ، ومن هنا فإن جرعة كبيرة من الذكاء لابد أن تُضَافَ إلى الكمية التي كان يتمتع بها المبشر في القديم . .

إن الفن والأدب واللغة والفلسفة قد تصدرت شير في هذه المرحلة الجديدة . . ومن خلال مذاهب الفن والأدب والفلسفة ، ومن خلال اللغة «كأيدولوجية» تتحرك قوافلُ الاستشراق من جديد . . وبما أن علاقة وثيقة معروفة تقوم بين الاستعمار المعسكري والفكري ـ فان كل الفكر الأوربي في هذه المرحلة يلاحظ الوضع الاستعماري العسكرى في بلدان العالم الإسلامي . . ولما كانت القضية التى تشغل الوجود والعقل الإسلامي في المقام الأول هي قضية فلسطين ، فإن التبشير الخبيث يتحرك في خط القضية الفلسطينية من حث يدرى العالم العربى ومن حيث لا يدرى

إن وجهات النظر التى انطلقت عقب نكسة يونيو ١٩٦٧م ، تلك التي روَّجت للسلام العربي الإسرائيلي والتعايش السلمى بين الذئب الإسرائيلي والحمَلَ العربى المغلوب على أمره . . ووجهات النظر الأخرى التى نادت بالتفرقة بين الوجود الإسرائيلى و العنصرية الإسرائيلية . . هذه وجهات النظر التي لا نريد أن نستطرد في ذكرها إنما انطلقت من قواعد فكرية تبشيرية تتغلف مرة بالمقال الصحفي ، ومرة بالواقعية الفنيه أو التفسير «العقلاني» للتاريخ أو التدرجية الثورية إلى آخره . . . على أنها كلها في الحقيقة انطلاقة تبشيرية تتقمص ثوب الفكر والفلسفة . وهي مهماً تكن وضعيتها إنما تمثل في نظرنا خصيصة من خصائص الوضع الجديد للتبشير ، وإن كل منفذيها ـ ولاسيَّما في السياسة ـ هم عملاء في درجة عليا لدى التخطيط التبشيري العالمي ! !

ظاهرة تبشيرية غريبة (التقدميون والماديون ضد التعريب)

وأمر عجيب ظهر في عالم التبشير . . والتبشير كما هو معلوم من تاريخه غزو ديني وسياسي وفكري للإنسان العربي والإسلامي . . لكن المظهر الأخير من مظاهر التبشير يشير إلى أنه حوَّر إلي حد كبير من وضعية استراتيجيته، وربما كان الوضع الجديد للعالم العربي قد أملى عليه بعض المواصفات القاسية فلجأ أخيراً إلى نوع من الالتقاء بينه وبين أدعياء المادية الجدلية والتفسير الاقتصادي للتاريخ . . إن الفريسة العربية في نظرهم في وضع يسمح بالإجهاز عليها، ومن هنا فلا بأس من أن يستعين التبشير بكل القوى فى سبيل القضاء على المارد الإسلامي . . وقد كنت أعجب (وأنا في الجزائر) كيف يسير التقدميون الماديون في خط نفسي معاد لحركة التعريب مع أنَّ الفَرَنسية لغةُ استعمار المفروض فيهم أنهم من خصومه باعتبارهم قوى تقدميّة .

وفي بقية العالم العربي يكاد يلتحم الرأي التبشيري بالرأي الماركسى في مشكلة الوجود الإسرائيلي مع بعض الخلاف الجزئى غير الهام . . ولئن كانت هذه الحقيقة الأخيرة تقودنا إلى تبيِّن حقيقة التبشير باعتباره دعوى دينية تهدف إلى القضاء على الوجود الإسلامي والعربي، باعتبار أن الحضارة الإسلامية هى أكبر عائق أمام الزحف المادي الشرقي والغربي . . لئن كان هذا فإنها في ذات الوقت تُبيّنُ لنا أعماقَ القوى التي تواجهُنا مهما اختلفت أثوابُها . . وإن هذه القوىَ ـ في اللحظة المناسبة ـ تكشف عن موقفها ضد الحضارة الإسلامية وضد الانبعاث العربي ! !

لربما كان من الممكن أن يعيش الإنسان العربي وأن يأخذ السلاح ليحمي به هذه الحياة الراكدة . . ! !

لكن ليس من الممكن أن يبدأ الإنسان المسلم سيرته الحضارية من جديد وإلا تقلبت عليه كل خفافيشُ الدنيا وأظهرت له «بالمنطق العلمي والجدلي» أنَّ الإقليمية والمذهبية الغربية إلي الشمال أو اليمين، والتفسخ الخلفي والانسلاخ من ماضيه هى الطريق الوحيد للانبعاث المميت . .

ويوم يتحرك البندول الإسلامي مشيراً إلى احتمال قيام لون من ألوان الحضارة

الإسلامية فإن القوى الشاردة تلتئم بسرعة مخيفة لكي تقضي على هذا البصيص من النور. . !! وبنفس السرعة تتحرك عشرات الصحف وعشرات الكتب وعشرات النظريات. . كما تتحرك جيوش أخرى رهيبة لتقضي على ذلك الأمل الموهوم. .

ولكي نكون أقرب إلى الموضوعية ونحن نسجل للوضعية الجديدة للغزو التبشيري في هذه المرحلة فإننا لابد أنْ نعترفَ بأن أجزاءً من أعضاء الإنسان المسلم تسيرُ الآن بلا مصباح. . لقد أصابوا عينيه بالشرود، وأصابوا عقله بالشك، وأصابوه أخيراً بأمراض الانحلال والضياع. . .

. . وإن التبشير ليتعلق الآن بكل القوى من أجل الحفاظ على هذا الوضع للإنسان العربي والمسلم، . . . أجل إن بقاء الإنسان المسلم في وضعه الراهن الممزق هو الأمل الأكبر لمواكب المبشرين. . !!

المد الفكري للإسلام:

لكن ما هو الخوف الذى يمكن أن يأتي من العالم العربي ـ مثلاً ـ، وهو ـ مهما أتيح له من إمكانيات ـ لا يستطيع أن يطمع في الوصول إلي قوة الدول الكُبرى المعروفة في الشرق والغرب؟

وحقيقة فلا أمل في الوصول إلي قوة هذه الدول (في المستقبل القريب علي الأقل) لكن مع ذلك فإن القوة الشيوعية في العالم قد انطلقت من معاقل الرأسمالية نفسها بينما كانت القوى الشيوعية مجرد وهم يعيش في ذهن رجل مهدّد اسمه كارل ماركس.

. . . إن استراتيجية الغرب الواعية لا تغيب عنها هذه الحقيقة. . ولم يمنع المظهر الخارجي المُتَداعَى للعروبة والإسلام من أن يكْسبَ الإسلامُ بعضَ أبناء الحضارات الراقية، وأن تَكْسبَ عَطْفَ واحترامَ كثير مِنْ مفكَري هذه الحضارات. .

وإذا أُتيحَ لمقومات الإسلام أن تلتئم بطريقة تطبيقية حسنة المظهر والمخبر فإن المدالفكريَ للإسلام قد لا يقف عند حدود، ولاسيَّما والعقل الأوربي الذي شبعت

كل غرائزه يبحث الآن عن جديد يعيده إلى بَعض خصائصه الإنسانية!!

ومن هنا يبدو الخوف من الإسلام.. ومن هنا يحرص العالم المادي على إبقاء الوضع الحضاري الحالي للإنسان العربي بكل أثقاله من أجل أن تظل قوى هذا الإنسان منصرفة إلي مشاكله الحياتية، ولا يجد تلك الفرصة التي تُتيح له التطلع إلي تقديم المبادئ التي يملكها إلى الجماهير المُرْتَقبة، ولا أن يجد فرصة ليأخُذَ دوره الحضاري على أسس خاصة مستقلة، فيبدأ بها مسيرةً تاريخية من جديد...

وأد الإسلام كفكرة وكرسالة:

... إني أنظر الآن - بَعَدَ معايشتى للغزو الفكري - إلى الوضع السياسى والحضاري للعالم الإسلامي وأسأل نفسى: ترى لو انضم هذا العالم في دنيا السياسة الخارجية إلى الشرق أو الغرب أكانا يتركانه يسير في سياستة الداخلية كيف شاء؟ ولقد رأيت من خبرتي هذه أن هذا التشتت مقصودٌ بذاته وأن كلتا القوتين لا تريدان من هذا العالم الإسلامي إلا أن يظلَّ في مرحلة المقاومة والهدم.. وهما لا يريدان منه إلا أن يموت - هكذا - بهذا الخمول وهذا الشرود.. أعنى.. أن يموت «كفكرة» من الممكن أن تنبعث عالمياً، وأن يموت «كرسالة» من الممكن أن تقدم حلولاً جديدة لمشاكل الإنسان، وأن يموت «كحضارة» تملك طاقة جبارة قادرة علي استعادة نفسها من بين أعتى مراحل الهزيمة والدمار!!

العالم العربي والتبشير:

... وفي تصورى أن العالم العربي يقف أمام تحد حضاريٍّ بكل معاني حروف هذه الكلمة. إن العالم العربي ينتظره صراع طويل علّى أساسه سيتقرر مصيرَ هذا العالم.. وإن القوى العالمية تعرف تماماً هذا الشريط الرفيع الذي يسير عليه العالم العربي.. وإنها لتُحَاولُ جاهدةً مساعدته علي السقوط.. ومن خلال مظاهر السقوط المتكررة الدالةَ على انحراف بعض أجزاء من العالم العربي عن خطه الحضاري.. من خلال مجموعة هذه المظاهر والتحّدي الحضاري الذي ينتظره، سوف يُقَرَّرُ مصيرُ هذا الجزء من العالم..!!

الحرب النفسية والحرب الفكرية:

إن التبشير يقوم الآن بقيادة الحرب النفسية والحرب الفكرية ضد الإنسان العربي والمسلم لكي يجعله يعاني تمزقًا داخلياً عنيفاً. وهو لا ينطلق الآن من المستشفيات والجمعيات بقدر ما يتركز في مجال الإعلام «في الصحافة والإذاعة والكتاب» ـ فضلاً ـ عن دور العلم المنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي. . وهو في هذه الفترة يحاول أن يَدْعَمَ السطوة الفكرية الاستعمارية مستغلاً فترة الهدوء الضئيلة التي سادت بين العالمين العربي والأوربي، ومستغلاً كذلك ـ كما قلنا ـ بعض الاهتزازات في داخل النفس العربية. .

وفي ظل استراتيجية مرنة دائماً، قابلة للتلون والتريث خاضعة لمناهج علمية ونفسية يسير التبشير مع الأمة العربية والإسلامية خطوةً خطوةً. . يَتَعَهَدُ خُطاها بالإفساد، وطريقَها بالمعوقات، وفكرَها بالتمويه، وهو دائماً معها. . فلئن خرجت جيوش استعماره، فإنه يُبْقي نيابةً عنه جيشاً من لون آخر يعمل ويتحرك.

وكما قاد التبشير الاستعمار سابقاً إلى بلاد العروبة والإسلام فإنه يحاول الآنَ التمهيد لشيء آخر واضح. . إنه التبعية الكاملة لمناهج وتصورات أوربا، وفسخ مقومات الشعب العربي الحضارية، والقضاء على فكرة إحياء ما يسمى بالحضارة العربية الإسلامية. .

لكنَّ اللهَ غالبٌ على أمره ولو كره الكافرون.

نماذج للواقع التبشيري التخريبي:

النموذج الأول (أندونيسيا أكبر بلد إسلامي في آسيا)

تفيد بعض المصادر أن التبشير قد نجح في تنصير عشرة ملايين فقير مسلم أندونيسي من مجموع المسلمين البالغ عددُهم مائةً وعشرين مليوناً.

وقد ازدهَر وبخاصة في جزيرة جاوا موطن ٦٥٪ من سكان أندونيسيا، الذين يمثل المسلمون نحو ٨٥٪ من تعدادهم.

ومما ذكرته صحيفةُ «الواشنطن بوست» [١] بشيء واضح من السرور: أن الحكومة الأندونيسية تعمل جاهدة على عزل العلماء المسلمين وساستهم القدماء عن المجتمع وقمع الاتجاهات التي تحاول الحفاظ على إسلامية أندونيسيا).

وعلى سبيل المثال فإن الصحيفتين الكبيرتين اللتين تصدران في (جاكرتا) إحداهما: يسيطر عليها البروتستانت، والأخرى: الكاثوليك فضلاً عن أن وزيرَ الدفاع والأمن القومي، ووزير التجارة، ووزير الصحة، ووزير تنظيم أجهزة الدولة، كلُّهم من النصارى، أما القوات المسلحة والجامعات الحكومية والأهلية فيسيطر عليها النصارى، ويوجهونها لأغراض التبشير.

وقد ذكرتْ جريدة السياسة الكويتية[٢] ما نصه تحت عنوان: «خطة رسمية لتحويل أندونيسيا من الإسلام إلى المسيحية خلال ثلاثين سنة» قالت: «بدأت الدول الخليجية بشكل خاص والدول العربية الإسلامية بشكل عام فيما بينها اتصالات على مستوىً رفيع وذلك من أجل تدارس ظاهرة تعتبرها في غاية الخطورة فقد تجمعت لدى الأوساط السياسية الخليجية معلومات تفيد أن هناك نية رسمية قَيْدَ التنفيذ لدى الإدارة الأندونيسية، وذلك لتحويل تلك البلاد عن الدين الإسلامي إلى المسيحية. وتضيف المعلومات التي تجمعت لدي عدد من القيادات الدينية في الخليج وفي العالم الإسلامي بأن خطة تنصير أندونيسيا تجري بممارسات قمعيَّة ضد المسلمين هناك بشكل يستدعي تحركاً إسلامياً مضاداً ذا طابعٍ دوليّ.

وأفاد مرجع ديني خليجي بأن المعلومات المتوفرة والمطروحة الآن على مختلف الدول الإسلامية ـ هذه المعلومات ـ تؤكد بأن خطةَ تنصير أندونيسيا مرسومةٌ للتنفيذ على مدى ثلاثين سنة، وقد شرعت الحكومة بترجمتها من خلال تعيين حكام للأقاليم وقادة للجيش والشرطة والمخابرات من المسيحيين الذين يقومون بتنفيذ الخطة المرسومة، بالإضافة إلى تسليم إدارات الهجرة والجوازات والجمارك وقيادات

(١) نقلاً عن مجلة الفكر الإسلامي البيروتية عدد ذى الحجة ١٣٩٨ هـ.

(٢) انظر عددها رقم ٣٥٢٤.

المناطق العسكرية ومركز الإدارة والحكم المحلى ووسائل الإعلام والثقافة والاقتصاد والتجارة ومجلس إدارة الشركات الاستثمارية لقيادات نصرانية غايةً في التعصب والحقد على الإسلام.

ويوجد الآنَ بأندونيسيا أكثر من ثلاثة آلاف قسيس وسبعة آلاف متطوع من جنسيات أوربية، وحوالي عشرة آلاف كنيسة، وعدد هائل من الجمعيات والمعاهد الزراعية والمستشفيات الكبرى والمستشفيات المتنقلة ودور اليتامى والإذاعة المحلية التبشيرية.

ومن أخطر ما تنتهجه الحكومة الأندونيسية للتعجيل بالتنصير: العمل علي تهجير الأهالي من مناطق التجمعات الإسلامية، وقد شملت مناطق التهجير لامبونغ في سومطرة، وكاليمنتان، وسولاويس، وكالوكو، وإيريان.

كما يعتمد التبشير على طبقة المرشدين الاجتماعيين اللذين يخدعون الناس بالأدوية والطعام، ويعطونهم النصرانية في داخل عُلَب القشدة والزبدة ولُعب الأطفال، وتقوم الهيئات التبشيرية بتبني الأطفال البائسينَ وتنصيرهم تحت عنوان «إنقاذ الأطفال»!!!

أخطر تقرير سري عن التبشير في أندونيسيا:

ونكتفى في نهاية هذه السطور بنقل تقرير سري أصدرته إرساليات التبشير البروتستانتى في جنوب شرق آسيا، وذكرت فيه ما نصه: «إن ما ينفق علي التبشير سنوياً في أندونيسيا يبلغ ٣٥٠ مليون دولار، منها (٥٠مليون) دولار لأعمال التبشير الإعلامية ومراسليه الإداريين في المقر العام بسويسرا.

كما تقدم هيئة المعونات الكاثوليكية ستة ملايين دولار سنوياً إلى حكومة أندونيسيا ـ لمساعدة قطاع الإنماء القَروي.

وتقوم إحدي الهيئات التبشيرية الأجنبية في أندونيسيا بتقديم المعونات الغذائية إلي ٣٢٠ ألف شخص، من مختلف أنحاء أندونيسيا ينتمون إلى مختلف دور الأيتام والمؤسسات الصحية وملاجئ العجزة بجاكرتا وكاليمنتان.

وتقومُ هيئة تبشيرية بروتستانتية بتقديم المعونات الغذائية إلي ١٣ ألف شخص في مختلف أنحاء أندونيسيا، كما تقوم بتقديم معونات طارئة عند الحاجة، بالإضافة إلى ذلك تقديم المساعدات إلى ١٧ مشروعاً قروياً للإنماء في سومطرة وسولاويس لترقية مستوي إنتاج المواد الغذائية.

أما المؤسسة التبشيرية العاملة في ايريان الغربية فهي تمتلك (١٧) طائرة مختلفة بالإضافة إلى شبكة مواصلات لاسلكية وخمسة مطارات، وتقف هذه المؤسسة وراء الحركة الانفصالية التي تستهدف فصل ايريان الغربية عن أندونيسيا، وإقامة دولة نصرانية مستقلة عن أندونيسيا المسلمة.

وفي قطاع الشئون التعليمية تقوم مؤسسة (مونتفورت فاذر) أي (الأب مونتفورت) ببناء عشرات المدارس العامة والمهنية ومدارس التمريض، والعيادات والصيدليات في كل من (ستانغ وبينومارتينوس، وبوتوس سيبا، وسيجرام، وبنجهابينا، وبيكا، وسراواى).

وفي قطاع ملاجئ الأيتام تقوم مؤسسة تبشيرية كبرى بتقديم المساعدات الغذائية والملابس إلي (٥٥) ملجأ للأيتام بها ما لا يقل عن ثلاثة آلاف يتيم، كما تقوم بتقديم البرامج والمساعدات التقنية، وتقديم المواد الغذائية والملابس والأدوية لمنكوبي الكوارث الطبيعية واللاجئين والفقراء في مناطق استراتيجية للتبشير.

أما في ميدان النشر والشئون التعليمية فتقوم مؤسسة تبشيرية متخصصة مركزها جاكرتا ولها فروع أخرى بنشر عشرات الكتب سنوياً في مختلف الموضوعات الثقافية والفلسفية والدينية.

كما تقومُ المؤسسة بتسهيل تعليم الشئون الفنية الخاصة بنشر الكتب الدينية ويمتلك المبشرون مطابع متخصصة في طبع الأناجيل وبيعها بأقل سعر أو مجاناً، وفي قطاع المكتبات تتصدر عمارة (دار النشر المسيحية) بجاكرتا «قونونغ مليا» مكتبات دور النشر التبشيرية التي تهتم بإعداد الخرائط وكتب الأطفال التبشيرية،

وفي ميدان الصحافة يملك التبشير صحيفتي «كومبارس» و «سينارهابان» اللتين تُطْبعان يومياً زهاءَ (٢٠٠) ألف نسخة، هذا فضلاً عن ملكية التبشير: في كاليمنتان الغربية (١٧) مطاراً، (١٥) مدرسةً، و(١٣٠) مستشفى. وفي سومطرا يملك التبشير مستشفيات، ومطابع، وكنائسَ في مساحة قدرها «٤٠ هكتاراً» وأسطولاً من السفن وطائرات «التشستا» والزوارق السريعة والسيارات، والدراجات النارية.

النموذج الثاني:

غزو تبشيري لنيجيريا، أكبر بلد إسلامي في إفريقيا[1] :

ومع الغارة التبشيرية العامة والمعروفة علي إفريقيا المسلمة ثَمَّةَ تركيز على نيجيريا كأكبر بلد إسلامي إفريقي، مثل التركيز علي أندونيسيا في آسيا والجدير بالذكر أن عدد المسلمين يقترب في نيجيريا من ستين مليوناً، من بين عدد السكان البالغ ثمانين مليوناً، ويشكل المسلمون نحو ٧٥٪ من عدد السكان، ولا تمثل النصرانية أكثر من ٧٪.

ويتجمع معظم المسلمين في نيجيريا الشمالية، وهم قبيلة «الهاوسا» التي تشكل أكثر من ٩٠٪ من سكان نيجيريا الشمالية، ويتناثر بقية المسلمين في مقاطعات نيجيريا الأخرى التي تضم قبائلَ وثنيةَ ونصرانية.

ومع هذه النسبة، فان الغزو النصراني لنيجيريا قائم بجديَّةٍ ونشاطٍ لا يَفْتُرُ للحظة واحدة.

ولقد أصبحت نسبة المدارس التبشيرية تزيد عن (٧٠٪) من مجموع المدارس في نيجيريا، وأما المدارس الرسمية فان التبشير يحاول ـ أيضاً ـ أن يمد نفوذه إليها مستغلاً فقرها وحاجتها للمدرسين، وبخاصة المدرسات اللاتي جلب التبشير منهن أعداداً كبيرة غزا بها نيجيريا الواسعة، وتعمد أن يكون من ذوات الجمال والفتن،

(١) راجع التقرير المنشور في مجلة البلاغ الكويتية عدد ١٤٩ .

وأُوعز إليهن بالعُري، وبما يتصل به من وسائل نشر الفساد الخُلقي بين الشبان..

ولقداستطاع التبشير النصراني أن يستعين على النجاح بوسائل أخرى نجح في السيطرة عليها كلَّ النجاح.. ومن هذه الوسائل:

١- السيطرة علي الصحافة والإذاعة في غالب الولايات.

٢- إنشاء إذاعتين خاصتين للتبشير، تعملان على تعليم الإنجيل..

٣- امتلاك معظم دور النشر والمكتبات، والهيمنة على ما يملكه، بحيث يوجهها بوسائل التأثير المختلفة إلى تشويه الإسلام، أو الوقوف منه موقفاً سلبياً على الأقل.

٤- السيطرة شبه الكاملة علي المستشفيات والصيدليات، ومعاهد التمريض التي لا عمل لها إلا تخريج مبشرين ومبشرات.

٥- إنشاء الجمعيات التي تَزْعُم أنها لمساعدة الفقراء ولأعمال البرّ، فضلاً عن الأندية الثقافية والرياضيّة والرحلات والكَشَّافة..

وقد استطاع التبشير هناك استغلال النصارى المحليين كل استغلال في مجال الاقتصاد، بحيث أصبح معظم رأس المال الوطني في أيديهم وأيدي الأجانب، وصار من الصعوبة بمكان أن يَجدَ المسلم عملاً يَقْتَاتُ منه.. وقد أصبح النيجيري المسلم، يبدو وكأنه غريبٌ في بَلده التي يَرَى خيراتها في يد غيره.. من المبشرين الذين يلوحون له بالطريق الوحيد للوصول إلى الثروة والعمل.

وهذا الفقر أو الإفقار ـ كما هو معروف ـ هو طريق المذاهب الهدامة دائماً من نصرانية وشيوعية وغيرهما..

وحتي وسائل النقل والمواصلات سيطر عليها التبشير، باعتباره القادر على استيراد السيارات الصغيرة والحافلات الكبيرة والطائرات، وقد سهلت لهم وسائلُ

المواصلات المتوفرة الوصولَ إلى كل مدينة وقرية في نيجيريا بحيث وصل خطرهم - تقريباً - إلى كل ركن . . وإلى كل بيت . . . .

وهم يسيرون في كل ذلك، وبأيديهم الأناجيل المطبوعة بأفضل إخراج طباعيّ ممكن، والمُحَلاة بصور للطفولة البريئة، والتي تُهْدَى لكل مَنْ يريد ومَنْ لا يريد، ويساعدُ الأناجيلَ نشراتُ تعد للتوضيحات والشروح، وللهجوم - أيضاً - على الإسلام والقرآن وشخصية نبى الإسلام محمد - عليه الصلاة والسلام - . .

ثانياً: اليـــهودية والصهيـــونية

التوراة والتلمود والبروتوكولات:

الحديث عن التوراة من ناحية تحريفها وتناقضها الداخلى، وتناقض الأناجيل معها، أصبح حديثاً مكروراً وإن التوراة لتحفل بمقررات لا تليق بالوحي الكريم ولا برسالات السماء ورسل الله.

وأسوأ ما في التوراة هو تصويرها لله نفسه ـ حاشاه أن يُشَبَّهَ أو يُجَسَّمَ فالله ـ في التوراة ـ يدخل في عراك مع يعقوب، ويكاد يعقوب ينتصر عليه(!!) ويضطر عندما يكاد يعقوب أن يغلبه لطلب العفو (!!) ولا يتركه يعقوب إلا بعدَ أن يباركه ـ رغم أنفه ـ[1] !!

والله ـ في التوراة ـ إلهٌ خاص.. لا يحب إلا إسرائيل.. وأما بقية الأميين (الأغنام) فهم أقل من أن يَأْبَه اللهُ بهم!!

أما الأنبياء.. فبعضهم يزني، بل يزني بابنته[2] ..... وتدّعي التوراة أن السحرة يقدرونَ علي إحالة الطبائع، كإنسان يصير حماراً، أو العكس، وتدّعي أن الله حَرَّض اليهود على سرقة المصريين عند خروجهم من مصر، وتدّعي أن هارون ـ عليه السلام ـ هو الذي صنع لهم العجلَ ليَعْبُدُوه[3]!!

فهل يمكن أن يكون هذا كتاباً إلهياً مقدساً جاء لتعريف البشر بالله وهدايتهم إلي طريقه؟!!

هل يمكن أن يكون كتاباً مقدساً مَنْ يقول: «كلُّ النساء غيرُ اليهوديات مُومسَات» ويقول «يستحق القتل كل الجوبيم ـ غير اليهود ـ حتى ذَوو الفضل منهم» ويَقول:

---

(١) أنظر الفصل ١/ ٢١٨ وأنظر الدكتور أحمد شلبى: اليهودية ٣٢ وما بعدها.

(٢) المكان السابق.

(٣) أنظر اليهودية ١١٦، ١٦٧ وزنظر الرد على ابن النغريلة لابن حزم ٦٥-٨١.

«من قتل غير يهودى فقد قدّم قرباناً للرب»؟!!

أما التلمود ـ وهو الكتاب الثاني ـ فهو أكثر سوءً من التوراة ولا عَجَبَ، فإذا كان في التوراة رائحةُ دين ـ فان التلمود بجملته اختراع يهوديّ خرج من صميم الفكر اليهوديّ، وصَوّرَ أعمق تصوير حقيقةَ النفسية اليهودية.

يقول التلمود في وصف السيد المسيح الذي كرمه القرآن أىَّ تكريم:

« يسوع الناصري ـ أى عيسي ـ ابنٌ غيرُ شرعىّ، حملته أمُه وهي حائضُ سفَحًا من العسكرى باندارا، وهو كذاب ومجنون، ومضلل وساحر، ومشعوذ ووَثنى ومخبول».

«مات يسوع كبهيمة، ودفن في كومة قذر».

«الديانة المسيحية ديانة غريبة وثنية، وهي كالمرأة النجسة تُلَوّثُ كلَّ من يتصل بها».

وأما عن أتباع المسيح في رأي واضعي التلمود...

«أتباع يسوع (عيسى) يطرحون بعيداً كما تُطْرَحُ خرق حيض المرأة».

«كل المسيحين عبدةأوثان، وثنيون، قتلةٌ، فسقةٌ، إنهم حيوانات قذرة، إنهم كالغائط، إنهم بهائم، حمير، خنازير، كلاب بل أسوأ من الكلاب، يتناسلون بطريقة أحطَّ من البهائم»[1].

وتأتي البروتوكولات في الدرجة الثالثة بعد التوراة والتلمود لتضع اليهود على عتبة السيطرة الكاملة على العالم، ولترسم لهم الطريق للقضاء الكامل على عقائد البشرية، وأخلاقها، وكل أواشجِ تماسكها.

وإذا قدر أن يكتب تاريخ البشرية في القرون الثلاثة الماضية من وجهة نظر محايدة ـ

(١) انظر في هذا الباب: فضح اليهود. تعاليم اليهودالسرية (أى - بي براناتيس) ترجمة زهدى الفاتح نشر بيروت ١٩٦٤ (صفحات ٥٥ وما بعدها) وأنظر أحمد عبد الغفور العطار ص ٩، ١٠ (مؤامرة الصهيونية على العالم) طبع مكة المكرمة.

فسوف يتكشف الأمر ـ أن معظم الأحداث الكبرى التي وقعت خلال هذه القرون كانت نتيجة التأثير المدمر، والتخطيط الشيطاني الذي وضعه اليهود في هذه البروتوكولات. . فالانقلابات الدموية، والثورات الفوضوية، والمذاهب الانحلالية، والغارات الجوفاء الثورية، والحربان العالميتان. . كل ذلك وغيره. . كان بتأثير البروتوكولات!!

وإن أيَّ قراءة ممعنة للبروتوكولات سوف تبين ـ بجلاء ـ صلة هذه البروتوكولات بكثير من التيارات والأحداث التي وقعت في العالم!!

جاء في البروتوكول الأول:

«السياسةُ نقيضُ الأخلاق، ولا لقاءَ بينَهما، والحاكم الذي يَدينُ بالأخلاق في حكمه ليس بالسياسيّ الحاذق، وعرشه ليس بالعرش الثابت، ويجب علي من يريد أن يتسلم الحكم أن يتزود بالمكر والرياء، وأما الفضائل الإنسانية كالصدق والاستقامة فهي ـ في عُرْفِ السياسة ـ رذائلُ هي أقدر على هدم العروش من أشد الأعداء ضراوةً وفتكاً».

«والوحيد الذى يستطيع فهم السياسة هو مَنْ أُعِدّ منذ نعومة أظفاره إعداداً خاصاً للحكم الفردي المطلق».

«كنانحن أول من نادى في العصور الغابرة بكلمات «الحرية والمساواة والإخاء» فاجتذب النداء الناس، وأخذوا يهتفون بهاويرددونها في كلِّ أقطار الأرض ترديد الببغاء، دُونَ فهم أو إدراك؛ وأدّى بهمُ الهتاف الببغائيُّ إلى عرقلة التقدم الإنساني في العالم، وحرمان الفرد من حريته الذاتية الأصلية التي كانت في مأمن عن عَبَثِ الجماهير»!!

وما جاء في البروتوكول الثاني:

«لقد أقنعنا غيرَ اليهود بأنَّ مذهبَ الحرية «الليبرالية» مُفْضٍ بهم إلى حَرْمِ العقل وَمنْ هذا نَفْسه سيكون منطلق سلطتنا المستبدة في قَمْعِ كل الثورات، واتخاذَ العنف فيَ استئصالِ كل فكرة تحررية من كل نظام».

وهكذا تستمر البروتوكولات الأربعةُ والعشرون[١]، كل منها يُشيرُ إلى تخطيط يهوديّ مدمر في مجال من مجالات الحضارة الإنسانية، حتىَ ينتهي الأمرَ بالبشرية إلى أن تؤول صاغَرةً ضعيفةً ذليلةً كالأبقار ـ حسب التعبير اليهودي ـ إلى ملكية اليهود.

المسلمون وهذه المفاهيم:

ونحن من وجهة نظر إسلامية ـ ننكر هذه الأساليبَ الخبيثة، ونعتبر البشر أمانةً في يد كلّ دين صحيح في مرحلته التاريخية.. عليه أن يسعى لهدايتها إلى الصواب، ويَحْدبُ على خرافها الضالة.. لا أن يغذي انحرافاتها وضلالَها ويستثمر هذه الانحرافات لحسابه الشخصيّ... وقد ذكر القرآن الكريم في وصف محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢].

ولئن كان خطر اليهود ـ كما نرى ـ يمتدّ إلى مستوى العالم كله، فإن خطرهم جسيم بالنسبة للفكر الإسلامي والعالم الإسلامي: فهم الذين حاولوا تشويه الفكر الإسلامي، وأدخلوا عليه بدَعاً مُنْكَرةً تَحْتَ اسمِ التّشَيُّعِ، وَدَسُّوا على نبيّه الإسرائيليات، وقاوموه منذ جاء بالفكر والعمل.

ثم مع ظهور العصر الحديث، ومع انحطاط المسلمين، وبروز القوى اليهودية الصهيونية، طمع اليهود في السيطرة على العالم العربي، ثم العالم الإسلامي، وهم الآنَ يَحْتَلُّونَ أجزاءً كبيرةً من أرض المسلمين، ويريدون ـ انطلاقاً من هذا الاحتلال ـ السيطرةَ على الاقتصاد، وتوجيه الإعلام والصحافة توجيهاً كاملاً، وإقامة عَلاقات سياسية يُطبِّقون عليها أسلوبهم السياسيّ الذي ذكرتْه البروتوكولات، وإلى غير ذلكَ من أخطار تُوجبُ على المسلمين أنْ يَدْرُسُوا اليهود فكراً وتاريخاً بشيءٍ كبيرٍ من التّمعُّن؛ حتى لَا يقعوا في حَبَائلِ هؤلاءَ الشياطين.

وقبل أن نختم هذه الكلمات نُحب أن نشيرَ إلى أنَّ ما يشيعه اليهود ويقبله بعض

---

(١) نقلنا هذه الأقتباسات من طبعة/ أحمد عبد الغفور العطار (مؤامرة الصهيونية على العالم)

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

المسلمين عن سذاجة أو تساذج ـ من أن هناك تفرقةً بين الصهيونية واليهودية ـ إنما هو أمر باطل، وهي تفرقة مقصودة يفيدُ منها اليهودُ.

وليست الصهيونيةُ إلا طليعةَ البعث اليهوديّ الحديث الذي يقود جماهير اليهود المنتشرين في الأرض إلى السيطرة على العالم من خلال العودة إلى فلسطين (مملكة أورشليم)، بل إن كلمة صهيون نفسها؛ تعني: (مدينة داود)التي تُطل علي أحد تلال القدس، كما أنَّ فكرةَ العودة إلى فلسطينَ وتهويدها جزءٌ لا يتجزأ من العقيدة اليهودية[1].

فكيف يفرق بعضهم إذن بين اليهودية والصهيونية؟ هل تخلت جماعات اليهود عن جماعات الصهيونية تخلياً حقيقياً في أيةٍ مرحلة من مراحل محاولات اليهود في اللُّعب على كل الحبال.. لكسب جميع القوى في العالم، مهما اختلفت مشاربُها، في كلَ الحالات والمجالات؟ وهل تحتاج الأساليب اليهودية إلى مزيد وضوح؟!!

إن يهودَ اليوم، كما قال أحد المعاصرين: «ليسوا يهوداً[2]» إنهم جميعاً صهيونيون، ينتظمهم فكرُ جديد مصهور في بوتَقَة ذات شُعَب ثلاث: التوراة، والتلمود، والبروتوكولات، وهم بهذا الفكر المختلطَ الجديد، يتقدمون للسيطرة علي العالم، مستغلين كلَّ القوى، ويتظاهرون بكل نحْلة.. فهم رأسماليون مع الرأسمالية، وشيوعيون مع الشيوعية، وهم مع اللَيبرالية الديمقراطية.. وهم مخترعو الشعارات الغوغائية كالاشتراكية التقدمية، والرجعية والحرية، والإخاء والمساوة، وغيرها..

بل إنهم ليقودون كل القوى، ويؤججون الصراع بينها.. لكي يضربَ العالمُ بعضَه، وتَبْقَى لليهود ـ وحدهم من خلال جمعياتهم السرية كالماسونية والروتاري ـ فرصة السيطرة على العالم.

فهل يتنبّه المسلمون.. إلى صور الخطر اليهودي الصهيوني المحدقة بهم؟؟!!

---

(١) انظر خلف الحسيني: اليهودية بين المسيحية والإسلام طبع وزارة الثقافة بمصر سنة ١٩٦٤ صـ ١٤ , ٢٠.

(٢) عنوان كتاب لزهدي الفاتح.

ثالثاً: المادية الجدلية: عرض ودحض

تمهيد:

عندما نتناول المادية الجدلية «الماركسية» بالتحليل فإننا نلتقي ـ فعلاً ـ بأكبر حل خاطئ يكتسحُ عالم اليوم، ولم يكن هذا الحل ابن يومه بالنسبة للعرب، وإنما كانت له خلفية في الذهن العربي منذ تَحَطّم السور الذي كان يحكم جمهوريات «الاتحاد السوفيتي» منذ سنة ١٩١٧م. . . وبدأت روسيا تخرج من خلف أسوار «التجربة اللينينية» لتعلنَ على العالم بضائعَها الجديدة.

وزاد هذه البضائعَ إمعاناً في الإغراء عدةُ ملابسات اقترنتْ بظهور التجربة وبداية التفات العالم إلى القوة العسكرية للاتحاد السوفيتي. . . ومن هذه الملابسات:

أولاً: خروج الاتحاد السوفيتي من الحرب العالمية الثانية كصاحب يد طولى في القضاء على النازية الهتلرية.

ثانياً: الوجه «العلمي» المتفوق الذي بدأ الاتحادُ السوفيتي يظهر به أمام العالم ككتلة ثانية تقف في وجه الكتلة الغربية.

ثالثاً: الوجه «الإنساني التحرري» الذي أضفاه الاتحاد السوفيتي على نفسه كعملية اقتضاب لأكبر أرضية ممكنة يواجه بها الكتلة الغربية، وهي عملية «تكتيكية» مُزَيّفَة!!

رابعاً: ظروف القلق الذي كان يعانيه إنسان العالم الثالث ـ عموماً ـ نتيجة العلاقة السيئة التي تربطه بالإنسان الأوربي المتوحش الذي فرض عليه الجمودَ والعبودية والتأخر، فكان ذلك الإنسان يحاول قدر استطاعته التخلص من هذه القيود ويرضى بأيّ بديلٍ لهذه الوضعيّة بصرف النظر عن «ماهية» ذلك البديل.

خامساً: لم تكن التجربة السوفيتية في الحقيقة قد استطاعت إخفاء بعض جوانبها الواضحة السوء، لاسيّما ذلك التناقض الذي يظهر بين شعاراتها الإنسانية،

وبين الأسلوب اللاإنساني الذي استعملته خلال مراحل التطبيق، كذلك ما يتعلق بالنواحي الفطرية في الإنسان، وما يتعلق بعلاقة الإنسان بالكون المحيط به، وتجاهل بعض الحقائق الكبري التي أثبتتها التجربة الإنسانية ولم تعد تقبل التغيير الجذري وإن قبلت التعديلات الشكلية.

ولنبدأ هنا في محاولة موجزة لمعايشة النظرية (الماركسية) نفسها في بعض أبجدياتها ثم بعد ذلك، نربط النظرية بالواقع الإسلامي لنصل إلى النتيجة التي تمليها طبيعة النظرية والواقعُ معاً..

أصل الحياة بين الماركسية والإسلام:

منذ أقدم العصور والعلماء يحاولون إيجاد الأساس الأوليّ لجميع الظواهر الموجودة في الواقع.

وفي صفحات الفكر البشري أصداءٌ كثيرةٌ جديدةٌ لتلك المحاولات الطليعية، وقد ظلت هذه المحاولات مرتبطة بتطور الفكر البشري نفسه فأينما كان الإنسان فهو دائماً يبحث عن سرّ هذا الكون الغامض المحيط به؛ ولذا فقد اختلفت التغيرات حول هذا الأساس.

لقد رأى العلماء هذا الأساس في «الماء»، وإلي ذلك ذهب فيلسوف اليونان «فاليس»، كما رأى بعضهم ذلك الأساس في «الهواء والنار والتراب»، ورآه آخرون على رأسهم (ديموقريطس) في جزئيات متناهية في الصغر لا تقبل التقسيم وهي: «الذرات» أي اللبنات الأولي في الكون، ثم ظهرت عند تخوم القرنين التاسعَ عشرَ والعشرين العبقرية اليهودية التي تمكنت من تفتيت الذرة، وأصبح من الصعب أمام إمكانية التفتيت المتتالية لكل «الجزئيات» تصوّر وجود أية لبنات أولية يمكن إرجاع أصل الحياة إليها، على أن الوجودَ الحقيقي لمجموعة خصائص تشترك فيها الظواهر المادية مهما كانت نوعياتها وأحجامها، وعلى أنَّ أجهزةَ الكشف العلمية قد تطورت تطوراً ضخماً مكنها من إدراك التذبذب ما فوق الصوتي، والموجات اللاسلكية.

لهذا ولغيره.. فقد ظهر مع هذا التطور العلمي الرأي القائل بوجود أصل

مشترك مانع جامع هو «المادة»، أي: تفسير أصل الحياة على أساس «ذرِّي» بحت، ومن هذا التفسير انطلقت «المادية الجدلية» كوجهة نظر جديدة في تفسير الكون وأصل الحياة وَوَصَفَ (لينين) «المادة» بأنها «الحقيقةُ الموضوعية الموجودة بصورة مستقلة عن الوعي والمعطاة للإنسان في حواسه»، وقد أضفت هذه النظرية على «المادة» كل صفات الخلق والإبداع فأعطتها خصيصة الآلية الأبدية أي «لا محدودية الزمان».

وبما أن تطور العلم ووسائل الكشف قد وسع الحدود المكانية للعالم وعمق أبعاد تصوراته وكشف عن تنوع أشكال المادة (الكتلة الميكانيكية الثابتة ـ الحقل الكهرطكسي) فقد أعطت النظرية المادة خصيصة «لا محدودية المكان».. وبالجملة فقد أصبحت «المادة» تلسكوباً عصرياً تنطر منه الحركة الماركسية إلى كل معطيات العلم وتلخص به رأيها في أصل الحياة.. والحق، فلسنا في هذا المكان بصدد تتبع هذه الناحية علي سبيل الاستقصاء.. لكننا نشير فقط إلى أصل «أيديلوجي» من أصول النظرية، لم يكن بوسعنا أن نتخطاه.

وفي الحق كذلك أنَّ ردَّنا على بعض نواحي النظرية لا يعني ـ كذلك ـ استقصاء لكل ظواهر السقوط في النظرية ـ فلهذا وذاك مكان آخر خاص بإذن الله ـ وإنما نحاول هنا فقط أن نشير إلى بعض الأبجديات و«المسلمات» التي سقطت فيها النظرية، أو تناقضت فيها مع نفسها.

عرض علمي:

لقد ثبت في غضون السنوات الأولى للقرن العشرين أن كتلة الألكترون تتغير تبعاً لسرعة الحركة نفسها. ولقد بطل بهذا ذلك الأساس الذي اعتمدت عليه النظرية المادية، وهو الأساس القائم علي ربط مفهوم المادة بثبات الكتلة، وأدى ذلك أيضا إلي عدم الثقة في «المادة» نفسها كأصل جازم وكليٍّ للحياة.. فإن عدم ثبات الكتلة يؤدي إلى تلاشي المادة نفسها، وبالرغم من أن (لينين) قد ردّ على هذا الاعتراض، وأكد أن المادة لا تتلاشى وإنما يتلاشى ـ كما قال ـ الحدُّ الذي تقف عنده معلوماتنا عنها. إلا أن لينين بهذا الرد ـ نفسه ـ قد تورط في أسلوب غير علمي إذ سمح لنفسه

بالحكم على «المادة» في حالة عدم وجودها في الوعي البشرّي، والعلم إنما يحكم على الظواهر التى يلمسها أو التي يمكن أن يخضعها لمقياس واضح ملموس ـ من وجهة نظر الماركسية ـ!!

وبالنظر إلى تعريف لينين للمادة الذي أوردناه سابقاً، يتبيّن أننا لم نظلم لينين حين حكمنا بتناقضه مع نفسه ومع المنهاج العلمي الذي يريد أن ينتسب إليه، ولكن: هذه الحركة التي تقوم بها المادة والتي تسير بها دورةُ الزمان منذ بَدْء الخليقة منّ أيْنَ ينبعُ مصدرها؟

إن التفسير المادي ينسجم مع نفسه إذ يعلن: أن جميع الأشياء المادية تتضمن في ذاتها أضداداً، حتي الحركة الميكانيكية البسيطة لا يمكنُ تصورها بدون أضداد أي: بدون فعل ورد فعل، وجذب ودفع، ونواة مشحونة شحنة موجبة، وغّلاف الكتروني مشحون شحنة سالبة. . وبالتالي فنواة الذرة تشكل وحدة جُسَيْمَات متاضدة، واصطدام هذه العناصر المتضادة، وتصارعها هو مصدر الحركة الموجودة في الكون، وإذن فالزعم «بالفرضية الإلهية» زعم باطل، وهو حجةٌ ضعيفةٌ يلجأ إليها ضعاف العلماء، بل غير العلماء أصلاً كما يقولُ المذهب الماركسي، والمادة بهذا الشكل بينما هي النواة الأولى للحياة هي ـ كذلك ـ (الحركة الذاتية الداخلية) لسير التاريخ الطبيعي، ولا مجال لافتراض حقيقة أُخرى كالإله مثلاً.

ومرة أخرى نعود لنَلْفتَ النظرَ إلى شيء نراه مهماً وأساسياً، فإن النظرية الماركسية نفسها لا تنكر القَولَ بوجود قوانين كوّنية، وبأن قوانين الصدفة لا مكان لها في حركة الكون، فإن مصطلح «الدياليكتيك»، ذلك المصطلح الذي كان يَعني فن الجدل والمناظرة أصبح يُستعمل في ظل الماركسية كعلامة علي الصلة العامة بين الظواهر ونظم تطور العالم. . ومنذ ظهر العالم السويدي «كارل ليف» في أواسط القرن الثامن عشرَ وأثبت أن هناك انتظاماً مُعيناً يَلازم تنوع الطبيعة الحيّة، ثم تبع ذلك فيضٌ من القوانين التي اكتشفها العلم «قانون نيوتن، قانون بويل، ماريوت، قانون الجاذبية العالمية، قانون الكهرباء، قانون انعكَاسَ الضوء، قانون أفوغارود، قانون مندليف الدوري. . إلخ».

منذ هذه الإضافات الممتازة في حقل العلم، والعقل البشري ـ والماركسية كذلك ـ يؤمن بوجود قوانين ثابتة تنظم حركة الكون. . لكنَّ السؤالَ الذي يجب أن يبْرزَ هنا هو: كيف يمكن أن تظهر علي شاشة الكون كل هذه المجموعة من القوانين وكيف يمكن أنَ تطَّردَ هكذا عشوائياً؟

إننا نستطيع أن نؤمن بأن تلك «الوحدة الذرية» الصغيرة التي اكتشفها التلسكوب العصري هي أساسُ مَبْنَى الأمم المتحدة، وأساس كل التنظيمات العلمية الموجودة بداخله.

لكننا لا نستطيع أن نصدق أن ذلك الإبداع كله يمكنُ أن تحكمَه باطّراد قوانين تظهر هكذا عشوائياً لاسيَّما أن ذلك الاطّراد يستلزم بقاءً ثابتاً لمجموعة العناصرَ المتضادة الموجودة في كلَ جزئيات المبنى العظيم، ويستطيع الإنسان أن يتأكد من وجود مؤثرات خارجية تدخلت في اطّراد القوانين كما أن هذه المؤثرات تدخلت ـ كذلك ـ في صنع القوانين نفسها، ولم يكن دور الإنسان في الحقيقة إلا فهم هذه القوانين واستغلالها. . لكن الشأن في هذه القوانين لازال يحتاج إلي إيضاح: هل كل ما يمكن أن يقالَ عن الكون يَقِفُ عند حد هذه المجموعة من القوانين التي تَمَّ اكتشافَها؟

وهل الفهم الماركسي المستخلص من هذه القوانين العلمية هو الوصف الكامل والحكم الأخير على كل أبعاد قضية الكون؟

وهل هذه القوانين قد أصبحت من كل الوجوه وبنسبة المائة في المائة صحيحة ومطردة؟

إن الماركسية إذ تؤمن بهذا تحكم على الفكر البشري والتطور البشري الذي تَزْعُمُ أنها حارستُه بالموت الأبدي.

وليس من حقّ وجهة نظر ـ بشريّة ـ أن تُعْطِيَ نفسَها حقَّ الكلمة الأخيرة، لاسيَّمَا فيما يتعلق بالحكم علىَّ الكون الذي لم تَتوازن مع اتساعه معطياتُ العقلِ البشري، وبينما ـ في الحقيقة ـ ذهبت الماركسية باسم «الدياليكتيك» تُحَذِّرُ من تَحَجرٍ الفكر، ومن الجمود العقائدي وقعت هي فيما حَذَّرَتْ منه. . ومع أنني لَستُ مناهضاً

للماركسية في إيمانها بوجود قوانين شبه ثابتة وأعتقدُ أنها في هذه النقطة بالذات أقرب إلى التصور الإسلامي، إلا أنني أعتقد أن التصور اللاإسلامي أكثر شمولاً وواقعية؛ إذ يؤمن بوجود جوانب نسبية في معارفنا عن العالم. . أي يجمع بين القوانين الموجودة فعلاً وبين معارفنا التي تظل ـ دائماً ـ قابلة للنمو والتجدد، فمع أن قوانين نيوتن احتلتْ مكانةً مهمةً في الفكر البشري إلا أنه قد تَبَيَّنَ أن تلك القوانين لا تمثل إلا حالةً جزئية من قوانين أعمّ أكتشفها «البرت اينشتاين» فيما بعد. . .

فالجمع في التصور الإسلامي بين القوانين والنسبية هو التصور الصحيح ـ في رأينا ـ لحركة الكون وهو فتح دائم لنافذة العقل البشري علي شاشة الكون وأما تحجر النظرية الماركسية عند مجموعة قوانين ورفضها للمذهب النسبي جملة فلقد أثبتت الممارسة بطلان هذا التصور وعدم مُلاءَمَته للواقع. .

ولابد هنا من الإشارة في تحليل أصل الحياة وحركة الكون إلى الرفض الماركسى المطلق لفكرة «الإله»، والماركسيون في رفضهم للإله إنما ينطلقون في الحقيقة من بؤرة الاعتماد الكلى على معطيات العلم، ومادامتْ مناهجُ البحث العلمي والإكتشافات العلمية المذهلة التي تأخذ بيدنا إلي اكتشاف الإله والتأكد الحسي من وجوده مثلما تمكنت من كشف «الجراثيم» مثلاً على يد «الوفن هوك» «وباستور» «وكوخ» خلال القرنين الثامنَ عشرَ والتاسعَ عشرَ، فإن الفكر الماركسي يرفض بالتالي فكرة «الإله»، ويرفض القول بوجودها البتَّه. . . «لقد بدأ الإنسان يغزو الفضاء الكوني، وهو يتغلغل في أسرار عالم الصغيرات، ولكنه لم يَجدْ في أيّ مكان منهما أيةَ آثارٍ لنشاط العقل الكلي، وإنما تفسر جميع الظواهر بأسبابٍ طبيعية».

. . وإني أُومن هنا مخلصاً فى مجال دراسة الرأى الماركسي في أصل الحياة وتطور الكون بأن هذا الرأي لا يعدو أن يكون تكراراً لذلك الرأي الذى ذهبت إليه جماعة الثورة على الأوضاع الكَنَسيّة المظلمة في فرنسا خلال القرنين السابعَ عشرَ والثامن عشرَ. . . لقد ارتبط في الَذَهن الثوري أن القول «بالإله» يعني تحطيم كلّ مناهج البحث العلمي، والحق لقد كانتْ الكنيسةُ سَبَبَ هذا الخلاف الحادَّ الذي وقع

بين المادة والروح بسبب منهجها وسلوكها السخيف، ولم يكن «ماركس» و«لينين» إلا تلميذين «للدائرة المعارف العامة» التي وضعها في النصف الأول من القرن الثامن عشر المفكرون الثوريون «فولتير» و «ريلامبير» و «بوفون» و«درو» وغيرهم.. والتي بُنِيَتْ على أساس إنكار وجود الله باعتبار «الله» عقبةً أمامَ المنهج العلمي، أو باعتَبار وجوده نفسه «لا يخضع للمنهج العلمي»، والفكر الماركسي لا يَفْتَأ يُرددُ في كبرياء ذلك الحوارَ الذي دار بين نابليون والعالم الفلكي «لاباس» والذي سألَ نابليون فيه «لاباس» عن سبب عدم وُرُود ذكر «الله» في مؤلفاته.. فأجابه العالم الفلكي باعتزاز «إنه في بحوثه لا يحتاجَ إلى هذه الفرضية».

ومن هنا فالماركسيون ـ كَعلْميِّين ـ لا يحتاجون إلى هذه الفرضيّة، ويعتبرون اللجوءَ إليها نوعاً من القصور العَلْمي، ومرة أخرى يلزم أن أشير بصدد هذه الفكرة إلى عدة حقائق محايدة وضرورية:

فأما الحقيقة الأولى فإنّ المنهج الماركسي كما لم يستطع أن يثبت وجود الإله، بوسائله العلمية الحسية، فإنه ـ كذلك ـ لم يستطعْ أن يَوَضّح لنا القوى الأخرى الداخلية المُوْجدة للعالم، والمحركة له في رأيه، ولقد وصل مع (المادة) إلى نصف الشوط، وعجز عن أن يجعل تَنَاقُضَاتها الداخلية تقف على قدميها كخالقة ومخلوقة في الوقتِ نفسه كي تغنينا عن فرضية لإله!!

وأما الحقيقة الثانية فإن المنهاج الماركسي قد أطلق لنفسه العنان يحاول أن يفرض قوانينه على «الله» ـ سبحانه ـ في التصور الإسلامي وفي حقيقته فوقَ دائرة هذه القوانين، إنه هو صانعها..

والحقيقة الثالثة في هذا الصدد والتي يجب أن تكون معروفة بالنسبة للتصور الإسلامي أن هناك فَرْقاً كبيراً جداً بين البحث في المجال «الفيزيقى» ـ أى الطبيعى ـ والبحث في المجال «الميتافيزيقى» ـ أى ما وراء الطبيعة ـ فلكلَ مجال منهجهُ الخاص به، والخلط بين المنهجين عملٌ خارجُ نطاق العلم نفسه، وفيما يتصلُ بالمجال المادي الذي انطلقت منه النظرية الماركسية متجاهلَة عوامل كَثيرة غير مادية، وواقعية، ولا يمكن إنكارها إلى الآن، كما أنه لا يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً..

أقول: إنه بالنسبة لهذا المجال فإن المنهج الإسلامي يُؤْمنَ إيماناً كاملاً بوجوب استخلاص القوانين واكتشاف الظواهر انطلاقاً من ذات عناصر الكون.

والحقيقة الرابعة، وهي تابعة للحقيقة السابقة ـ هي أن عمليةَ الإثبات للإله في التصور الإسلامي تعتمد على استخلاص الحقائق الكونية العُظْمَى، كما تعتمد في الوقت ذاته على الفكر التجريدى الذي يَتَخَطّى دور الحواس المحدودة، والماركسيةُ نفسُها سلَّمتْ بوجوب هذا التجريد، باعتباره ضرورة في عملية المعرفة، وإن تخبطت في تطبيقه وجعلتْهُ قاصراً ومحدوداً.

إننا ندع المجال هنا لأكبر عالم ماديّ في العصر الحديث «ألبرت أينشاتين» ليُوَضِّحَ لنا المنهجَ المناسبَ في تصور الذات الإلهية . . إنه يقول:

«إن الشوق إلى المعرفة والمحبة والرشاد يَخلقُ في نفس الإنسان صورةً رائعةً للذات المقدسة، يتجلى فيها القانونُ الخُلقى والمبدأ الاجتماعي للإنسان، فإن بعض الأشخاص الممتازين في الشعوب التي بلغت مراتب عالية يرتقون بأفكارهم إلي درجة الشعور «الكوني الديني»، وليس بالعسير تفسير ذلك لمن لا يشعر به لأنه لا ينطوي على تشبيه مادّى للذات الإلهية، ولا يشمل صورة للخالق ـ سبحانه ـ، وإنما علامة هذا الشعور إدراك أربعة أشياء:

١- بطلان الرغبات الزائلة والأغراض الإنسانية المتنوعة.

٢- جلال النظام المدهش الذي يتجلى في عالمي الطبيعة والفكر.

٣- أن مصير الإنسان مقيد بهذا النظام الكوني العجيب.

٤- اعتبار هذا الوجود الكوني وحدة مُشْبَعَة بأسمى المعاني.

إن هذا الذي ذكرناه ليؤكد لنا تصورَ النظرية الماركسية، وعجزَها، وجزئيتَها، ومحدوديتَها المادية الحسية، التي لا تسمح بتفسير أصل الحياة، ولقد تكشَّف الوجهُ الحقيقي «الاستعماري» للإتحاد السوفيتي «رائدَ النظرية الأول» ـ وبالتالى ـ وفي ظل الخطأ الماركسي المزودج، أي: على مستوى «النظرية» و«التطبيق» يتضح بجلاء لكل ذى عقل أن الماركسية «المادية الجدلية» كانت في أسسها «الأيدولوجية» إنحرافاً عقلياً

وخلقياً من جملة الإنحرافات التي ظهرت في التاريخ، وقد أكدت مسيرتُها المتخبطة ـ على مستوى التطبيق ـ ما حملتْه أسس النظرية من سمات التناقض والجزئية والقصور.

التفسير المادى للتاريخ:

من جملة الأخطاء التي وقع فيها العقل العربي في مواجهته للمادية هو تذبذبُه في حركة ردّ فعل بينَ طرفي البندول.. أى اتجاه إلي التفسير الرأسمالي في مواجهة التفسير الماركسى.. وسقوط آخرين ـ في المقابل ـ إلى تَبَنِّى التفسير اليساري في مقابل التفسير اليمينى.. أو الرأسمالى ـ والحقيقة أن الرأسمالية والماركسية ليستا طريقَ الإنسان وليستا ـ بالتالي شركتين احتكاريتين تتقاسمان أطراف الحقيقة.

بل الحقيقة التي يؤيدُها الواقع أنهما ـ معاً ـ كانا السبب في ضياع الحقيقة.. وفي تضليل خطوات الإنسان.. وتعميق تاريخه المنحرف البعيد عن هداية الله!!

وبصرف النظر عن أن هذا «التقاسم الدعائى» للحقيقة الذي يُشْبِهُ أن يكونَ تَوَاطُؤاً من أصحاب النظريتين، أو هو بالفعل شبه اتفاق على دَحض الفكر الإسلامي، وتقسيم العالم عقائدياً بينهَما...

بصرف النظر عن هذا.. فإننا لابدَّ لنا من انطلاقة ذاتية وموضوعية، كي نستطيع تقويم التفسير المادي للتاريخ.. ووضع هذا التفسير في مكانه الصحيح من الحقيقة التاريخية وقوانين حركة التاريخ!!

وفي البداية نسأل: أين مكان التصور الماركسى لحركة التاريخ من الحقيقة؟، وهل يصلح هذا التصور أساساً من أسس (أيديولوجية) صحيحة قادرة علي قيادة لناس قيادة صحيحة نحو التطور التاريخى المنشود؟

إذن وبالضرورة دعونا نشرح وجهة النظر المادية من خلال مصادرها الرئيسية المُعْتَمَدَة.

إنهم يقولون إن العملَ كان وسيظل شرطاً أزلياً وطبيعياً للحياة البشرية، ويقولون إن وسائل الإنتاج ونشاط الناس العملي يشكلان معاً ركناً مهماً من أركان

التطور البشرى، ويشكلان كذلك دليلاً حياً على مستوى الحياة البشرية.

وبديهى أن وسائلَ الإنتاج أو ما يُسَمَّى بمنظومة علاقات الإنتاج هى أكبر مقياس يدل على مستوى الحياة البشرية، وهي تُوَضِّح الفرقَ بجلاء بَيْن عصرَ استخدام الهراوة والفأس والرمح وعصر استخدام الطاقة الكهربائية والذّرية.

ويقول ـ أيضاً ـ إن تاريخَ المجتمع ليس إلا تاريخَ تطور وتَبدُّل للتشكيلات الاجتماعية والاقتصادية، وتجري هذه العملية حسب قوانين موضوعية غير متوقفة على وَعْي الناس وإرادتهم، وتتجلى هذه الضرورة في تطور الإنتاج الذي يحدث بسبب اختمار حاجات مَادية تحفز الناس إلى العمل فى اتجاه معين!!

وهنا لابد أن نشير من جديد إلى أن الماركسية تعتمد على بعض المسلّمات، ثم تتدرج منها ببطء إلى زرع بعض المفاهيم الخاطئة تعطيها صفة المسلّمات، ولئن كنت مُضْطَرّاً لعبور المسلّمتين الأوليتين، فإنني أقف أمام التحليل الأخير وقفةً قصيرة..

إننا نؤمن انطلاقاً من وعينا بديننا بأن هناك رباطاً قوياً بين التطور الطبيعي والتطور البشري، ونؤمن في الوقت نفسه بأن الحرية لا تُنافَى الضرورة لكن الضرورة ـ عندنا ـ هي الضرورة الطبيعية النابعة من مجموعة قوانين الكون، وفي تصورنا أن ما يُسمى بالضرورة التاريخية، أي: ضرورة انسياق جماعات بشرية وفق احتياجات مادية معينة.. هذه الضرورة ـ مع التجاوز في التعبير ـ هي مجموعٌ مشترك لوعي الناس وإرادتهم قبل أن تكون مجموعَ الحاجات المادية والوجود الطَبَقى!!

إن الحاجات المادية التى يقوم عليها وجود الإنسان هى، حاجات قليلة جداً، وفي إطار هذه الحاجات يمكن التسليم بدور كبير للمادة مع ضرورة اشتراك الوعي البشري في هذا الدور.. أما مراحل تطور التاريخ البشري ـ كتاريخ إنساني ـ بعيدٌ عن مرحلة البدائية، أعني: مرحلة الوجود الإنساني المتحضر..

هذه المرحلة كانت ـ وستَبْقى مرحلةَ (الوعي البشري) في المكان الأول ـ بعيداً عن تحكمات الطبقة الاجتماعية أو تأثير الطعام واللباس.. إن مئات القرون قد مرتْ

على اكتشاف الإنسان لوسائل النقل البدائية. . وفي خلال هذه القرون لم يكن الإنسان يُحسّ بضرورة استعمال الفَضَاء كوسيلة نقل، فهل يمكن القول بأن استعمال الإنسان للفضاء هو نتاج الحافز المادي؟ أم هو أولاً من نتاج الوعي البشري!! ثم يمكنُ أن يكون قد تطورَ نتاجُ الوعي البشري هذا حتى أصبح حاجة مادية مُلحةً. .!!

إن مجموعة الابتكارات العظيمة الموجودة الآن في سوق الحضارة الحديثة هي من حصاد الفكر والوعي البشري، ولَرُبَمَّا لو لم توجدْ الآن على يد هؤلاء العباقرة لما أحسَّ الإنسان بضروراتها، ولسار في تنظيم حياته بعيداً عن التفكير فيها. .

إن الفلاح العربي قد لا تظهر علي شاشة عقله ربما طول حياته عملية ركوب الطائرة، وربما يظنها بلاءً على البشرية قبل أن تكون خادماً حيوياً للحضارة. .!!

ونستطيع أن نقول ذلك في المذياع واللاسلكي والصواريخ والذرة. . إلي آخره. . لقد كانت أمريكا تعجّ باضطهاد العبيد، ولقد كانت ظاهرة «الأقنان» مؤرقة للضمير الإنساني ـ هذا حق، لكن العبيد ظلوا عبيداً قانعين بهذه العبودية حتي جاء «إبراهام لنكولن». . ويمكن أن يسألُ المرءُ نفسَه، هل كان لنكولن عبداً؟ هل توافَّر الحافز المادي المطلوب لدى لنكولن أكثر من العبيد أنفسهم؟ علماً بأن كثيراً من العبيد كانوا يقاتلون «لنكولن» نفسَه محررَهم فما هي الحقيقة إذن؟!.

إن الحقيقة هي أن «النكولن» قد تعمَّق لديه الوعى البشري والإنساني أكثر من العبيد أنفسهم، وبوساطة هذا الوعي فجرَّ لنكولن مشكلة تحرر العبيد في أمريكا، ودفع حياته ثمناً لشيء لم يتوفر لديه الحافز المادي للقيام به!!

وكان لوثر أستاذاً بكلية اللاهوت يملك إمكانية الحياة الطيبة لو أنه سايرَ الكنيسة، وسار في قافلة الصمت والبحث عن الذات، وكان الناس في أوربا يكادون يستسلمون للسلطان الكهنوتي، لكن الأستاذ بكلية اللاهوت (لوثر) هو الذي رفع رايةْ العصيان ضد طغيان الكنيسة التي هو أحد أساتذتها، وتستطيع أن تجد نفس الظاهرة متوفرة في شخص «الكونت ميرابوا» ذلك النبيل الذي كان مدافعاً عظيماً عن حقوق الطبقة الثالثة خلال الثورة الفَرَنسية، ويشترك معه «الأب سييس»

رجل الدين البورجوازي في نفس الإيمان بحقوق الطبقة الثالثة (تولستوي وبالونين وماركس نفسه)، وبعيداً عن الاستطراد فإن بإمكان المرء أن يستعرض معظم مراحل الانتقال في التاريخ البشرى؛ ليلمسَ أن وراء هذه المراحل رجالاً حركهم «الوعيَ» و«الفكرةَ» والشعورَ الإنسانيَّ قبل أن تُحَرِكَهُم الحوافز «المادية» و «الطبقية» ومستواهم الاجتماعي. . !!

إن التطور البشري في الحقيقة تدفعه حاجتان ملحتان هما عُنصر الفطرة المحققة للكيان الإنسانى، وإن أيَّ هاتين الحاجتين هو تمزيق للكيان الإنساني الذي لا يقبل التمزق. . . إن هاتين الحاجتين الملحتين هما: الباعثُ الأخلاقي» (الإنساني)«والباعث المادي». . والإنسان في سيره الحثيث التاريخيّ يَسْعَى دائماً نحوَ المثل الأعلىّ في هذين الأمرين والوصول إلى الرفاهية بينهما. . وليلاحظ أن هذين الباعثين يسيران معاً، ويكمل كلُ منهما الآخر، وتَختلُ كفة الحضارة البشرية حين يطغى جانب علي جانب.

ومن الحق فإن عدم الوعي بهذه الحقيقة الإنسانية والحضارية هو سبب القصور في التفسير الماركسي لحركة التاريخ!! وبقدر ما تندفع الحاجات «البيولوجية» باحثةً عن الإشباع في الكيان الإنساني، فإن الحاجات الإنسانية المحققة لإنسانية الإنسان تندفع ـ كذلك ـ باحثة عن الإشباع، وطلب حقها العادل في الوجود والعمل.

إننى أدعو ـ نظراً لضرورة الإيجاز هنا ـ كلَّ المفكرين العرب والإسلاميين إلى تشريح التاريخ، وفقاً لهذه المعادلة، تشريحاً كلياً لاسيَمًا ظواهر المد والجرز في الحضارات، وإنني لعلى يقين بأن الباعثَ الإنسانيَ والباعثَ المادى ومدى توافرهما، وحدود العلاقة بينهما، سوف يحلان لنا كثيراً من مشاكل التاريخ، ويقدمان لنا حيثيات كافية لأسباب المد والجزر. . وليكن في حسابنا ونحن نسير في شارع التاريخ بهذا المصباح أن نبحثَ عن الإنسان الفرد وعن الإنسان المجتمع، ولنبحث ـ كذلك ـ عن تَوَفّرِ هذه المعادلة في داخل الإنسان كفرد وفي داخل البناء الاجتماعي ككل.

. . لقد طالما سألتُ نفسي عن تفسير مادي لحركات الإيثار الأخلاقي الكبري

التي ظهرت في التاريخ علي يد أفراد عظام، بل وجماعات عظيمة اعتنقت مبدأ الإيثار والارتفاع عن الخضوع الكامل «للحافز المادي». . ومع أن المجتمع الغربي يَعجُّ الآنَ بالرفاهية المادية الضخمة، لكننا نَلْمسُ بعضَ ظواهر العزوف بل المللَ والاختناقَ والانتحارَ الكثيرَ مع وجود الحوافز المادية الباعثة علي السير في طريق المادية المطلقة. . !!

ألا يمكن أن يكمنَ وراءَ هذه الظواهر فقرٌ أخلاقيٌّ لم يستطعْ التلاؤم مع الثراء المادي الكبير؟

لنحلل مذاهب العبث، ولنحلل مذاهب الضياع الكثيرة. . . ولسوف نكتشف من خلفها نقصاً في الجانب الروحي من الإنسان!!

والأمر كذلك في الفقر الأخلاقي والخيالي والروحي الذي يصيب الحضارات ويسبب تدهورها وسقوطها في التاريخ!!

إننا مُلْزمون أمامَ الحقيقة بمخالفة التفسير الماركسي للتاريخ في إعطائه المادةَ والاقتصادَ هذا الدور. . وبمخالفته كذلك في إنكاره لكل الأشواق العليا والخصائص الرُّوحية الإنسانية، وبمخالَفته في فهمه لحقيقة الإنسان نفسه كفرد، ولحَقيقَةَ الموكب البشري الزاحف نَحْوَ مثلٍ أعلَى يتفق مع فطرته الإنسانية العَالية.

وهذه النواحي التي نختلف فيها معه هي التي تُعطى للتصور الإسلامي أصالتَهُ وخلودَهُ، وتجعل سقوط التفسير المادي الجزئي القاصر للتاريخ أمراً طبيعياً وحتمياً.

رابعاً: الوثنيات والمذاهب الفوضوية

تَجتَاحُ عالمَ اليوم وثنياتٌ متعددة، ومذاهبُ فوضوية، انتشرت بتأثير الصراع المدمّر بين أصَحاب المللَ الكتابية، وظهور المادية الجدلية، والتيار المادي بعامة.

وتكاد هذه الوثنياتُ والمذاهبُ الفوضوية أنْ تكونَ سمةَ العصر، فلم يَعُدْ الدينُ يحتلُّ مكاناً لائقاً به في التوجيه الحضاري، وإنما أصبح ـ على أحسن الفروض ـ جانباً شخصياً، لا عَلاقةَ له بالتأثير العام في تيارات الفكر والسلوك الاجتماعي والحضاري.

والوثنيات قديمة، نشأتْ من انحرافات «طوطمية» في التصور، بالغت في التقديس حتى وصلتْ إلى تأليه الأشياء والأشخاص، وقد ساعد عليها ضعف تأثير الأديان قَبْلَ الإسلام في بعض المراحل التاريخية، عندما تُوشك ملةُ أن تُسلّمَ الرايةَ لغيرها...

وربما كان للانحراف الذى طرأ على بعض الأديان تأثير في ذلك، ولا غرابة في ذلك، فإن ابن حزم الأندلسي (منشئ علم مقارنة الأديان) قد ربط في دراسته بين اليهود وبعض فرق النصرانية وبين أكثر النحَل الوثنية، وحجته في ذلك أن كلاً من هذه الأديان وتلك الوثنيات مقرٌّ ببعض الأنبياء منكر لبعضهم الآخر؛ إذ لا فرق بين أهل الكتاب المكذّبين بنبوة محَمد، وبين «الزراد شتين» المكذبين بنبوة موسى وسائر الأنبياء، وبين «المانوية» المصدقة بنبوة «عيسى» و «زرادشت»[1] المكذبين بنبوة إبراهيم وأولاده، المُصَدَّقين بنبوة إدريس وغيره[2].

وأشهر الوثنيات التي عرفت في التاريخ هي «المجوسية»، وهي تنقسم إلي ثلاث فرق أساسية: الزرادشتية، والمزدكية القائلين بالشيوعية في المال والنساء، والخُرَّمية أصحاب بابك الخُرَّمي.

---

(١) ليس هناك دليل أكيد علي نبوة زرادشت، لكن ابن حزم ينقل وجهة نظر الرزادشتيين، لكن هذا لا يعني موافقتهم علي هذا الرأى.

(٢) انظر الفصل ١/ ١٠٢.

ويَعْتَبِرُ بعضُ علماء الكلام المجوسَ من أهل الكتاب، على أساس أن لهم شبهة كتاب، يعترف المجوس أنفسهم بأن ثُلُثَيه قد ضاع بالإحراق على يد الإسكندر الأكبر(١) .

ومع الخلاف بين مذاهب المجوسية فإن أسسها المشتركة هي الإيمان بالتالى :

١- أورمَن (وهو الباري فاعلُ الخير عندهم).

٢- هُرمن (وهو إبليس فاعل الشر).

٣- كام (الزمان).

٤- حام (المكان والخلاء).

٥- توم (الجوهر والهيولى).

وهم يقدسون هذه الخمسة، ويعظمون إلي جانبها الأنوار والنيران والمياه، ويُقِرُّون بنبوةٌ زرادشت».

أما الصابئون فهم يختلفون عن المجوس، فهم وإن قالوا بقدَم الأصليين: النور والظلمة مثلهما، إلا أنهم يقولون: بتعظيم الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر، ويصورونها في هياكلهم، ويقربون الذبائحَ والدخان، ولهم صلواتَ خمسُ في اليوم والليلة(٢) .

وعلى نحو هؤلاء تفعل «البددة» بالهند في تصويرها على أسماء الكواكب والدقاقرة في إفريقيا، حتي آلَ الأمرُ إلى عبادتهم للكواكب مع طول الزمان(٣) .

وأما فرق المنانية والديصانية والمزقونية فتجمع كلها على الإيمان بأن العالم هو مدبر أمر نفسه، وتؤمن بأزلية الطبائع، وبامتزاجها الذى حدث بامتزاجه حدوث العالم(٤) .

---

(١) انظر الفصل ١/ ١١٥ .

(٢) الفصل ١/ ٣٤ وصاعد طبقات الأمم ١٥ .

(٣) الفصل ١/ ٣٥.

(٤) المكان السابق.

وتأتي فرقة البراهمة في جملة هذه الفرق الوثنية، وتتميز بأنها تنكر النبوات ويرى بعض المعاصرين أن ذلك ليس من آرائهم[١]، ولعلّ تطوراً حدث في عقائدهم، وهم يقولون بنوعٍ مخلوطٍ من التوحيد، كما يقولون بتناسخ الأرواح.

إننا لم نعرض لهذه الأفكار التي ظهرت في قارة آسيا بعامة، وفي إيران والصين والهند بخاصة، خلال فترة الجاهلية العالمية التي سادت الأرض قبل الإسلام؛ إلا لنقارن بين هذه الفوضى العَقَديّة الوثنية القديمة وبين الفوضى العَقَدية المعاصرة، التي نعتبرها امتداداً للفوضى القديمَة.

وحتى الفوضى الخلقية المنتشرة في الحضارة المادية المعاصرة هي في رأينا امتداد لفوضى أخلاقية قديمة ليست ثوباً عَقَدياً . .

إن المزدكية التي أشرنا سلفاً إليها، والتي ظهر رائدها (مزدك) خلال النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي قد حرصت علي الدعوة إلى (الشيوعية) في المال والنساء، وهي لا تزيد عن النزعة الشيوعية السائدة في عالم اليوم، سواء في مستواها الاقتصادي في الشرق الاشتراكي، أو في مستواها الجنسي في الغرب الديمقراطي.

قال الشهرستاني عن (مزدك): «لقد أحلَّ النساءَ وأباحَ الأموالَ وجَعَلَ الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ. وقد حَظِيَتْ دعوة (مزدك) بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين، وصادفت من قلوبهم هوىً، وسَعَدتْ كذلك بحماية البلاط، فأخذ قباذ يناصرها، ونشط في نشرها وتأييدها؛ حتي انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات وقد انتهزَ السفلةُ الفرصة، فكانوا يدخلون علي الرجل بيته، فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ولا يستطيع الامتناع عنهم[٢].

ونقول إنه في العصر الحديث لازالت تعيش هذه العقائد، وإن تطورت في

---

(١) د/ عمار الطالبى، آراء أبى بكر بن العربي الكلامية، ١ : ٢٧٩ هامش.

(٢) نقلاً عن أبي الحسن الندوي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، ص٤٩ الطبعة العاشرة.

بعض تعاليمها، وحاولت أن تتفق مع بعض صور الرقيّ العقليّ الذي ساد عالمَ اليوم.

لكن هذه العقائد لازلت منتشرة في الهند والصين وفي كثير من دول إفريقيا وآسيا، وإن تخلصت ـ كما ذكرنا ـ من بعض التعاليم البالغة السوء فيها.

وعلي سبيل المثال، فقد كانت العادة في بعض مذاهب الهندوسية أن تحرق زوجة الرجل بعد وفاته وإحراقه، حتى منع الإنجليز في الهند هذه العادة بقوة القانون الحاكم.

ولكنَه كثيراً من العبادات والطُّقوس البالغة السوء لازالت منتشرة، وتمثل تحدياً صارخاً للعقل الإنساني، كما تمثل جانباً من جوانب الصراع مع الثقافة الإسلامية التي يقودها مسلمو شبه القارة الهندية، وتنعكس نتائجُها على الثقافة الإسلامية بصفة عامة.

فلازالتْ تنتشر في الهند عبادة البقر، والتبرك بروثها وبولها، وتركها تعتدى علي المحلات والمأكولات في شوارع الهند العامة واعتبار هذا الاعتداءَ بركةً وفألَ خير.

ولازال حرقُ الميْت بخشب مقدس قائماً.

ولازالتْ عبادةُ الرجال للعضو التناسلى للمرأة قائماً، والعكسُ موجودٌ كذلك.

وما هو عبادة في الشرق الآسيويّ ـ هو «سلوك شخصي» أو فلسفة حياتية وجودية في الغرب الأوربي.. ولا فرق، فالنتيجة واحدة.

ولا يستطيعُ إنسانٌ أن يحصرَ صُورَ الفوضى العَقَدية والأخْلاقّية التي تجتاح الحياة الأوربية التي أصبحتْ أبعدَ ما تكونُ عن «التَّدَيْن» عقيدةً وسلوكاً، بحيث أصبحَ تأثيرُ الدين شبهَ معدوم.

ويصور الأوربي المهتدي إلي الإسلام «محمد أسد» هذه الحقيقة ـ فيقول:

«إن الرجل العادي في أوربا، دمقراصياً كان أو فاشياً، رأسمالياً أو اشتراكياً، عاملاً باليد أو رجلاً فكرياً ـ إنما يعرف ديناً واحداً، وهو عبادة الرقي المادي، والاعتقاد بأنه لا غايةَ في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل وبالتعبير الدارج «حرة مطلقة» من قيود الطبيعة، أما كنائس هذا الدين فهي المصانع الضخمة، ودور السينما، والمختبرات الكيماوية، ودور الرقص، ومراكز توليد الكهرباء، وأما كهنتها فهم رؤساء الصيارف والمهندسون، والممثلات وكواكب السينما، وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون، والمبرزون الذين يضربون رقماً قياسياً، ونتيجة هذه النهامة للقوة، والشره للذة ـ ظهورُ طوائفَ متنافسة مدججة بالسلاح، والاستعداداتُ الحربيةُ مستعدة لإبادة بعضها بعضاً إذا تصادمَت أهواؤها ومصالحها، أما في جانب الحضارة فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة في الفائدة العملية، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادي لا غير»[1] .

ويؤكد هذا المعني أيضاً المصلح العربي «عبد الرحمن الكواكبي»، حين يصف الأوربي، فيقول:

«الأوربي مادي الحياة، قوي النفس، شديد المعاملة حريص على الاستئثار، حريص على الانتقام، كأنه لم يبقَ عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق. . . فالجرماني ـ مثلاً ـ جاف يرى أن العضو الضعيف من البشر يستحق الموت (وهي فلسفة نيتشة)، ويرى كلَّ الفضيلة في القوة، وكل القوة في المال، واللاتيني مطبوع على الطيش والعجب يرى العقل في الانطلاق، والحياة في خلع الحياء، والشرف في الزينة واللباس، والعزَّ في التغلب على الناس»[2] .

إن هذه الوثنيات التي تبدأ من عبادة الكواكب أو النار أو الشجر أو البقر، وتنتهي بعبادة الأعضاء التناسلية والمادة واللذة والأشخاص، وغيرها من صور الوثنية التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى. . .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٤٠.

(٢) طبائع الاستبداد (نقلاً عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، ص ٢٠٤).

إن هذه الوثنيات كلها تحديات يواجهها الإنسان المسلم في العصر الحديث، وهي تحديات لا تمكنه من أن يصوغ حياته، ويبني ثقافته وفق عقيدته وشريعته وأخلاقه، بل إنها لتحاول ـ بشتي الأساليب العصرية ـ أن تُباعدَ بينَه وبينَ دينه عقيدةً وفكراً، وإنها لجَاهدةٌ في أن تصلَ بالإنسان المسلم إلى نقطة الذوبان في محيطها الجارف، والانصهارَ في بوتقتها الخانقة المدمرة.

وعلي الإنسان المسلم أن يختار طريقَه الوحيد.. طريقَ دينه وثقافته الإسلامية، بكل شمولها وانسجامها مع الفطرة، وتحقيقها لإنسانية الإنسان، وللصلة بخالق الكون؛ ومُدبِّره؛ حتى لا يقعَ ضحيةَ الطُرُق الضالة المنحرفة المهلكة!!

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(٢).

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) الصف: ٩.

الفصل الرابع

الإسلام والروابط بين الناس

- الروابط بين الناس فى مفهوم الإسلام.
- من الروابط المنحرفة:
  - العنصرية.
  - القومية.
  - المادية.
- الإسلام هو الرابطة الوحيدة الكريمة.

الإسلام والروابط بين الناس

إذا كـان في الإسـلام من أصل واحـد: ﴿إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ﴾ وعلى مقياسها وحدها يُصَنَّفُ الناسُ ويُقَسَّمُون، فمنهم تقيٌّ ومنهم فاجر، أو بتعبير آخر فمنهم «حزبُ الله ومنهم حزبُ الشيطان». . وكل الروابط أو أساسيات التفاضل الأُخرى روابط زائلة مصطنعة لا تقوم على جذور عقلية وقلبية راسخة ثابتة. ومع هذه الحقيقة البديهية، فقد سارت البشريةُ في طُرُق منحرفة، ابتعدت بها عن منهج الله واصطنعت لنفسها روابطَ زائفة. . أضلت مسيّرتها، وكبَّدتها ألواناً شتى من الحروب والمنازعات.

الإسلام.. رابطة عقيدة ونظام:

يؤكد التاريخ أن كلَّ تجمُّع يقومُ على أساس غير أساس العقيدة هو تجمُّعٌ فاشل مصيره التناحر والسقوط، فلا مستقبلَ للبشرية بغيرِ أخوة رُوحيّة يمنحها الدين[1].

فالحضارة الأوربية يجمعها رباط «المادية» في الشرق والغرب، ولا مكان للقيم العَقَدية والأخلاقية في هذه الحضارة. . ومع هذا الرباط المادى ـ بل بسبب هذا الرباط المادى ـ قامتْ بين أبناء هذه الحضارة أكبرُ الحروب في التاريخ وما الحربانِ العالميتان اللتان كادتْ أوربا تدَمرُ فيهما نفسها عنا ببعيدتين.

والقوميةَ فكرةَ أوربية الأصل راجت أول ما راجت في ألمانيا، وبسبب من رباط القومية الموهوم قامت حروب ومنازعات لم تكسبْ منها البشرية إلا الدمارَ.

وفي أمريكا و روسيا وغيرهما لازالتْ العنصرية تعمل عملها في إفساد المجتمعات دون أن تصل إلى الإخاء الروحي، أو التناصر العاطفي الحقيقي.

إن هذه الروابط ـ التي سنعرضُ لها في شيء من التفصيل فيما بعدُ كروابط منحرفة ـ ليستْ جديدة على مسرح التاريخ، بل هي ظواهرُ قديمة برزتْ في كل

(١) انظر: أبو الحسن الندوى: «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»، ص ١٥٣.

مراحل الانحطاط، وعندما جاء الإسلام وجدها قوية وفَتِيَّة، فالتفاضل الطبقي، وحميَّة الجاهلية، وتقديس بعض الناس، والأسلوب النفعي، وصراع الأجناس. . هذه كلها كانت موجودة قبل ظهور الإسلام سواءٌ في حضارتَيْ الفرس والروم أو في داخل الجزيرة العربية، فكان من أهم أعمال الإسلام الجليلة القضاءُ على هذه الدعاوي الجاهلية، والنظر إليها على أنها فتن يجبُ التخلص منها ووأدها.

وبدلاً من هذه الدعاوي ـ أو الروابط الجاهلية ـ شرع الإسلام الإخاء بين المسلمين جميعاً عرباً وعَجَماً، أغنياءَ وفقراءَ ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وأقام بناء دولته الأولى فى المدينة على أساس من هذا الإخاء.

إنه إخاءُ عقيدة واحدة تعيش في العقول والقلوب.

وهو إخاء منهج واحد أو «نظام واحد» يلتزمه المسلمون جميعاً في حياتهم الواقعية، ولا فاصلَ في التصور الإسلامي، والمنهج الإسلامي، بين ما يعيش في العقول والقلوب، وما يتحرك في واقع الحياة. . إنهما وجهان لعملة واحدة.

ولقد كان لإخاء العقيدة جانبُه الاجتماعي الذي سنتناوله في حديثنا عن مقومات المجتمع الإسلامي. . لكن بقي أن أخوة العقيدة لها جانبُها العام الذي يحدد علاقة الإنسان بالمجتمع الإنساني كلِّه، وبالمجتمع الإسلامي بصفة خاصة.

فالمسلم ـ أينما وُجدَ ـ هو أخٌ للمسلم لا يخذلُه، ولا يُسْلمهُ ولا يَتَقَاعسُ عن نُصرته. . المسلم في السَعودية أو في مصر أو في اليمن، أوَ في الفلبين، أو في انجلترا، أو أمريكا، أو في أندونيسيا. . أو في الهند وباكستان. . أو في روسيا والمجر ويوغوسلافيا. . المسلم فى أىِّ مكان هو أخٌ للمسلم أخوةَّ عقيدة وفكر ومصير، وهدف واحد هو أخوة في العقل والقلب، فهم علي قلب رجل واحد، لهم عدوٌّ واحد يقاومونه هو عدو الإسلام مهما تباينتْ أشكالُه، وتعددتْ ألقابُه. . ولهم هدف واحد يسعون إليه هو إعلاء راية الإسلام، وهم جنسية واحدة مهما اختلفتْ أوطانُهم، إنها ليستْ جنسيةُ الدم واللحم. . بل جنسية العقيدة، والقلب، والمصير، إنها جنسية الإسلام أوثق عروة، وأقوى رابطة.

عندما انتهت معركة بدر بنصر الله للمسلمين كان من بين المشركين الأسرى «أبو عزيز بن عمير» «أخو» «مصعب بن عمير» وَمَرَّ به «مصعب»، وأحد الأنصار يضع القيود في يده فقال مصعبٌ للأنصاري: شد يَدَيْكَ به (أي أحكم قيده) فقال «أبو عزيز» لأخيه «مصعب»: «أهذه وصاتُكَ بأخيك»؟ فقال «مصعب»: «إن الأنصاريَّ هو أخي دونك».

إنها أخوّة العقيدة كما وعاها مصعبُ ـ رضي الله عنه ـ، وكما وعاها المسلمون جميعاً، وليست أخوَّة قومية أو عنصرية أو مادية وقتية نفعية.

إنها أُخوةٌ تَتَجلَّى في سلوك المسلم كلِّه.. في تحيّة الإسلام.. وفي الصلاة والزكاة والصيام.. وفي الدعاء الجماعي[1] باسم المسلمين جميعاً ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2]، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾[3]، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[4].

إنه نداء الأخوة الإسلامية الواحد.. نداء الرابطة العقلية القلبية التي لا تنفصمُ عراها، ولا تقومُ مقامَها رابطةٌ أخرى.

---

(١) مذكرة الثقافة الإسلامية للعام الهجرى ١٣٩٣ للأستاذ عبد الكريم الخطيب، ص ٥٤ - (كلية الشريعة بالرياض)
(٢) الفاتحة: (٥, ٦).
(٣) الحشر: ١٠.
(٤) البقرة: ٢٨٦.

من الروابط المنحرفة

١- العنصرية:

تلبُس الدعوة العنصرية أردية مختلفة، لكن محتواها وأهدافها لا يتغيران.

والنتيجة التي أثبتها تطور التاريخ أن هذه الدعوة العنصرية جرثومة خبيثة تهدم ولا تبني، وتفرق ولا تجمع.

وقد نُكبَ المسلمون كثيراً على يد هذه العنصرية، بل إن المؤرخين يُجمعون على أنها كانت مَن أكبر عوامل هزيمة المسلمين في الأندلس بعد ثمانية قرون، فالصراع بين القيسية واليمنية، ثم بين العرب والبربر، ثم بين ملوك الطوائف. . هذه الصور المتتابعة من الصراع العنصري هي التي بددت قوى المسلمين في الأندلس، ومكَّنتْ منهم عدوَّهم الذي استطاع في عهد الملك «فرديناند» والملكة «إيزابيلا» أنَ ينْسَىَ العنصريات، ويتحدَ ضداً المسلمين المُشَتَّتين البعيدين عن روح الإسلام في القوة، والوحدة، والأخوَّة العامة.

وفي العصر الحديث ظهرت العنصرية في شكل جديد، ابتدعه الاستعمار الصليبي والصهيوني، فقد عَمَد في وجه الوحدة الإسلامية التي نادى بها السلطان العثماني «عبد الحميد» ـ رحمه الله ـ إلى ابتداع أشكال عنصرية، وأُخرى قومية يَقْتُلُ بها دعوةَ السلطان المظلوم، فروَّج لما يُسمى بضرورةً العودة إلى الأصول العرقية التاريخية التي سبقَت الإسلام. . أى إلى الفرعونية في مصر، والبربرية في المغرب العربي، والآشورية والكلدانية في سوريا والعراق، بل إنه نادى «بتقسيم العروبة» إلى عروبة إفريقية وأُخرى أسيوية.

وقد روَّج ـ أيضاً ـ لمشروعات ظاهرُها الوحدة، وجوهرُها التفكك، من مثل: القومية السورية، والهلال الخصيب، والمغرب الكبير، كما نَادىَ بتعميق الوطنية المحددة الإقليمية. . فمصر للمصريين وسوريا للسوريين، ولبنان للفينيقين، وهَلُمَّ جرًا. .

إن ترويج هذه الرابط المُزَيفَّة يهدف ـ كما نرى ـ إلى هدم الروابط الوحيدة الحقيقية، وتبديد طاقة المسلمين والعرب بعيداً عن رابطة الإسلام والكفيلة بإيجاد وحدة في الفكر والمشاعر والسلوك.

لقد بلغتْ النزعةُ العنصريةُ مَبْلَغها الرهيب في عقول الأوربيين، فذهبوا إلى النظر إلى أنفسهم «كجنس أبيض» متفوق، وزعموا أن غيرهم من الأجناس لا يمكن أن يصلَ إلى مستواهم، وقال أحدُ كتَّابهم: «إن الإفريقي والآسيوي مهما تَعلّم ـ حتى ولو أصبح محامياً كبيراً، سيظل الفرق بينه وبينَ الأوربي، كالفرق بين القرد والإنسان».

وذهبَ مستشرقُ معروف «جب» إلى أن العقلية العربية والإسلامية عقلية «ذرية» أي عقلية مفككة تافهة لا تستَطيع استيعاب العمليات والمبادئ المعقدة الكلية.

وهكذا بلغَ السَخَفُ بعقول القوم ناسين طبيعة دورات التاريخ، ومتجاهلين أن أوربا التي يتباهون بها اليوم كانتْ مجموعةَ شعوب متوحشة همجية إلى القرن الخامس؛ عشرَ الميلادى، وتاريخها الهمجىّ في الحروب الصليبية أنصعُ دليل على ذلك.

ولازال الأوربي والأمريكي لا يستطيعُ أن يستسيغ أن الهنديَّ الأحمر، والزنجيَّ الإفريقي يتساويان معه عقلاً، وإنسانياً، وأنهما قادران لو أتيحتْ لهما ظروف الرقيّ أن يصبحا مثله تماماً في عالم الاختراعات، وأن يتفوقا عليه في دنيا الأخلاقَ والإنسانيات.

أما الإسلام.. فمنذ البداية: **«سلمان منا أهل البيت»** و **«بلال سيدنا»**... وفوق كل ذلك: **«ليس لعربيّ على عَجميّ ولا لَعَجميّ على عربيّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا لأسود على أحمر فضل إلا بالتقوى»**.

إنها شريعة مُحْكمةٌ لا أهواءَ مُتَحكّمة.

٢- القومية:

من بين المزاعم الكبيرة التي ينكرها أصولُ البحث العلمي والتاريخي «الأنثروبولوجي» فكرة القومية العنصرية.

فامتزاجُ الشعوب حقيقةٌ يُقرهًا التاريخُ، وليس هناك شعبٌ يمكن أن يقال إنه سلالة خالصة غير مختلفة.

ووجودُ خصائص مميزة لكل شعب في جوانب مختلفة تلتقي وتختلف مع الشعوبالأخرى سلباً وإيجاباً ـ حقيقةً يقررها التاريخ أيضاً.

وتوافُر الأذكياء والأغبياء والعباقرة والمخمورين ظاهرةً موجودةً في كل شعب أيضاً.

والفروق بين الشعوب في مستوي التطور هي فروق في الظروف الحضارية لكل منهما، وليست فروقاً في الطبيعة العرقية لكل منهما، بدليل تقلب الشعوب فيَ دورات التاريخ، من رقى إلى تخلف حسب ظروف محددة: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[1] ولا معنى ـ في ظل هذا ـ لدعوى بعض الشعوب تفوقَّها الجنسيَّ على شعوب أخرى، وزعَمها بأنها «شعبُ الله المختار» أو بأنها «جنس» فوق الجميع « كما زعمت ألمانيا الهتلرَية.

تقومُ القوميةُ على أسس أو روابط «اللغة» ـ أولاً ـ والتاريخ، والأرض، والهدف المشترك، والثقافة المشتركة، وكَثيراً ما تتجاهل القوميات «الدين» كمقوّم أو رابطةِ من الروابط:

ومع ذلك فبالنسبة لنا نحن ـ العرب ـ نجد أن تطبيق هذه الأسس علينا لن يُنْتِجَ لنا حصيلة اسمها القوميةُ العربية اللادينية، بل سينتجُ حصيلةً وحيدةً طبيعية اسمها«الرابطة الإسلامية» أو بتعبير آخر «الجنسية أو القومية الإسلامية».

---

(١) آل عمرن: ١٤٠

فبالنسبة لنا نحن ـ المسلمين ـ تعتبر اللغةُ مُكَمّلاً للوعي بالدين وأداء شعائره، ونبينا ـ عليه السلام ـ عربى ـ ومن نواحى إعجاز قرآننا «الفصاحة العربيةُ».

وبالنسبة لنا ـ أيضاً ـ يعتبر التاريخ العربي هو لباب التاريخ الإسلامي، وما كان لنا تاريخ يُذكرُ أو يشرَّف بدون الإسلام، وجذورُنا في مصرَ والعراق، وسوريا، ولبنان وغيرها ليستْ العروبةَ الخالصةَ بقدر ما هي الإسلام الخالص.

وأرضُنا دخلت باسم الإسلام في حوزة «ديار الإسلام» وليس في حوزة العروبة.

وهدفنا المشترك هو إقامة حضارة تناوئ حضارة الأوربين المادية، وتردُها إلى قوانين الفطرة، ونحن لا نُقيم حضارةً بالقومية أو العروبة وإنما «بالإسلام».

وثقافتْنا المشتركة ليست إلا تراث الإسلام، والفكرَ الإسلامي، والدين الإسلامى.

فالمفهوم القومي الذي ينفصل عن الدين لا يصلح لنا، ولا تربطنا به رابطة، وليس إلا تقليداً لنظريات صنعها تراثُ وواقعُ لا علاقةَ لنا بهما.

لجوء إلي التاريخ:

يعلمنا التاريخ أن رابطة العقيدة الإسلامية هي التي حمتْ الأرضَ الإسلامية والمسلمين، وكونَتْ حضارة راقيةً سبَّاقة، وهي وحدَها ـ وليس غيرها ـ القادرةُ على هذا العطاء الحاضر والمستقبل.

فعندَما هُزِمَ العرب أمامَ المغول البدائيين، وقَضِيَ على الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ، وصارَت بغداد ميداناً للدمار والخراب ـ لم ينقذْ الحضارةَ والعربَ إلا هذه العقيدةُ الإسلاميةُ عندما انتصرتْ على المغول وحولَتْهُم إلى حماة جُنُد للإسلام.

وفي موقعة عين جالوت ـ إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ ـ لم تكن إلا رابطةُ «واإسلاماه» هي التي أنقذتْ العربَ والحضارةَ الإسلاميةَ من غزو هؤلاء الهمجيين.

وفي الحروب الصليبية التي كادت تلتهم الأمةَ العربية، ونجحتْ في تكوين أربع

إمارات صليبية: «الرها، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس» لم ينقذ العربَ والحضارة الإسلاميةَ إلا الإسلامُ بقيادة المخلصين فيه من أمثال «عماد الدين زنكي» و«نور الدين محمود» و«صلاح الدين الأيوبي».

وحركات التحرر من الاستعمار لم تنجحْ إلا لأنها ارتكزت على الإسلام كعقيدة وآصرة، ولم ترفعْ رايةً غيرَ رايته، أو تتمسكْ بوشائجَ غير وشيجته. . .

وحرب التحرير الجزائرية، ومعركة العاشر من رمضان من الأمثلة الحيّة المعاصرة الدالة على ذلك[1]، بل إن قادة البعث والنهضة كانوا جميعاً إسلاميين (وغير الإسلاميين منهم مَشْبُوهُون دائماً) ـ ففى الجزيرة العربية كان الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ وفى ليبيا كانت أربطة السنوسية، وفى مصر كان الأزهر الشريف ورجاله، وفي المغرب كان حزب الاستقلال الإسلامي، وفي الجزائر كانت جمعيةُ العلماء وشيخاها الكبيران (عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمى). . وهكذا كان الأمر نفسه في بقية البلاد الإسلامية. . .

لقد كانت الرابطة الإسلامية هى النور الذى أضاء طريق الحياة والحضارة والنصر، ولقد كانت «الروابط المنحرفة» هي السرابَ الكاذبَ الذي لم يحقق إلا التفرقة والتخلف والهزيمة.

٣- الفكر المادي:

تقومُ بين مجموعة من الناس روابطُ ماديةٌ نفعيةٌ «برجماتية» تزول بمجرد انتهاء المنفعة المتبادلة، فجماعة الشيوعيين تنتظمهم رابطةٌ ماديةٌ هي الحصول على أموال «الإقطاعيين» وبمجرد تحقيق هذه الغاية يأكلون بعضَهم.

وجماعة الوجوديين قد تربطهم مصلحة غرائزية، حين يجتمعون بالانطلاق البهيمي فى مدن نابية أو عارية، أو أندية رخيصة تُمتَهَنُ فيها كرامةُ الإنسانية، وجماعة «الهيبز» يكَوِّنون عَلاقةً ماديةَ تقوم على الإحساس بالضياع، والسباحة بالتالي في مقولات بُوهيميّة تُفَلْسف بها هبوطها وضياعَها الفكري والخلقي والنفسي.

(١) انظر كتاب: طريقنا إلى القدس رؤية إسلامية، لعبد الحليم عويس فصل «واإسلاماه» ففيه بيان ذلك.

فهل تصلح مثلُ هذه الأشكال التجمعية ـ وغيرها ـ كروابط بين الناس؟

وبتعبير آخر: هل يصلح أيّ فكر تفرزه المصلحةُ الماديةُ ليكونَ رابطةً بين الناس، أم أنَّ العقيدة الروحيةَ هي الوشيجةُ الوحيدةُ الصحيحة؟

إنَّ الإجابةَ علي ذلك بكلمة واحدة مستقلة من قوانين الفطرة وتجربة التاريخ هي «النفي» والنفي المطلق.

ونزيد الأمرَ بياناً ووضوحاً فنقول:

حقيقةً إنَّ فطرة الإنسان تميز بين الخير والشر والصالح والطالح والظلم والعدل، وهذه الفطرة هي التي تُميّز الإنسانَ عما سواه... ولكن ـ مع ذلك ـ ها هو الإنسان الذي كرمه ربّه ـ في ظل روابطه المادية ـ يُهدر فطرة الله، ويَظلمُ بنى جنسه، ويقتلهم ويشردهم، ويوجه إليهم كلَّ شرٍ مستطاع.

إن الحيوانات لا تظلم فصائلها، فالأسدُ لا يظلم الأسود والنمر ليس نمراً في عرينه، ولكن الإنسان وحده - في ظل روابطه المادية ـ هو الذي يفترس إخوانه، حتى الأقربين منهم... فهل يصلح هذا الإنسان بمجرد روابطه المادية، هل يصلح من غير دين!؟

إن الجزء الأكبر من التاريخ ـ هو الجزء الذى تحرك بعيداً عن هداية دين الله ـ يفيض ظلماً وفساداً وعدواناً والمؤرخ يُصابُ بأسى بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض تماماً مع الضمير الإنسانى، ولنقتبس بعض الأقوال التي تصور هذا الحال بوضوح.

يقول «فولتير»: «إن النتاج الإنسانى ليس إلا صورة للجرائم والمصائب»

ويقول «هربرت سبنسر»: إن التاريخ تهريج كام فارغ لاجَدْوَى منه»

ويقول: «نابليون بونابرت»: «إن التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تَعْني شيئاً!»

ويقول: «إدواردجين»: «إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سجلاً للجرائم

والحماقة وخيبة الأمل.»[1]

الطريق الوحيد:

ولعل في كلام هؤلاء قدراً كبيراً من الحقيقة، لكن كلامَهم ينقصُه قيدُ واحد كان من الواجب الحرص على ذكره... لقد كان عليهم أن يُبينوا أن التاريخ الذي يتحدثون عنه هو تاريخ الإنسان بعيداً عن منهج الله، وعن الروابط التي شرعها الله.

لقد قدَّم الإسلام للإنسان ـ عن طريق رابطة الأخوة والعقيدة ـ الحمايةَ الحقيقيةَ لنسيج حياته من التفكك، لكنَّ أكثرَ الناس أبَوا هذه الحمايةَ، فتَفكَكَ نسيجُ حياتهم على النحو الذى تعكسُه أمراضُ العصر النفسيةُ الخانقة المدمرةُ القاتلةُ.

ويقول علماء النفس الحديث: «إنَّ من أهم جذور الأمراض النفسية: الكراهية والحقد والجريمة والخوف والإرهاب، واليأس والترقب، والشك والأثرة، والإنزعاج من البيئة»[2]

إن نسيجَ هذه المجتمعات ـ كما توضحه هذه الأمراض ـ قد تَفكَكَ، وليس لتفككه من سبب إلا لأنها مجتمعاتُ حَرَمَتْ نفسَها من رابطة الإيمان، واستحدثتْ روابطَ مزيفةً تنقطعُ لأتفه الأسباب، وتَخلَّفُ وراءَها هذه القائمة الطويلة من الأمراض المدمرة.

ومن هنا كان حرصُ الإسلام على شجب كل الروابط والحرص علي رابطة العقيدة وحدها، فبدون هذه العقيدة:

«سوف يتحولُ النظامُ إلى فوضى»!!

«وسوف ينعدمُ التوازنُ وضبطُ النفس والتَّماسُكُ!!»

«وسوف يَتَفَشَّى الشرُّ في كل مكان!!»

---

(١) انظر وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ص ٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٦.

«إنها لحاجة مُلحَّةٌ أن تَقْوَى صلتُنا وعلاقُتنا بالله» (١)

«ومـا أرْوَعَ القـرآنَ في بيـانه الإلهي الكريم»: ﴿قل إن كـان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربوصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾(١).

(١) المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٢) التوبة: ٢٤.

الفصل الخامس

الإسلام والتيارات الاجتماعية الحديثة

١- مصطلح المسألة الإجتماعية.

٢- مفهومها ونشأتها.

٣- طبيعة المنهج الإلهي في علاجها.

٤- خصائص المنهج الإلهي في علاجها.

٥- المناهج البشرة.

٦- مقومات المجتمع الإسلامي.

٧- الطبقات في المجتمع الإسلامي.

الإســلام

والتيارات الاجتماعية الحديثة

١- مصطلح المسألة الاجتماعية

ليس من السهل الزعم بأن هناك تحديداً ثابتاً لمصطلح إنساني كمصطلح المسألة الاجتماعية، كما أنه ليس من السهل تحديد معْلَم زمني موثوق به لنشأة مصطلح من هذا النوع، حتى وإنْ كان هذا المصطلح قد تطور، وأصبح يرمز إلى قضية كبرى من قضايا الإنسان في العصر الحديث.

ومع أننا سنحاول الوصول إلى تحديد نسبي لهذا المصطلح، وإلى الوقوف عند معْلَم زمنيّ لنشأته كتعبير عن قضية إنسانية إلا أننا نجد من الضروري التنبيه في بداية حديثنا ـ إلي أن هذه القضية ـ بمفهومها الإصطلاحي الحديث ـ لم تكن وليدة البيئة الإسلامية أو المناخ الذي سيطرت عليه روح الإسلام، وإنما كانت «مرضاً» تطور إلي «أمة حضارية» أصابت جسم الحضارة الأوربية الذي نشأ ونما وترعرع بعيداً عن قوانين الله وأوامره، بل بعيداً عن نسمات الروح والأواصر الإنسانية بوجه عام.

ونضيف إلي ذلك أن طبيعة الإسلام ـ كدين ـ لا يفصل بين آثار العقيدة والشريعة، ولا بين خير الفرد وخير المجتمع، ولا بين القانون وروح القانون. . . هذه الطبيعة الشاملة في هذا الدين تجعل من الصعب ـ في ظل تطبيق تعاليمه ـ نشوء ظواهر، كظواهر الصراع بين الفرد والمجتمع، أو الصراع بين الطبقات، أو غير ذلك من الظواهر التي أبْرَزَتْ ما يُعْرَفُ باسم (المسألة الاجتماعية)، والتي جعلت هذه القضية تأخذ من جهود الإنسان الحديث القسطَ الكبير.

إن الإسلامَ ـ في حقيقته ـ «بناءٌ تامٌّ الصنعة، وكلٌ أجزائه ـ من عقائد وعبادات ومعاملات اجتماعية واقتصادية ـ قد صيغت ليُتَمّمَ بعضُها بعضاً، فليس هناك شيءٌ لا حاجةَ إليه، وليس هنالك نقصٌ في شيء، فَنَتَجَ عن ذلك ـ أي عن هذه الطبيعة في الإسلام ـ إئتلافٌ متزنٌ مرصوص[1] لا يجوز تقطيعه.

---

(١) محمد أسد: الإسلام علي مفترق الطرق، ص ١٥.

ونحن عندما نَضْطَرُّ لعلاج قضية كالمسألة الاجتماعية لا يجوز لنا إغفال هذ الطبيعة في الإسلام، فلا نبتعد بالمشكلة عن جذورها ولا نفصلها عن الجسم الإسلامي المتزن المتكامل.

وفي إطار هذا التصور، وانطلاقاً منه نبدأ في دراسة المسألة الاجتماعية.

٢- المسألة الاجتماعية

مفهومها.. نشأتها.. تطورها

لا تُوجد في التصور الإسلامي حواجزُ حقيقةٌ بين الفرد والمجتمع، فإن الفرد يُحس بأنه مسؤولُ مسئوليةً مباشرةً عن المجتمع، والمجتمع - أيضاً - يحسُّ بأن عُمُدَه الأساسية، وأركانَه الطبيعية هم هؤلاء الأفراد المسلمون.

لقد انتمي الفرد المسلم إلى هذا المجتمع بإرادته، ولقد انتسب إليه روحاً وفكراً ومشاعر قبل أن ينتمي إليه جسداً.. أو عضواً عاملاً، والرابطة الأولى بالتالى في المجتمع الإسلامي هي العقيدة المشتركة.. وما يَنْبثقُ عن هذه العقيدة من تصورات ونظمٍ وقوانينَ اجتماعية واقتصادية وسياسية.

وهذه الرابطة الأولى - التى ارتضاها المسلم طواعية - تَذيب الفواصلَ بينه وبين المجتمع، وتشعره بوَلاء ومسئولية حقيقية تجاهَه، وتجاهَ ما يتعرضُ له المجتمعُ الإسلامي كلِّه من مشَكلاَت وتحديات.

والسببُ الأكبرُ الذى نَكَبَ المجتمعات البشريةَ، وكثف مشكلاتها في الجوانبِ المختلفة هو أنها نشأت كمجتمعات «اصطناعية» أو تلقائية، وليست مجتمعاتَ طبيعية قائمة على الاختيار الفردي، والتوافق الفكريّ والعَقَديّ.

ومن هنا تظهر في أحشائها بينَ الحين والحين أمراضٌ متنوعة، مرةً اجتماعية، ومرةً اقتصادية، ومرةً سياسية، ومرةً حضارية شاملة تهدد بناءها كلَّه، وتعرضُها للتَّحلُّلِ والضياع.

والمسألة الاجتماعية، لم يُقْصَدْ بها - حين ظهرت حديثاً[1] - مجردُ تقعيدِ نظريّ

---

(١) نحن نتناول المسألة الاجتماعية في مرحلتها التي ظهرت فيها كثورة علي الكنيسة والإقطاع بقيادة المفكرين الاجتماعيين والفلاسفة الخياليين والطبيعيين - أما الفكر الاجتماعي كفكر إنساني فهو قديم يرجع إلى شعور الإنسان بأنه مدني بالطبع وبأنه كائن اجتماعي، وليس تتبع هذا الفكر من موضوع بحثنا.

هادئ لأسس الصالحة لقيام المجتمعات البشرية وتماسكها ـ في ظل تصور إنسانيٍّ عام ـ إنما قُصِدَ بِهَا ـ نتيجةً لكونها محاولةً للبحث عن علاج لأزمة حضارية كما قلنا : ـ

«تنظيمُ العَلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع، وتَمْنعُ طغيانَ أحدهما على الآخر، وتضع الأسس التي تضمنُ انسجامَ المجتمع أفراداً وطبقات، وتتيح للجميع قدراً متكافئاً من الفُرَص والحقوق، وتُلْزِمَ الجميع ـ أيضاً ـ بقدرٍ ملائمٍ عادلٍ منْ الواجبات».

ولقد تطورت المسألةُ الاجتماعية ـ في ظل غلبة النزعة المادية، وموت الروح الإنسانية، وذبول القيم الدينية في أوربا، واستعباد الآلة الصماء للإنسان، وافتنان الإنسان بها ـ تطورت هذه المسألة فلم تَعُدْ مجردَ قضية إنَسانية جزئية، بل أصبحت مذهباً مستقلاً يرفعه أصحابُه إلى مستوى ما يُعرف «بالأيديولوجية»[١] تلك التي تُشكّلُ ـ في نظر أصحابها ـ نظرةً كونيةَ عامةً، وتفسر جميع الظواهر تفسيراً مادياً قاصراً[٢]. . . دون أن تلتفت إلى الجوانب الكيرة الأُخرى الروحية والشعورية والأخلاقية التى تتشكل منها الحياة، والتي لا يُسَمَّى الإنسانْ إنساناً، ولا تُسَمَّى الحياةُ إنسانيةً ـ إلا بها.

ومنذ وجد الإنسان علي الأرض والتفكيرُ الاجتماعيّ يحتل جانباً كبيراً من اهتمامه، وبالتأكيد فإن هناك صلاتٌ وثيقةُ بين الجانب الاجتماعي والجوانب الإنسانية الأخرى وعلي رأسها العقيدةً الدينية.

ومعلوم أن النظم والعقائدَ التي سيطرت علي بعض الحضارات كالفراعنة والاغريق (اليونان)، والرومان، قد اتجهت إلي تقديسِ الملوك، والخضوع

---

(١) الأيديولوجية: تستعمل بمعني العقيدة والفكرة، والعالم المأمول، أو التنظيم المعين للحياة، ومن الخطأ استعمالها بديلاً عن الإسلام، كما يفعل بعض المثقفين!!

(٢) ومن النظريات الاجتماعية والاقتصادية التي جعلت من نفسها عقيدة المذاهب الاشتراكية والشيوعية.

لاستبدادهم، والإيمان بالأساس الطبقيّ لتكوين المجتمع[١] وبالتالي ضاعت - في هذه العقائدُ نظمُ حقوق الأفراد والمجتمعات، ووقفت في القمة طبقات الحكم والأشراف ورجال الكهانةً، بينما ضاعت في السفح - بلا حقوق - الطبقاتُ الأخرى التي تمثل جماهير الشعب.

فلما ظهرتْ النصرانية، لم تَلْبَثْ بعدَ فترة قصيرة من ظهورها أن انحرفتْ بقيادة رجال الكنيسة، فَحَرفتْ ما جاء به المسيحُ - عليه السلام - وأصبحت وسيلة من وسائل كبت الإنسان، وإذلاله وحرمانه، وفرض الفقر والعبودية والجهل عليه. . . ولم تَعُدْ أكثرَ من أداة هزيلةَ في يد الإقطاع ورجال الحكم، فلا يجدْ الإنسانُ في رحابها العدلَ ولَا المساَواة، ولا يطمعُ في الاستعانة بها للوصول إلى حقه في الحرية والكرامة الإنسانية.

ولقد نجح «قسطنطينُ» أولُ حاكم رومانيّ تظاهر باعتناق المسحيية - في تحويل المسيحية إلي دين وثنيّ مجرد من رسالته الروحية الصافية، إذ كان يرمي - قبل كلّ شيء - إلى ابتداع شعار دينيّ وثنيّ تتميزُ به دولته الرومانيةُ عن الأمة الفارسية التي يقف منها موقفَ المحارب، ويَعْمَلُ علي تحريك العواطف الشعبية ضدَّها.

ويصف القاضي عبد الجبار الهَمَزَانيّ هذا الوضع الجديد للنصرانية علي يد قسطنطين فيقولُ: «إن الرُّومَ ما تنصرتْ ولا أجابتْ المسيحَ، بل إن النصارى تروَّمتْ، وارتدتْ عن دين المسيح، وعطلت أصوله وفروعه، وصارت إلى دين أعدائه، وهو ما عليه هذه الطوائف الثلاث من النصارى. . . فعلوا ذلك طلباً للرئاسة وعاجلِ الدنيا»[٢]. . .

ولقد أدى هذا التحول الفكري في المسيحية إلي تسلط رجال الكنيسة التابعين فكرياً للتقاليد الرومانية الوثنية - علي البؤساء والفقراء. . .

كما أدى هذا التحولُ - كردّ فعل - إلي بروز نزعات (التغيير الاجتماعي) في

---

(١) انظر: د. محمد البهي - في «طبقية المجتمع الأوربي»، ص ١١.

(٢) نقلاً عن «المسألة الاجتماعية» للأستاذ عمر عودة الخطيب، ص ٧٠.

مطلع النهضة الأوربية، وهو أول بروز عمليّ «للمسألة الاجتماعية» بمعناها الحديث إلى أن تطورت كمذهب في نهاية القرن الثامنَ عشرَ مع الثورة الفرنسية.

ولقد قامت هذه النزعات علي أساس إعلان الحرب علي المسيحية والاعتقاد بأن الدين عموماً، انطلاقاً من تجربة المسيحية، يشجعُ علي الظلم، ويتواطأ مع الأقوياء، ويعجزُ عن تقديم الحلول الكافية «للمسألة الاجتماعية» - وبالتالي - كان معظم فلاسفة الاجتماع الأوربيين من المنكرين للأديان، أمثال: «جان جاك روسو» و «فولتير» و «فرنسيس بيكون» و «ديكارت» و «أوجست كونت» و «سبنسر» و «دور كليم» بالإضافة إلي زعماء المذاهب الفوضوية الاشتراكية من أمثال: «توماس مور» و «برودون» و «توماس كامَبانلا» و «مورلي» وغيرهم. . . !!

وباضطراد التطور «التكنولوجي» والاعتماد علي الآلة، كانت المشاكلُ تتفاقمُ بينَ أصحاب رؤوس الأموال والعُمَّال الذين أصبحوا - نتيجةَ تَزَايُد الاعتماد على الآلة - عرضةً للبؤس والتَّشَرُّد.

وظل الأمر يستفحل بين المُلاك والعُمَال - في غَيْبة قانون إلهيّ عادل - حتى انتهى إلى «عُنْف دمويّ» بين الطبقات المختلفة، فأخَذت المسألة الاجتماعيَّة شكلاً حاداً وخطيراً.

وقد استغلَّ اليهودُ هذه الفرصةَ كعادتهم، فركبوا الموجة المضطربة، ووجهوها لمصالحهم، وكرَّسوا جهدهم لتقنين هذا الاضطراب وإشاعته في العالم، فاخترعوا لذلك ألواناً من المذاهب المادية. . . من شيوعية ماركسية، إلي شيوعية لينينية، إلى اشتراكيات متعددة، إلى وجودية. . . وكلّهُا مذاهبُ - وإن اختلفت شكلاً - تلتقي مضموناً عند نقطة رفض النظرة الدينية العالية الشاملة، وإقامة الحياة على أساس الإلحاد والصراع والتناقض.

٣- طبيعة المنهج الإلهي
في علاج المسألة الاجتماعية

عند دراستنا لطبيعة المنهج الإلهي في علاج المسألة الاجتماعيةَ يجبُ أنْ نستحضرَ فَي أذهاننا ما ذكرناه آنفاً من أن المنهج الإلهي كلُ لا يتجزأ، وأن علاجَ أيّ عضو في الجسم لا يعني أن بقية الأعضاء بِمَنْأي عن التأثر بقضية هذا العضو والتأثير فيها.

وفي ظل الوعي بهذه الحقيقة نستطيعُ أن نَسْتَنْتج أن طبيعةَ المنهج الإلهي في علاج المسألة الاجتماعية ترتكز على الحقائق التالية:

أولاً: إن الخصائص التي تتميز بها الشريعةُ الإسلامية، بل التصوُر الإسلامي كلهُّ، تصدق على نظرة الإسلام «للمسألة الاجتماعية»:

فإذا كان الإسلامُ دين سهولة وتدرج ووسطية وتوازن بين أنشطة الحياة المتعددةوجوانبها، فإن هذه السماتَ تتجلي أيضاً في تناول الإسلام «للمسألة الاجتماعية».

وإذا كان الإسلام ديناً ربّانياً صادراً عن قوة منزهة عن كل شرك، وليس نظرية إنسانية جزئية أو ترقيعية أو ترفيهية، فإن هذه الخصيصةَ الدينيةَ ستتجلى - أيضاً - في علاج الإسلام للمسألة الاجتماعيةَ حين لا يقتصر العلاج الإسلامي علي القوانين الجافة أو السلوك الظاهري، وإنما يتعدّي ذلك إلى تحريك عواطف الرحمة والحب والأخوَّة الإنسانية وخشية الله ورضاه، وصولاً إلى تحقق مجتمع العدالة الاجتماعية الواقعية، وليست العدالة النظرية المزيَّفة.

وإذا كان الإسلام يجمع بين الثبات والتطور ويَرْسمُ لكل منهما إطارَه، ويجمعُ بين المثالية التي ينبغي أن ترنو إليها البشريةُ دائماً، والواقعية التي يسير عليها الناس غالباً، ويَجمعُ - أيضاً - بين الدنيا - أي الوجود المحدود - والآخرة أي الوجود الممتد،

ويخاطبْ الإنسان «بالعبادات» من داخله، وينظمُ وجوده «المعاملات» من خارجه...

إذا كان الإسلام في أسلوبه وتشريعاته كلّها يجمعُ هذه الخصائص التي يعجز أيٌّ مذهب بشريْ عن إحداث التوفيق والإنسجام والتعاون بينهما، فإن هذه الخصائصَ تتجلي ـ أيضاً وبالضرورة ـ في علاجه ـ للمسألة الاجتماعية ـ.

ثانياً: إن الإسلام لا ينظر إلى «المسألة الاجتماعية» كقضية ذات طابع ماديّ فقط، فالإنسان في نظر الإسلام لا ينحصرْ في دائرة الوجود الماديّ أو الاقتصادي ـ كما يقول الماديون الجدليون ـ وإنما هو كائنُ إنسانيّ روحيّ إلى جانب ما فيه من جوانبَ مادية.

فالحرية الإنسانية ـ مثلاً ـ في نظر الإسلام لا تقلُّ أهميةً عن الجانب الاقتصادي.

وقتل حرية الإنسان في مقابل توفير الخبز والملبس له انتكاسةٌ حيوانيةُ وردَّةُ إنسانيةُ، وهبوطٌ بالمستوى الذي وضَعَ اللهُ الإنسانَ فيه (وهو ما فعله الشيوعيون والماديون بعامة).

وعلى أساس تحقيق الكفاية لكل جوانب الإنسان من مادية وعضوية ترتكزُ المبادئُ الإسلاميةَ في علاجها «للمسألة الاجتماعية».

ثالثا: والإسلام ـ كدين إلهي ـ لا يعترف بالنزعات العُنْصرية أو القومية أو الطبقية أو ما سوى ذلك من نزعات الصراع والتناقض، بل يقيم تشريعاته علي أساس الركنين الفَطريين التاليين:

أ - وحدة الأصل:

فالبشر جميعاً ينتسبونَ إلى أب واحد، وأم واحدة وإن اختلفوا جنساً ولوناً ووطناً، ولا ينبغي أن يكون اختلافهمّ هذا حائلاً دون أخذهم حقوقَهم الإنسانيةَ المشروعةَ[1].

---

(١) انظر عمر عودة الخطيب «لمحات في الثقافة الإسلامية» بتصرف، ص ٢٣٦ وانظر «العدالة الاجتماعية في الإسلام» للأستاذ قطب، ص ٩٨، ط ٧.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[١].

ب- وحدة العقيدة:

وهي التوحيد الخالص الذي جاء به النبيون جميعاً: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[٢]. . ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٣]، فهذا هو أساس العقيدة الذي لا يتبدَّل، أما التشريعُ الذي ينظمُ حياةَ الجماعة فهو الذي يتطور في الرسالات الإلهية. . . حتى إذا جاء الإسلام في صورته النهائية كان قد احتضن الفكرة الأساسية في دين الله الواحد، واستقى الصالحَ من المبادئ والتشريعات والنُّظُمِ في الرسالات السابقة، وأكْمَلَ الناقصَ منها وأتَمه[٤].

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) آلعمران: ١٩.

(٣) آل عمران: ٨٥.

(٤) عمر عودة الخطيب «لمحات في الثقافة الإسلامية»، ص ٢٣٨، بتصرف.

٤- من خصائص المنهج الإلهي
في علاج «المسألة الاجتماعية»

تنبثق خصائصُ المنهج الإلهي في علاج «المسألة الاجتماعية» من طبيعة المنهج الإسلامي كدين ربانيّ عام خالد.

وكما تحملُ فروع الشجرة خصائصَها، ـ كذلك ـ يحمل أسلوبُ الإسلام في علاج أيةِ قضيةٍ من قضايا الحياة كلّ خصائص شجرته ذات الأصُول السماويّة الثابتة.

وبإيجاز، وفي ضوء هذا التصور الموضوعي لطبيعة الإسلام، نستطيعُ إبرازَ أهمّ خصائص المنهج الإلهي لعلاج «المسألة الاجتماعيةَ» في النقاط التالية:

أ- الأساس الديني للمجتمع:

لا يقيم الإسلام البناءَ الاجتماعي على أساس مادي أو قانوني وإنما يُرْسي دعائَم الأساسِ الديني للحياة الاجتماعية وغيرها كأساس ثابت تنطلق منه كلُّ جزئيات العلاقاتَ الاجتماعية والاقتصادية.

والأساس الديني للمجتمع يَستَمدُّ أصالتَه وروعتَه من عدة أمور:

أ- أنه علاجُ إلهيٌّ صَدَرَ عن الخالق القادر المحيط المهيمن العليم بمخلوقاته ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [١].

ب- أنه ملائمٌ لفطرة الإنسان، فالإنسان ليس آلةً صماءَ تتحرك بمجرد الضغط عليها بمفتاح اسمه القانون، وإنما هو إنسان ذَو إرادة حرة لابَدَ أن تنطلق من داخلها نواحي السلوك المختلفة.

---

(١) الملك: ١٤.

جـ - هذا بالإضافة إلى أن كل الحلول «اللادينية» المادية والقانونية التي انتهجتها البشرية قد أفلستْ، وآلَ أمرُها إلى فشل ذريع. ويؤكد هذا ذلك التصاعدُ المستمرُ في إحصاءات الانتحار والجنون، وحوادث الاغتصاب والسرقة، وغيرها [١]..

إن الإنسان في الإسلام خليفة الله في الأرض. وهو مكلف بتعمير هذا الكون الذي سخره اللهُ له، وباسمه - سبحانه وتعالي - يجب أن يمشي الإنسان في الأرض، وأن يأكلَ من رزق الله !!

والإسلام وحده من بين سائر الأديان والمذاهب هو الذى يُفْردُ اللهَ بالعبادة حينُ يفْردُه بالحاكمية وحقَّ وضع المنهج لحياة الناس، ومنْ ثَمَّ فهو وحده الذي يَطْلَقُ النَاسَ من العبودية لغير الله... ولهذا فنحن ملزَمون بتحقيق هذا المنهج دون سواه[٢].

وهذا المنهج الإسلامي هو الوحيد المُبرأ - نتيجة الأساس الإلهي - من نتائج الهوى الإنساني، والضعف الإنساني، والرغبة الإنسانية في التنعم الذاتي، وفي تحقيق ذلك النفع عن طريق التشريع لشخص المشروع، أو لأسرته، أو لطبقته أو لشعبه، أو لجنسه.. فواضع هذا المنهج هو الله ربُّ البشر أجمعين [٣].

فالأساس الديني للحياة - كما نرى - هو الضمانُ الوحيد لتحقيق مجتمع تتوافرُ فيه للإنسان الكرامةَ والعدالةُ والحريةُ والمساواةُ.

ب- الصياغة الإنسانية للمجتمع:

ومن أبرز خصائص المنهج الإلهي في علاج «المسألة الاجتماعية»، أنه لا يُقيمُ البناءَ الاجتماعي على أساس «الصراع» أو التناقض أو طبقة أو أفراد لطبقات من الناس...

---

(١) تقول إحصائية نشرت بموكسو إن ٥٠٪ من الأمكراض سببها نفساني، وفي تقارير عام ١٣٩٣ هـ أن خمسة ملايين جريمة تقع في السنة الواحدة على الرغم من الرفاهية المتوفرة. وقد ارتفعت نسبة الجريمة في فرنسا ٣٢٪ في عام واحد (راجع تفصيل ذلك في مقال «الدين والتطور الحضاري» مجلة التضامن الإسلامي عدد ذي الحجة ١٣٩٥ هـ - لعبد الحليم عويس).

(٢) الأستاذ سيد قطب «هذا الدين»، ص ١٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦.

إنه قبل أنْ يضعَ القوانين، وبعد أنَ يُرسي أساس الربوبية يقيم دعامات أُخرى إنسانية تشيع بين الناس أواصرَ الرحمة، والحَبَّ، والتسامح، والفضل، والتّعاون، ومراقبة الضمير، وخشية الله، إلى غيرّ ذلك من المعاني الكريمة..

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد هذه المعاني أكثرُ من أن تُحْصَرَ..

وأبرز معالم الصياغة الإنسانية للمجتمع في المنهج الإلهي تتلخص في:

١- إيمان الإسلام بنظافة الفطرة الإنسانية، وبأنها لم تولد آثمة أو خاطئة ـ كما يقول النصارى ـ وإنما وُلدَتْ كريمةً طيبةً تنزع إلى المثالية. وما يلحقها من عيوب إنما هو حصاد تأثرها بأوضاع غير كريمة في المجتمع. والإسلامُ يعتمد في تشريعاته على هذا الرصيد الكريم للفطرة، ويحاول تحريك الإنسان بالإرادة الذاتية من داخله، قبل أن يقوده بسلاسل القانون من خارجه.. قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [1] وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [2].

٢- إشباع الإسلام لكلَّ جوانب الإنسان ـ بالطرق الحلال ـ وتصعيد كلُّ غرائزه وليس كبتها أو حرمانها بالرهبانية المبتَدعة، أو الزهد الكاذب..

«فالإسلام ليس عقيدةً صوفيةً ولا هو فلسفة، ولكنّه منهجٌ من الحياة حسب قوانينَ الطبيعة التي سنَّها الله لخلقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية» [3].

٣- إعطاء الإسلام كل ذي حق حقه، في توازن، وبلا إفراط أو تفريط. فللرجل حقه كإنسان، وللمرأة حقها، وللابن حقه، وللأب حقه، وللضعيف حقه، وللمريض حقه، وللعاجز حقه، وللفقراء والمساكين واليتامى والمُعَوَّقين

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) محمد أسد الإسلام على مفترق الطرق، ص ٢٢.

وأشباههم من المَعُوزين حقوق. . قال ـ تعالي ـ: ﴿وما أدراك ما العقبة. فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾[١].

إن الفرد في المجتمع الإسلامي يتمتع بحقوق عامة، انطلاقاً من واقع كينونته الإنسانية، وليستْ مجردَ حقوق مرتبطة بظروف مَوْقُوته، تزولُ بزوالها.

جـ - الحق والعدل من الخصائص الكبرى:

لا يدعو الإسلام إلى سيطرة طبقة على طبقة، ولا إلى «دكتاتورية» فردية، أو طبقية تنشر باستبدادها الظلم في المجتمع، وحتى المجتمع الإسلامي كلهُ ليس مباحاً له أن يستحلَّ ثروات شعوب أخرى أو يستبد بها. . فالظلم ظلمٌ، والتسلطُ الظالمُ مرفوضٌ في منطق العدالة الأجتماعية الإسلامية، بل إن العكسَ هو المفروضُ علي الأمة الإسلامية. . . فهذه الأمةُ الوسطُ الشهيدةُ علي الناس مكلفةٌ بإقرار العدل والحق في الأرض كلها، وما الهدف الأسْمَى من الجهاد إلا إقرارُ العدل والحقّ وإعلانُ الحرب الدائمة على الطغاة والمتألهين، الذين يذلّون الشعوب ويُقَيمونَ السدود في وجهَ الحقَّ وَالإيمان. والقرآن يقول: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾[٢] ويقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٣] ويقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

والعدل في منطق الإسلام عدلٌ مطلق[٥] . . . يَنْسَابُ في كل أركان المجتمع والكيان الإنساني. . في داخل النفس، وفي الأسرة، وبين أفراد المجتمع، وبين الرجَل وَالمرأة، والأب والابن. . . ومع الصديق والعدوّ. . وبين المجتمع الإسلامي

---

(١) البلد ١٢-١٧.

(٢) البقرة: ٢٥١.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) آل عمران: ١٠٤.

(٥) انظر فصل العدالة من كتاب معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان.

وغيره من المجتمعات . . . وهو عدلٌ في الحكم، وفي الاقتصاد، وفي النُظُمِ الاجتماعية، وفي الحروب، وفي سائر العلاقات الاجتماعية وشئون الحياة.

د- الأصالة والشمول:

من الخصائص الأساسية في المنهج الإسلامي لعلاج «المسألة الاجتماعية» أنه منهجٌ أصيلَ شاملُ. . .

فهو أصيلُ؛ لأنه لم يكن مجردَ علاج أو ردّ فعل لخلل طارئ، وإنما هو توجيه شمولي لعلاج الكيان الاجتماعي كله.

وهو أصيلٌ؛ لأنه لم يكن مجردَ ترقيع جزئيّ انفعاليّ (كالمذاهب الشيوعية والاشتراكية) أو تلفيق مذهبيّ مستور (كدعاوي الجمع بين الاشتراكية والديموقراطية)، أو نظرة سطحية لكيان الإنسان ولحركة التاريخ البشري وقوانين مسيرته.

وهو أصيل؛ لأنه يقدم حُلُولاً مستقلةً لمشكلات الإنسانية، يستمدُها من تصوره الخاص، ومن منهجه الذاتي، ومن أُسُسه الأصيلة، ومن وسائله المتميزة.

وعلينا حينَ نناقشُ هذا الدين ألا نكلهُ إلى مذاهبَ ونظريات أُخْرَى تفسرهُ (كالاشتراكيات المختلفة) أو تضيف إليهَ، فهو منهجُ متكاملٌ، ووحدةٌ متجانسةٌ، وإدخالُ أيّ عنصر غريب فيه كفيل بأنْ يفسدَه، كالجهاز الدقيق الكامل، أية قطعة غريبة عنه تعطل الجهاز كله، وتَظْهرُ كأنها رقعة فيه[1].

وهو أصيل؛ لأنَّه يرتكزُ علي دعائمَ أصيلة في أعماق الإنسان، ويَهْدفُ إلى غايات إنسانية نبيلة، لا تخدم مصلحةَ طبقةٍ أو فردِ، إنمَا تخدم المجتمع كله. . والإنسانيةَ كلَّها.

ومن أكبر دلائل أصالة المنهج الإسلامي في علاج «المسألة الاجتماعية» أنَّه منهج «شاملٌ»؛ لأن كل جزئياته تنطلق من منبع واحد، وهو الوحي الكريم، وتتجه كلُّها

(١) سيد قطب العدالة الاجتماعي، ص ٩٧.

إلي غاية واحدة هي العبادة.. أي رضا الله، «فليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معني العبادة، أو لا يُطْلَبُ فيه تحقيق هذا الوصف»[1].

ولأنه منهجٌ مستوف لكل نواحي العلاج، ولأنَّ وسائلَه ـ كذلك ـ فطرية، فهو لا يَهْدم الفطرةَ أو يصطدم معها من أجل غاية يَزْعُمُ أنها شريفةٌ... ولا يضحي بملايينَ الناس، زاعماً أنه يريد إقرارَ العدالة الاجتماعية علي أشْلائهم... ولا يهدر حقوق الآدميين تحتَ شعار كاذب يرفعه...

كلا... فالعدالة شاملة.. ولكّل جزء حقه.. عليه واجب ملائُم له.

إن الإسلام يَرْسمْ سلوكاً اجتماعياً شاملاً نحوَ الآخرين في المجتمع، على اختلاف مستويات الصلة بهم[2].

* ففي جانب الوالدين ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[3]، ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[4].

* وفي جانب ذوي القربي: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾[5].

* وفي جانب الضعفاء: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾[6]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[7].

* وفي جانب الأبناء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[8].

---

(١) سيد قطب خصائص التصور الإسلامي، ص ١٢٩.
(٢) د/ محمد البهي طبقية المجتمع الأوربي، ص ٤٧.
(٣) الإسراء: ٢٣.
(٤) الإسراء: ٢٤.
(٥) الإسراء: ٢٦.
(٦) الإسراء: ٢٦.
(٧) الرسراء: ٣١.
(٨) الإسراء: ٣١.

* وفي جانب الجار: «ليس منا من بات شبعان وجاره جائع» حديث شريف.

* وفي جانب الزوجة «خيرُكم خيركم لأهله، وأنا خَيْرُكم لأهلي» حديث شريف.

* وفي جانب العرْض والمال وخصوصيات الإنسان الأخرى هناك أيضاً تشريعات اجتماعية تحميها، وتضعُها في مكانها السليم من البناء الاجتماعي.

* وفي جانب المجتمع الإسلامي: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

* وفي جانب المختلفين في العقيدة: «ألا من ظلمَ معاهداً أو تَنَقَصه حقَّه، أو كَلَّفَهُ فوقَ طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طِيب نفس فأنا خصمُه يوم القيامة» حديث شريف.

* ومع النفس والضمير والإنسانية والكون كله.. رَسَمَ الإسلامُ سلوكاً أخلاقياً اجتماعياً حَفَلَتْ به الآيات والأحاديثُ الشريفةَ.

وهكذا ـ ومن هذه النماذج الموجزة ـ تتضحُ أصالةُ المنهج الإسلاميّ في علاج «المسألة الاجتماعية»، كما يتضح ـ كذلك ـ شمولُه لكل جوانب «المسألة الاجتماعية» بلا خلل أو انحراف.

هـ - التوازن والواقعية:

إن الإسلام وحده ـ في علاجه «للمسألة الاجتماعية» ـ هو الدينُ المُتَّسِمُ بالتوازن والواقعية بوضوحٍ تامٍ.

وكما هو معروف فإن الأسباب المباشرة لقيام المذاهب «والأيديولوجيات» التي انتشرت في عالم اليوم، إنما تتلخص في بحث كلٍّ منها (كما يَزْعُمُ أصحابُهَا) عن إنصاف جانب مختلٍ من جوانبِ المجتمع عن طريق تصوير معينٍ (غيرِ واقعي في الحقيقة) للحياة.

فالماركسية تزعم أنها تَنْصفُ مُعْظَمَ المجتمع أو ما يسمى «بالبروليتاريا» أي: الطبقات العاملة الكادحة... تَنْصِفُه من أفرادٍ يُمَثِّلُونَ قلةً، تُدْعَى «بالبورجوازيين»

---

(١) الحجرات: ١٠.

أو «الإقطاعيين» وتسير خلفها ـ في هذه الدعوى ـ المذاهبُ الاشتراكية المختلفة.

وفي المقابل تأتي الوجودية، والمذهب الحر «الليبرالية» والديموقراطيات أشكالها الرأسمالية المختلفة، فَتَزْعُم أنها تنقذ الفرد من سحق المجموع، وسيطرة الدولة، واستبداد قوانينها الظالمة.

وكما تنسحب هذه الدعوات علي الجوانب الاقتصادية، كذلك تنسحب علي الحرية الاجتماعية، فبعضها يجعل الحرية ملكاً للمجتمع... وعلي الفرد أن يذوب في المجتمع الموهوم، وبعضها يجعل الحرية ـ كل الحرية ـ بلا حدود من قوانين وأخلاقيات ـ للفرد، بين هذين الاتجاهين ـ غير الواقعيين ـ الممتدين في كل آفاق الحياة، تتحرك عوامل الصراع، وتتناقض القوى التي خلقها الله لتكون متكاملةً متعاونة... وتتحول الحياة الاجتماعية ـ التي يمكنُ أن تكون طيبةً كريمةً إلى ساحة دموية رهيبة!!

أما الإسلام... فقد رفض مبدأ الصراع ومبدأ التناقض من الأساس.. وقدأقام نظريته الاجتماعية على أساس «التعاون»، والبناء للفرد والمجتمع معاً في «توازن وواقعية»..

وَعَبَر كلَّ المجالات التي تُنَظِّمُ قضايا الفرد والمجتمع في الإسلام؛ لِيَسُودَ التوازنُ والواقعيةُ فلا ينفصل الفرد نفسياً وسلوكياً عن المجتمع، ولا يسرقُ المجتمعُ حقوقَ الفرد تحت شعارٍ من الشعارات الحالمة الكاذبة.

وإلي جانب ذلك فإنه في المجتمعات التى تَطْغَى فيها حقوقُ الفرد تنسحقُ أمامَها بالضرورة حقوقُ أفراد كثيرين آخرين يمثلون معظم المجتمع.. وفي المجتمعات التي تُنَسَقُ فيها حقوقَ الفرد تصبح القاعدةُ هي هذا الانسحاقُ للفردية البشرية.. أي أن التيارين بإيجاز ينتهيان إلى مصير واحد هو سيطرةُ قلة (باسمَ الفردية أو الجماعية) تستبدُ بالكثرة التي تعيش في كَلا المَجتمعين ـ في ظَل هذا التصور ـ «فكلٌ منهما ـ الفرد في النظام الشيوعي الجماعي أو الرأسمالي الفردي ـ ليستْ له إرادة يرتفع بها فوقَ مجالِ الضغط والإكراه».

«كلُ منهما يكادُ يفقدُ إنسانيتَه، لأنه يفقدُ حريتَه الفردية بسبب أو بآخر. كلُ منهما تابعُ وخاضعُ»(١).

والتفسير الوحيد لهذه النتيجة التي تنتهي إليها المجتمعات الشيوعية أو الرأسمالية هو انعدام التوازن والواقعية في النظرة، وإقامة صرح الحياة الاجتماعية علي أساس الصراع، وتجاهل قيم الإيمان التي يشيعها الإسلام في المجتمع، سواءُ كان المجتمعُ أفراداً متناثرين ـ لم يتكونوا بَعْدُ في مجتمع رسمى كشأن المسلمين في مكة قبل الهجرة، أو كانوا مجتمعاً قانونياً كشأن المسلمين في المدينة بعد الهجرة.

فالتوازنُ والتعاونُ والحبُ قيمٌ موجودةٌ سائدةُ في كلتا الصورتين اللتين مر بهما المجتمع الإسلامى ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾(٢) ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾(٣).

جدير بالتنويه إلي جانب ما ذكرنا أن النظرة الإسلامية لم تجمعْ بين الفردية والجماعية في توازن وحسب، بل منح الإسلامُ للفرد حقوقه وفَرَضَ عليه في مقابلها واجبات متوازنة مخصوصة للجماعة.

وبهذه الصورة ظهر بين الفردية والاجتماعية في الإسلام توافق غريب حيث يتيسر للفرد نماءُ قوته، وارتقاءُ شخصيته. ثم يصبح عوناً بقوته الراقية فيما فيه خيرُ وسعادةُ للمجتمع(٤).

وبإيجاز شديد إن النظرة الإسلامية «للمسألة الاجتماعية» ليست صورة مجنحة في خيال شاعر، ولا لوحةُ صماءَ بريشة فنان، ولكنَّها واقعٌ حيٌّ متحركَ شامخُ

---

(١) د/ محمد البهى: طبقية المجتمع الأوربي، ص ٦٦.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) الأنفال: ٦٢, ٦٣.

(٤) أبو الأعلى المودودى - «نظرية الإسلام وهديه»، ص ٥٦.

أنشأته الدعوة الإسلامية، وقام بأمر الله الذي لا يُؤلِّفُ بينَ القلوب سواه [١].

إنها نظرة تتجهُ إلى الإنسان بكل طاقاته، وفي كل حالاته.. في قوته وضعفه، وفي نوازعه وأشواقه، بلحمه ودمه وأعصابه، بجسمه وعقله وروحه.

إن الإنسان الذي تتجه إليه النظرة الإسلامية، ليس هو الإنسان الذي يَصُوغُه ذهنٌ تجويدي، ويَؤَلِّفُهُ من عدة قضايا ذهنية، أو الإنسان الذي يَضَعُهُ المنطقُ الوضعيّ في أسفل سافلين، ويجعلُه مخلوقاً من مخلوقات «المادة الصماء، أومخلوقات الاقتصاد» [٢].

ومع رفعة النصرة الإسلامية للإنسان، ونظافتها ورَبَّانيَّتها وشمولها ومثاليتها، هي في الوقتَ نفسه نظرةٌ للإنسان في حدود طاقاَته الواقعية، وهي نظام لحياة هذا الكائن البشري الذي يعيش علي هذه الأرض، ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويتزوج ويتناسل، ويحب ويكره، ويرجو ويخاف ويزاول كل خصائص الإنسان الواقعي كما خلقه الله [٣].

إن نظرةَ الإسلام «للمسألة الاجتماعية».. هي نظرة دين سماوي صادر عن الإله القادر المحيط الحكيم، وليست نظرةً عاجزةً صادرةً عن كائن بشرى يتعرضُ للمرض والضعف والسقوط.

---

(١) عمر عودة الخطيب - «المسألة الاجتماعية»، ص ٢١٠.
(٢) الأستاذ سيد قطب - «خصائص التصور الإسلامي»، ص ٢٠٦.
(٣) الأستاذ سيد قطب - «خصائص التصور الإسلامي»، ص ٢٠٦، بتصرف.

٥- المناهج البشرية لعلاج المسألة الاجتماعية

تعددت المناهج البشرية لعلاج «المسألة الإجتماعية»، وتباينت فيما بينها، بين التعصب للفرد كالنظرية الرأسمالية، والتعصب للمجتمع كالشيوعية والإشتراكيات المختلفة، والتلفيق بين شيء من هذه النظريات وتلك كالاشتراكيات الديموقراطية.

والحق أن هذه النظريات كلَّها - نتيجة عدم وعيها بطبيعة الإنسان - قد وقعت في أخطاء أساسية عامة على الرغم من تباين النظرة فيما بينَها.

والجدير بالتنوية أن هذه العيوبَ العامةَ المشتركةَ تُمَثِّل خَللاً أساسياً ممتداً في البناء المذهبي لهذه النظريات لا يمكن تقويمَه، كما تُمَثِّلُ بعداً من أبعاد تَفَوَّق المنهج الرباني. وتُعَتبرَ - في الوقت نفسه - أبرز الفروق بين المنهج الإلهي والمَناهج البَشرية في علاج المسألة الاجتماعية.

مآخذ أساسية على المناهج البشرية في علاج «المسألة الإجتماعية»:

أولاً: اعتمادها علي الأساس المادى:

فإن المذاهب البشرية لا تختلف من ناحية الأساس الاعتقادي، فكلها - من أقصي اليمين الرأسمالي، إلي أقصَى اليسار الشيوعي - تنطلقُ من تصور مادىّ للحياة.

إنها لا تؤمن بالخالق المبدع المهيمنِ على هذا الكون، ولا تؤمنُ بالغيبيات من ملائكة وكتب منزلة ورسل، وبعثٍ وحَسابٍ وعقابٍ وقضاءٍ وقدرٍ وغاية عُلْيَا مقصودةً من رحلة الحَياة.

إنهـا لا تؤمنُ بهـذا كلّه، وتجعلُ ذلك كلّه فكراً «لا علميـاً» و«لا عقليـاً». يقول «برتراندرسل» الفيلسوف الإنجليزي الذي يعتبره الأوربيون أوسعَ مفكري العصر علماً ودراسة في كتابه «لماذا لستَ مسيحياً؟». . يقول ما ترجمته: «إنني أعتقد أن كل الأديان العالمية الكُبرى، كالبوذية والهندوكية والمسيحية والإسلام

باطلةٌ وضارةٌ»[١].

وقد أعلن «تينْدال» ـ أحد علماء القرن التاسع عشر: «أن العلمَ يكفي الآنَ وحدَه لمعالجة شئون الإنسان»[٢] ويعني أنه لم يعُدْ هناك حاجة للتصور الديني، وما يتبعه من أخلاقيات وتشريعات.

ومثل أقوال «رسل» و «تينْدال» الممثلين للجناح الرأسمالي في الحضارة الأوربية أقوال «ماركس» و «لينين» الممثلين للجناح الشيوعي الاشتراكي في هذه الحضارة.

يقول ماركس في البيان الشيوعي (المانفستو) الذي صدر سنة ١٨٤٨م ما نصه: «لا إله، والحياةُ مادةٌ» ويقول «لينين»: سنة ١٩١٣م: «ليس صحيحاً أن الله هو الذي يُنَظِّمُ الأكوانَ، إنما الصحيحَ أن اللهَ فكرةٌ خرافيَةٌ اختلقهَا الإنسان ليبررَ عجْزَه».

وهكذا.. وعلى الرغم من تمويه هؤلاء وأولئك بترك بعض دور العبادة تعيش مفرغة من رسالتها وكأنها متاحفُ تاريخية ويتضح الأساس المادي للحياة في ظل التصر الأوربي، رأسمالياً وشيوعياً.

ومن هذا التصور الفكري المادي تَنْعكسُ سلوكياتُ اجتماعية واقتصادية وسياسية، وتتحركُ كلُّها، في دائرة الصراعَ المادي الدّنْيَوي، الذي لا يرفع بصره إلى أعلى، والذي أخذه الغرورُ والأنانيةُ والظلمُ كلَّ مأخَذ.. فيجلسُ على كرسيِّ العلم الظنيّ، رافضاً الاعترافَ بحقِّ الله في الهيمنة والتصَرف والحكم، أو كما يقول الأستاذ «كريس موريسون» ـ رئيس أكاديمية نيوَيورك سابقَاً ـ مصوراً حالة هؤلاء الماديين ونتائج انحرافهم:

«إن الإلحاد نوعٌ من الأنانية...»

«لسوف تُقْضَى هذه الحضارةُ بدون العقيدة والدين..»

---

(١) انظر في مناقشة هذا المفكر الملحد كتاب «الدين في مواجهة العلم»، فصل أفكار «برتراندرسل» والكتاب من تأليف «وحيد الدين خان» مراجعة وتعليق: «عبد الحليم عويس».

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠.

«سوف يتحول النظامُ إلى فَوْضَى. . سوف ينعدم التوازنُ وضبطُ النفس والتماسك. . . »(١).

ثانيا: انطلاقها من نظرة هابطة للإنسان.

فبينما يرفض الإسلام أن ينظر إلى الإنسان على أنه حيوانٌ، سواءُ كان ناطقاً أو ضاحكاً ـ كما يقولون ـ، وبينما يكَرِّمْ الإسلامُ الإنسانَ. ويضَعُه في منزلة مستقلة. . في أحسن تقويم، ويفضله على كثير ممن خلق الله، ويجعله خليفةَ الله في الأرض. .

تذهب المذاهبُ البشرية إلى عكس ذلك تماماً، فهي لا ترى الإنسانَ إلا «حيواناً بيولوجياً» أو «كائناً إقتصادياً» تحركه المادةُ، وتُخضعُه ـ في كلِّ انطلاقاته الفكرية والإجتماعية ـ لقوانينها وضُغُوطها.

ومن هناك ـ وعلي اختلاف فى مستوى التصور - تتفق الرأسمالية والاشتراكية في أنهما يعالجان «المسألة الاجتّماعية» بالمنظار المادى الغرائزي، وهما يعتقدان أن حلَّ مشكلات الإنسان الإقتصادية تعني إشباع كلِّ كيانَه الإنساني، متجاهلين الطاقات الإنسانية الأخري العقلية والروحية والوجدانيةَ.

يقول الأستاذ «فتحي يكن» مصوراً هذه الخصيصة في المذاهب المادية: «إننا لا نكونُ مبالغين إذ قلنا: إن المقاييس التى اعْتَمَدتْها المذاهبُ الحديثة من رأسمالية وشيوعية واشتراكية في تقويم الواقع البشريّ الإنساني ليستْ بشريةً وليستْ إنسانيةً.

وأمثالها قد يصلح، ولكن لمجتمعات بهيمية ليستْ في حاجة أساساً لغير المتطلبات المادية الصِّرْفَة، وأما أن تكون مرشحة لتنظيم حياة الإنسان ذات المطالب والخصائص الفطرية المتعددة، فهذا مالا تستطيعُه بحال، لأنها تفْقدَ عناصَره الأساسية. .(١)

---

(١) بتصرف من كتاب «حركات ومذاهب في ميزان الإسلام»، ص٥.

ونحن نجد أنه بينَما يقومُ النظام الرأسمالي على دَعامتين ماديتين يتلخصان في :-

١- العداءُ لكل ما هو دينى، نتيجة بناء الحضارة الرأسمالية على أنقاض الكنيسة.

٢- البحثْ عن الثروة الشخصية والملكية الذاتية الرهيبة المتجبّرة التي تسحق كلّ القيم والإنسانيات، بل وشعوباً بأكملها وصولاً للسيطرة على رأس المال.

بينما يقوم النظام الرأسمالي علي هذين الأساسين غير الإنسانيين[1] يقوم النظام الشيوعي على الأساسين التاليين :

١- تفسير الحياة اقتصادياً وضرورة سيطرة الطبقة العاملة (البروليتاريا) على سائر الطبقات، وسحق الطبقات الأخرى بالعنف الدموي عن طريق الانقلابات غير المشروعة.

٢- الإيمان بصراع الطبقات كمحرك للحياة الإجتماعية، وتفريغ الحياة من معاني الحب والكرم والتعاون والمعاني الأخلاقية الأخرى.

أي أن المذهبين المنتشرين في عالم اليوم يفتقدان معاً النظرة الإنسانية للحياة وللبشرية، وهما معاً يدوران في فَلَك حيوانية الإنسان، وليس في فلك الإنسانية الكاملة العالية التي يُركّزُ عليها الإسلامَ.

ثالثاً: القصور والانحراف والظلم:

فهذه أيضاً من الخصائص اللازمة للمناهج البشرية لأنها مناهجُ جزئيةٌ قاصرة، غيرُ متوازية. عاجزة عن التصور الشامل والتجرد الموضوعي.. وبالتالى فهي - بالرغم عنها أو بإرادتها - منحازةٌ منحرفة.

ولئن كانت الطبقة الرأسمالية في التجمع الرأسمالي (الليبرالى) هي الطبقة

---

(١) راجع: الرأسمالية والإنسان العربي. مقال بمجلة المجتمع - عبد الحليم عويس، أغسطس، ٧٣م

المسيطرة المتمتعة بالخيرات والسيادة، فإن «الطبقة العمالية» في النظرة الشيوعية هي المسيطرة على المجتمع «هذا من ناحية النظرية فقط، وأما عملياً فالحزب الشيوعى هو الطبقة المستبدة المرفهة المُنَعَّمَة. . . أمّا في الإسلام فالسيادة لله وحده، والناس سواسية كأسنان المشط، بلا طَبَقيّة أو سيطرة طبقات على أُخْرَى.

وهم أمام القانون الإلهى سواءٌ في الحقوق والواجبات، كلُ حسب إمكاناته وطاقاته، والرسول ـ ﷺ ـ يقول لفاطمة: «يا فاطمةَ بنتَ محمدٍ.. اعملي، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً». . ويقول: «ألا لا فضل لعربيّ على عَجَميّ ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمرَ على أسودَ ولا لأسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى»[1].

إن جزئيةَ هذه النظريات واختلالَ موازينها وقصورَها، وعجزَها عن تحقيق الشمول والاعتدال في النظرة «للمسألة الاجتماعية» ـ إن هذه الخصائص القاتلة ـ هي السبب المباشر في الحروب الدمويّة والصراعات الطبقية وأساليب الانقلابات التي تهددَ البشرية بمصير نكد، وتضعَ حضارة القرن العشرين في مهب الريح، فإماَ أن ينقذها الدينُ الوحيدُ المنزه عن هذه العيوب، الكفيل بتحقيق الصياغة الوحيدة الملائمة للإنسان وللحياة الإنسانية، وإما أن يصيب هذه الحضارة ما أصاب ما قبلها من الحضارات التي فشلت في تعديل مسيرتها. . وليس ما يصيبها إلا المصير الوحيد الذي حدده كتاب سماوي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

صدق الله العظيم.

---

(١) رواه البيهقى.

(٢) يونس: ٢٤.

٦- مقومات المجتمع الإسلامى

تمهيد :

المجتمع الإسلامى هو هذه الهيئة المعنوية والمادية التى تَضُمُّ المسلمين الذين رَضَو الإسلام دينا ، عن طواعية وإيمان وإرادة ذاتية .

وهذا المجتمعُ وإنْ ارتبط منذ الهجرة إلى المدينة - بشكل فريد من أشكال الدولة إلاأن ثمةَ فروقاً أساسية يتميز بها هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات التى نشأت فى التاريخ :

فهذه الصور الشاذة كانت تجرى غالباً من قبل الحكام الذين كثيراً ما انفصلتْ عنهم الجماهيُر نفسياً وفكرياً ، وهذه الصور أيضاً كانت تُقابَلُ باستياء عام من الحس الإسلامى الذى كونه القرآن ، والذى يستلهم من حياة النبى - عليه الصلاة والسلام - فى ارتفاعها وعظمتها ومَثَلَه الأعلَى وأملَه المنشود ، ولعل هذه الصور الشاذة التى استهجنها المجتمُع الإسلامى كانت أمراً مألوفاً وقانونياً فى المجتمعات الجاهلية التى عاشت - ولا تزال تعيش - على هذه الأرض .

أما القاعدة فى هذا المجتمع ، فهو أنه مجتمع بشرىّ راق عقلياً وخُلُقياً ومادياً ، وأنه مجتمع هدفُه إعلاء كلمة الله فى الأرض ، عن طريق تحقيق المقومات الإسلامية للمجتمع ، وأهمها : -

١ - العقيدة .

٢ - التكافل الاجتماعى .

٣ - الأخوة

٤ - المساواة .

٥ - التوازن بين الفرد والمجتمع .

وفى إيجاز نتناول هذه المقومات فى الصفحات التالية بإذن الله .

الأساس الأول : « العقيدة »

يرتكز المجتمعُ الإسلامى بالدرجة الأولى على دَعَامة العقيدة ، ولقد مكث الرسولُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكةَ ثلاث عشرةَ سنة ينشر العقيدة ، ويزرعها فى نفوس المسلمين ، حتى إذا ما وَجَدَ المسلمونَ فى المدينة مكانهَم الملائَم للعمل الآمن للإسلام كان سهلاً أن تنشأ دولةُ الإسلام فى واقع الأرض لأنها كانت قد نشأت فى داخل النفوس والضمائر والعقول .

والإسلام ليس نظرية إصلاحية فى مجال من مجالات الحياة ، بل هو قبل كلٍّ شىء عقيدةٌ دينية ، يُقيم كلَّ نظراته فى المجالات المختلفة على أساس من تصوره العَقَدىِّ الربَّانِّى . . ويَرى علماءُ التوحيد أنَّ الإيمان هو الاعتقاد الجازم (وليس المذبذَب) المطابق للواقع ـ وليس الباطل ـ الناشىء عن دليل (ليس تقليداً أعمى) . . هذا الإعتقاد هو الأساس السليم للإسلام وللمجتمع المسلم .

إن العقيدة غذاءُ الروح ، كما أن الطعامَ غذاءُ الجسم ، والمذاهب التى تُغذى الجسم فقط تَذْبُلُ وتموتُ لأنها لم تدرك فطرة الإنسان ولم تُشْبعها .

أما الإسلام فقد أدرك هذه الفطرة وقد أشبعها أيضاً ، كما أن من خصائص العقيدة أنها تملك قوة وسلطاناً على الفكر والإرادة لدى الإنسان ، فتدفعه إلى أنواع من السلوك الذى يتلاءمُ مع مقتضيات هذه العقيدة بل كثيراً ما تدفع العقيدة الإنسان إلى كثير من الأفعال الكبيرة والخطيرة تلبيةً لنداء العقيدة التى يُؤمن بها [١] .

إن عَلاقةَ العقيدة الإسلامية بالنظام الاجتماعى الإسلامي علاقةٌ قويةٌ جليّةَ مُؤثِّرة ؛ لأن هناك ترابطاً أكيداً فىَ الإسلام بين العقيدة والشريعة . . وهذه العَلاقة أساسية فى التصور الإسلامي .

ذلك ؛ لأن النظام الاجتماعى فى الإسلام فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود ، ولمركز الإنسان فيه ووظيفته وغاية وجوده الإنسانى . . وكل نظام اجتماعى لا يقوم على هذا الأساس هو نظام مصطنع لا يدومُ أو لا يعيش ، وإذا

---

(١) بتصرف من «مبادئ الثقافة الإسلامية» د/ فاروق النبهان ، ص ١٠٢ .

عاش فترةً شقى به الإنسان ، ووقع فى التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتماً ، فهى ضرورة تنظيمية كما أنها ضرورة شعورية [(١)] .

وفى ظل هذا الارتباط الوثيق بين العقيدة والنظام الاجتماعى الإسلامى يمكننا بإيجاز بيان آثار العقيدة فى بناء المجتمع الإسلامى . . وفى النقاط التالية :

١ ـ تغييرُ العقيدة الإسلامية للفرد من الداخل ، بحيثُ يُصبحُ هذا الفرد خاضعاً خضوعاً كاملاً للمقتضيات الروحية المتفوقة على المقتضيات الجسدية ، ونماذج بلال بن رباح الذى احتمل العذاب الشديد وأصرَّ على دينه ، والأنصار الذين اقتسموا مع إخوانهم المهاجرين كلَّ شيء يملكونه دون تحفظات أكبر دليل على سيطرة الروح على المادة وقيادتها المطلقة للمجتمع الإسلامى .

٢ ـ إشعال هذه العقيدة لجذوة الجهاد . . أى الرغبة القومية فى نشر كلمة الله فى الأرض ، والتضحية فى سبيل ذلك بالنفس والمال ، مما أعطى المجتمع الإسلامى إمتداده البشرى والفكرى المعروف فى التاريخ [(٢)] .

٣ ـ تحرير هذه العقيدة الناس من عبودية الخرافات والأوهام على أساس الثقة فى الله وحده ، وعدم الخضوع لغيره ، وإعطاء هذه الدنيا حجمها الملائم دون تفريط أو إفراط .

٤ ـ تنظيمها للمجتمع على أساس الحاكمية لله ، والخضوع للحق والعدل [(٣)] .

٥ ـ إنقاذها المجتمع من الخواء الروحى والفراغ النفسى والقلق والأمراض العصبية والخلقية التى تضج منها المجتمعات المادية وملء النفس بالطمأنينة والسكينة والثقة ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [(٤)] . . ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [(٥)] .

---

(١) انظر : « خصائص التصور الإسلامى » للأستاذ سيد قطب ، ٢٥ ط ٢ .
(٢) راجع فصل « أثر الفكرة الدينية » فى كتاب « شروط النهضة » للأستاذ مالك بن نبى .
(٣) انظر : د/ فاروق النبهان « مبادئ الثقافة الإسلامية » ، ص ١١٤ .
(٤) الرعد : ٢٨ .
(٥) الفتح : ٤ .

الأساس الثاني : التكافل الاجتماعي :

يُقيم الإسلام علاجه للقضايا الاجتماعية والاقتصادية على أساس معنوى نابع من الإطار الأخلاقى والإنسانى الذى تتكئ عليه كلُّ القوانين الإسلامية .

وعلى الرغم من أن الاسلام قد قدّم إطاراً قانونياً متكاملاً لتحقيق العدالة الاجتماعية ، إلا أن الأساس المعنوى الإنسانى بقى هو الَميْزة الكُبْرَى التى انفرد بها هذا الدين .

والأساس المعنوى يقوم على مخاطبة الإنسان من داخله ، وليس مجرد قيادته من ظاهره ، وتحريك ضميره بدل سوقه بالقوة القاهرة ، واستجاشة مشاعر الفطرة النبيلة بدل تحويل الحياة إلى صراع كئيب .

والحق أن الإسلام فى تشريعه الاجتماعى قد اعتمد هذا الأساس المعنوى على نحو لم تصل إليه أرقى النُظُم التى ظهرت فى التاريخ ، وقد أطلق على هذا الأساس اسم « التكافل الاجتماعى » ولئن كانت بعض البلدان غير «الإسلامية» قد باتت تلجأ إلى أسلوب التكافل الاجتماعى عن طريق ما يُسُمَّى بالجمعيات الخيرية ، ومؤسسات البر ، والمستوصفات والمستشفيات المجانية ، والضمان الاجتماعى وحماية الضعفاء وما إلى ذلك . . إذا كان الأمرُ كذلك فليس ما تفعله هذه الدولة إلاّ تقليداً متأخراً منها لما جاء به الإسلام منذ أربعةَ عشرَ قرناً ، بعد أنْ طحنتها القوانين الجافة وأساليب الصراع الاجتماعى .

ومع ذلك فهناك فروق أساسية بين الإصلاحات الاجتماعية لهذه الدولة ، وبين النظرة الإسلامية أهمها : ـ

١ ـ أن إصلاحاتها لا زالت فى دائرة الماديات فقط ، ولم تتسع إلى دائرة قول الله : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ كما أنها لم تستطع الارتفاع إلى مستوى قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام : « مَثَلُ المؤمنين فى توادِهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذ اشتكى منه عضو تَدَاعَى له سائرُ الأعضاء بالسهر والحُمّى » (١) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

٢ـ وهذه النُظُم جعلت هذه الإصلاحات ، أو الكفالة الاجتماعية مقابل واجب مادي يلتزم به الفر د، أما في الإسلام فلا مقابل ، إذ أن التكافل يعتمد على فضول مال الأغنياء وعلى الدولة .

٣ـ ثم إن هذه النظَم تَعْتَمُد على القانون وحده ،أما الإسلام فيعتمد علي إثارة الضمير وتوجيه الوجدان وتحريك المشاعر (١) .

٤ـ الإسلام يمزج في تكامله بين القواعد الدينية والقواعد التشريعية ، ويجعلها كلها عبادة يثاب على أداء حقها كاملاً ، فالمجتمع الإسلامي لا يقوم على تجمع مادىّ جغرافي بشري ، بل يقومُ على تَجَمُّع عَقَدىّ روحىّ تُعتبر العقيدةُ فيه عنصراً للتوحد الاجتماعي ، والترابط الشعوري ،والإخوة الإنسانية .

٥ـ هذا بالإضافة إلى أنَّ التكاملَ الاجتماعىّ في الإسلام إذ ينبثق من الخصائص الإنسانية التي أحلّها القرآن والسنة ، يصبح أداة فعّالة في حفظ كيان المجتمع الإسلامي من الخُذْلان والتدهور (٢)، أي أنه تكافل من المجتمع وَالأفراد تعود نتائجه أيضاً على المجتمع والأفراد .

مظاهر التكافل الاجتماعي في الإسلام :

تتعدد صور التكافل الاجتماعي في الإسلام ، فتمتد إلى كل العلاقات الاجتماعية ، لكننا نستطيع أن نوجز أهمها في المظاهر التالية :

١ـ التكافل الخُلقُي : ويُقصد به إيجاد تعاون اجتماعي عام لإيجاد روح اجتماعية تُنكر المنكر وتُشيع المعروف ، ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٣) . فكل فرد في المجتمع الإسلامي ، وكل مسئول عن موقع ما ، مهما اختلفت المستويات والطاقات ، مسئول عن إشاعة المعروف

---

(١) راجع عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الإسلامية ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ بتصريف وراجع العدالة الاجتماعية للأستاذ/ سيد قطب ، ص ٦٣ .

(٢) مجلة الأصالة الجزائرية ، عدد ١٣ ، ص ٤٩ .

(٣) آل عمران : ١٠٤ .

وإزالة المنكر : « مَنْ رأى منكم منْكراً فليغيره بيده ، فَمَنْ لم يستطعْ فبلسانه ، فَمَنْ لم يستطعْ فبقلبه وهو أضعفُ الإيمانِ » [١].

كما أن المجتمع ـ أفراداً أو حكومات ـ مسئول عن حماية دماء الناس وأعراضهم وأموالهم « كلُّ المسلم على المسلم حرام ، دمه وعرضه وماله » [٢]، وذلك ليشيع الأمن والخير والحبِّ في المجتمع .

٢ ـ التكافل الذاتي . . أي رعاية الإنسان لنفسه ، عن طريق تزكيتها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [٣]، والارتفاع بها والسير في طريق النجاة ، ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [٤].

٣ ـ التكافل الأسَرىّ . . أي رعاية الإنسان لأهله . . لوالديه وإخوته وزوجته وأولاده ، وقد روى النسائي عن طارق المحاربي قال : « قدمتُ المدينة فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول : يد المعطى العليا وابدأ بمن تعول : أُمَّك وأباك فَأُخْتك وأخاك ، ثم أدناك أدناك » ، ومن ذلك أيضاً قول القرآن الكريم : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ .

٤ ـ وهذا التكافل الأسرى يمتد ليشمل كل ذوى الأرحام ، وقد أعطى الإسلام ذوى القربى حقوقاً من حقهم أن يطالبوا بها قانونياً قال ـ تعالى ـ : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ « وقيمة هذا التكافل في محيط الأسرة أنه قوامها الذى يمسكها والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع ، وهى تقوم على الميول الثابتة في الفطرة الإنسانية ، وعلى عواطف الرحمة والمودة ، ومقتضيات الضرورة والصلة» .

٥ ـ حق الجار والقرآن يقول في حق الجار : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ

---

(١) رواه مسلم والترمذى وأبو داود والنسائى .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) الشمس : ٩ ، ١٠ .
(٤) البقرة : ١٩٥ .

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ (١) ، وقال - عليه السلام - : «أحسن إلى جارك تكن مسلما » (٢) ، وقال أبو ذر الغفارى : عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أوصانى خليلى - صلى الله عليه وسلم - . إذا طبخت فأكثر المرق ، ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها » (٣) .

« وليس الجار هو الملاصق كما يظن بعض الناس ، فقد روى فى الآثار أن أربعينَ داراً جار ، وفسرها بعضهم بأربعين من كل جهة من الجهات الأربع ، فأهل كل حى إذن جيران بعضهم لبعض قالت عائشة : قلت : يا رسول الله ، إن لى جارين ، أحدهما مقبلٌ علىّ ببابه والآخرُ ناء ببابه عنِّى ، وربما الذى كان عندى لا يسعهما ، فأيهما أعظم حقاً ؟ فقال : المقبلُ عليك ببابة » (٤) ، فالإسلام يريد أن يجعل من كل حى أو شارع وحدة متكاملة متعاونة بحيث يحمون ضعيفهم ، ويطعمون جائعهم ، ويكسون عاريهم ، وإلا برئتْ منهم ذمّةُ الله وذّمة رسوله ، ولم يستحقوا الانتماءَ إلى مجتمع المؤمنين » (٥) .

٦ - وللفقراء والمعَوُزين حق فى مال الأغنياء ، إلى أن يكتفوا ، إذا لم تكفهم الزكاة المفروضة ، ويقول الإمام أبو محمد على بن حزم المتوفى سنة (٤٥٦) فى موسوعته الفقهية « المحلىّ » عن ذلك :

« وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكاة بهم ، ولا فى سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بُدَّ منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنّهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة . .

وقال ابنُ حزم أيضا : « ولا يحل لمسلم مضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضلٌ عن صاحبه المسلم أوالذمّى ؛ لأنه فرضٌ على صاحب الطعام

(١) النساء : ٣٦ .
(٢) رواه ابن ماجة .
(٣) رواه مسلم .
(٤) انظر : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٣٠ .
(٥) المصدر السابق .

إطعام الجائع ، فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميته ولا إلى لحم الخنزير ، وله أن يُقَاتِلَ عن ذلك ، فإن قُتِلَ المانع فإلى لعنة الله ، لأنه مَنَعَ حقاً ، وهو طائفة»[١] .

٧ـ كفالة أهل الذمة ، ففى المجتمع الإسلامى يمتد التسامح ليشمل كل الخاضعين للقانون ، المنضَوين تحت حماية المجتمع الإسلامى .

وقد منح الإسلامُ أهل الذمة من أهل البلدان التى فتحها حقوقاً تمنحهم الأمان والاطمئنان على معتقداتهم ، إذا شاءوا البقاء عليها ، ما لم يقفوا فى وجه الإسلام بطريق أو بآخر ، وفى سلوك الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع يهود المدينة ، وسلوك المسلمين بعد ذلك على امتداد التاريخ ما يؤكد سمواً المعاملة التى عومل بها هؤلاء ونحن نجد فى كتب « النُظم الإسلامية » مثل : « كتاب الأموال » لأبى عبيد القاسم بن سلام ، و« كتاب الخراج » لأبى يوسف ، و «كتاب الخراج » لقدامة ابن جعفر ، و كتاب « الأحكام السلطانية » لأبى الحسن الماوردى[٢] ، نجد فى هذه الكتب وغيرها تفاصيل المعاملة النادرة السامية التى عومل بها هؤلاء الذِمِّيُون .

ولعل من أكبر صور السموّ فى هذه المعاملة تلك الكفالة الاجتماعية التى ضمنها المجتمعُ الإسلامى لهؤلاء فى حالات عجزهم وضعفهم ، وقصةُ عمر ابن الخطاب مع اليهودى وفرضُه له مالاً ـ راتباً ـ من بيت مال المسلمين أكبرُ دليلٍ على ذلك .

هذه هى بعض صور التكافل الاجتماعى ، وثمة صور أخرى كثيرة تلتزم بها الدولة الإسلامية ، وصور أخرى تقوم على الصدقات الفردية والكفارات والنذور والأوقاف . .

وهذه الصور طبقها المسلمون ، وأسهمتْ فى خلق مجتمعِ إسلامى متكافلٍ نادر المثال فى التاريخ .

وقد سرد ـ المرحوم ـ الدكتور مصطفى السباعى[٣] ، ثلاثين مظهراً من مظاهر

---

(١) المحل ، جـ٦ كتاب الزكاة ، مسألة ٧٢٥ .
(٢) د / حسين مؤنس : عالم الإسلام ، ص ٢٩٥ .
(٣) فى كتابه : من روائع حضارتنا .

التكافل الاجتماعى فى العالم الإسلامى ، من بينها إنشاء المساجد والمدارس والمستشفيات والفنادق المجانية للمسافرين ، والزوايا ، والسقايات التى تسقى الناس، وبيوت الحجاج العابرين ، وحفر الآبار فى الفلوات ، وأمكنة المرابطة على الثغور ، وأوقاف الخيول والسيوف على المجاهدين ، وأوقاف إصلاح الطرق والقناطر والجسور ، وشراء أكفان الموتى ، ومؤسسات الأيتام واللُّقَطَاء ، ومؤسسات تحسين أحوال المساجين ، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم .

هذه المؤسسات التى عرفها المجتمع الإسلامى ، وحقق من خلالها أروع نماذج التكافل الاجتماعى . . هذه المؤسسات كانت تطبيقاً عملياً لمبدأ التكافل الاجتماعى الذى نادى به القرآن حين نادى جماعة المسلمين :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ (١) ، صدق الله العظيم

الأساس الثالث : الأخوة

الأخوة العامة بين المسلمين أساس من أسس تكافلهم الاجتماعى إنسانياً ومادياً والقرآن يجلّى هذه الأخوة وخصائصها عندما يقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٣) .

وعند هاجر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى المدينة كانت المؤاخاة بين المسلمين من أولى الركائز التى اعتمد عليها فى بنائه لمجتمع المسلمين ، وقال لأصحابه من المهاجرين والأنصار : « تآخوا فى الله أخوين أخوين » فكان هذا التآخى ـ بما انبثق عنه من ترابط وتكافل اجتماعى وإيثار نادر فى التاريخ البشرى كله ـ كان هذا التآخى ـ « تجربة رائدة » فى تاريخ العدل الاجتماعى ضرب فيه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثلاً على مرونة الإسلام وانفتاحه فى الظرف المناسب على أشد

---

(١) المائدة : ٢ .

(٢) الحجرات : ١٠ .

(٣) الفتح : الآية الأخيرة .

صُور العلاقاتِ الاجتماعية مساواةً وعدلاً [١].

« وقد بلغ من تأكيد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على المؤاخاة أن كان ميراث الأنصارى يَؤول بعد وفاته إلى أخيه المهاجر بدلاً من ذوى رحمه من الإخوة أو الأبناء أو النساء واستمر الحالَ على ذلك موقعة بدر التى حظى فيها المسلمون بمقادير لا بأس بها من الغنائم والأموال ، فأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ « فعاد التوراثُ سيرتَه الأولى » [٢].

ولا نظن مجتمعاً من هذه المجتمعات التى تتشدق بالعدالة الاجتماعية تحت شعارات الاشتراكية أو غيرها يحلم بالوصول إلى شىء من هذه الصورة التى صورها القرآن أصدق تصوير بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [٣].

إن الأخوةَ بين المسلمين من أعظمِ المبادئ التى ارتكز عليها التكافل الاجتماعى فى الإسلام .

بيد أن هذه الأخوةَ التى تجسدتْ عَملَيا فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كأول صورة تطبيقية لها ـ هذه الأخوة للأسف الشديد ـ لم تحظَ من المؤرخين بالأهتمام الكافى ، مع أنها أبرز الظواهر التى تُخرسُ الدعاةَ المُزَيفِّين للعدالة الإشتراكية فى العصر الحديث ، وتكشف بجلاءٍ عن مَدى عظمة النظَرة الإسلامية لعلاج « المسألة الاجتماعية » .

وجدير بالتنوية هنا أن هذه الأخوة ممتدة بين المسلمين إلى يوم القيامة ولئن كانت قد توقفت كأساس للتوريث ، فإنها لم تتوقف كمبدأ إنسانى اجتماعىّ أساسىّ فى حياة الجماعة الإسلامية ؛ لأن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقررها لمجرد إيجاد وسيلة لمعاونة المهاجرين المحتاجين ، وإنّما قَرَّرَها ليؤكدَ للجماعة الإسلامية

---

(١) د . عماد الدين خليل : دراسة فى السيرة ص ١٥٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .
(٣) الحشر : ٩ .

مبدأ الأخوة فى العقيدة والهدف والمثل الأعلى بين أهل الجماعة الواحدة .

ولو أن كل جماعة إسلامية حَرَصَتْ على تطبيق مبدأ المؤاخاة ، وربط أفرادها اثنين اثنين بروابط أخوة قلبية وإنسانية ومثالية لكان لذلك أثره البعيد فى تطور العَلاقات الإنسانية فى داخل الجماعات الإسلامية ، ولَكانتْ هذه الروابطُ الروحية بينَ الناس قد أصبحت عواملَ قوة دائمة تُعيُن الجماعة الإسلامية على الثبات والسير إلى الأمام(١) ، فضلاً عن حفظهَا لكيَانِ المجتمع كأقوى ما يكون ترابطاً وتعاوناً وحُبّاً .

الأساس الرابع : المساواة

تعتبر المساواة بين الناس ركيزة اجتماعية أصيلة فى المنهج الإسلامى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (٢) .

وهكذا ، ومنذ الأصل والنشأة ، كانت المساواة أصيلةً فى المنهج الإسلامى ويمثل النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أقوى وأول تطبيق حىّ لهذه الركيزة فى الإسلام .

إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يمشى فى دروبِ المدينة ، وفى أسواقها ومع أهلها صغاراً وكباراً ، أغنياء وفقراء . . كما يمشى كلُّ الناس .

كان بسيطاً فى مَلْبَسه ومَأكَله ، لا يكاد يمتاز على الناس بشىء : فهو يأكل كل ما تُيسِّرَ له من الطعام المباَح إذا وُجِدَ ، ويكتفى بتمرات إذا لم يَجْدَ غيرَها ، يجوعُ كالناس . .

ولما بادر ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى إنشاء الجماعة الإسلامية لأول نزول المدينة ، لم يُنْشئهَا فى صورة نفر من الحواريين أو الدعاة ، وإنما أنشأها فى صورة مجتمع إنسانىّ متساوٍ متكامل يمثل جميعه « أمة الدعوة » ، بلا أفضلية طبقية ، لا

(١) د . حسين مؤنس : عالم الإسلام ص ١٣٩ .
(٢) النساء : الآية الأولى .

من جهة أصول الدين ، ولا من جهة التطبيق فى الدنيا ، وإنما تُحَدَّدُ الأفضليَّةُ على أساس ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وبينما يَحْكي النصارى أنفسُهم أن عيسى - عليه السلام - كان لا يسيرُ إلا وسط حوارييه ، ولا يتكلم إلا معهم ، إذا تكلم مع غيرهم عد هذا أمراً غريباً ينطوى على حكمة بالغة ، وكلامه كله رموز ومجازات وكنايات تَحْتَملُ معانَى شتىً .

بينما نجدُ محمداً - صلى الله عليه وسلم - يعيش وسط الناس جميعاً كواحد منهم ، يتحدث إلى كل من يريد أن يستفسره فى أمر ، ويتكلم معهم ويداعب أطفالهم بكلام يناسبهم (١) .

وهكذا - ومنذ البداية - كانت المساواة - نظرياً وعملياً - أصيلة فى المنهج الاجتماعى الإسلامى . . ولا يؤثر فى ظل ذلك أن يتمايز الناس ثراءً وفقراً . . أوقوةً وضعفاً . . أو كفاية وقدرة وإنتاجاً . . أو علماً وخبرة . . أو يتمايزَ فى دروب الحياة كما تؤهلهم قدراتُهم وأعمالهم ، فإن ذلك التمايز كله لن يغير من أصلَ المساواة العامة أيَّ شيء ، ولن يكون أكثر من نتيجة طبيعية لأسباب مكتسبة ، بل لن يكون فى حقيقته إلا التحقيق العادل لأصول المساواة .. . ذلك لأن المساواة لا تعنى مساواة النشيط بالكسول ، والعالم بالجاهل ، والمجاهد بالقاعد ، والاشتراكية - هو أكبر أنواع الظُّلْم والغَبْن ، وهو طريقَ قصيرَ لتدمير قِيَم العمل والكفاية والجد والتضحية والإخلاص .

والمساواة فى الإسلام - بمعناها العادل الذى حددناه - ركيزة أساسية فى المنهج الإسلامى لعلاج المسألة الاجتماعية بل هى ممتدة إلى كل أشكال التعامل البشرى الممثل فى الصور والجوانب التالية :

١ - المساواة فى الكرامة البشرية « الأصل » بلا تمايزِ جنسىٍّ أو قبلىٍّ ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (٢) .

---

(١) انظر : د . حسين مؤنس : عالم الإسلام ص ١٩٥ .

(٢) الإسراء : ٧٠ .

٢ـ المساواة أمام القانون ، فالمسلمون ـ حاكماً ومحكومين ـ أمامَ قانون الله سواءٌ .

٣ـ المساواة أمام القضاء ، فالمسلمون جميعاً يُحَاكَمُون لدى محاكمَ واحد مهما تفاوتت مكانتُهم الاجتماعية .

٤ـ المساواة في الحقوق المادية حسب الحاجة ـ عند العَوَزِ ـ وحسب الطاقة والجهد عند الكفاية والثراء .

٥ـ المساواة في التكاليف المادية « أي الواجبات الفردية نحو المجتمع » [1]، كلٌّ حسب قدرته ، وفْقَ شريعة الله في الزكاة ، وهي شريعة لا تُفَرِّقُ بين المسلمين .

والمسلمون اقتداء برسولهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يمارسوا المساواة ، شعاراً نظرياً يتاجرون به كما يتاجر الماديون ، وإنما مارسوها حقيقة معاشة ممتدة إلى داخل أنفسهم تنتزع منها كل نواحي الأثرة والأنفة والشعور الجاهلي بالتعالي والفوقيّة الطَبقيّة .

وهل ينتظرون شيئا بعد أن سمعوا من رسولهم العربّي الهاشميّ قوله : « سلمان منا أهل البيت ! » أجل سلمان من أهل البيت لأنه عَمَلٌ صَالِحٌ ، وكلُّ عملٍ صالحٍ هو من دَوْحَةَ النبُّوة .

ومَنْ سلمانُ هذا ؟ إنه ابن « مويذان » في إحدى قرى فارس ، وقد ظل يتنقل من رقٍّ إلى رقٍّ قبل أنّ يُبْعَثَ النبّي ، فلما أسلم انتقل هذا العبد ـ بالإسلام ـ إلى حاكَمٍ لعاصمَة الإمبراطورية الفارسيّة التي كان بالأمس أحد رعاياها . . بل عبيدها !

وبلال الحبشيّ « العبدِ الذي أعْتَقَهُ أبو بكر » يقول فيه عمر بن الخطاب ـ خليفةُ المسلمين العظيم : « أبو بكر سيدنَا ، وأعتق سيِّدنا » .

وسالم مولى أبي حذيفة كان يرى فيه عمرُ أهلاً للخلافة ، وهو القائل فيه « لو كان سالمُ حيّاً لاستخلفتُه » [2].

---

(١) د . فاروق النبهان : مبادئ الثقافة الإسلامية ، صفحات : ص ٢٥٣ ـ ص ٢٥٦ .

(٢) نقلاً عن أبي الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ص ١٠٩ ، ١١٠ .

إنها تطبيقٌ حيٌّ عمليٌّ . . نابعٌ من تصور إسلاميٍّ ممتزج بالعقل وبالقلب ، قادر على اجتثاث كل مظاهر الطبقية ، وليس مجرد مظاهر خارجية ، لعلَّ التاريخَ لم يشهد ـ فيما شَهِدَ ـ مثلَ هذه المساواة .

لكنْ هَلْ يَعْنى ذلك أن الإسلام ـ والمجتمع الإسلامى ـ لم يتفاضلْ فيه الناس معنوياً أو مادياً ؟

لقد ذكرنا من قبل أن المساواة الحقيقة لا تعنى تحويل الناس إلى قوالبَ من حجارة دون تفاضل فى الخبرة أو العلم أو القوة والضعف .

الطبقات فى المجتمع الإسلامى :

أجل . . هناك طبقات فى المجتمع الإسلامى ، لكنَّها طبقاتٌ لا تنتمى للمعنى الطَبَقيّ السائد فى أوربا ، والمجتمعات الشيوعية المادية .

إنه مجردُ تصنيف فكريّ واقتصاديّ للناس . . مجرد تفاوت يرصد الواقع الذى لا تستقيمُ الحياةُ إلا بتنوّعه .

والقرآنُ الكريم والسنة الشريفة يبرزان هذا التفاوت الضروريّ بين الناس :

١ ـ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١) .

٢ ـ ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٢) .

٣ ـ ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾(٣) .

وثمة آثار كثيرة تُبْرزُ هذا التفاوت الضروريّ ، كتفضيل المؤمن القويّ على المؤمن الضعيف ، وتفضيل مَنْ أسلم قبل الفتح على مَنْ أسلم بعده ، وتفضيل أهل بدر . . وهكذا ، لكنها كلها أنواع من التفاضل لا تغلق باب التكافؤ فى الفرص ، ولا تفرق بين مسلم وآخر أمام القانون ، ولا تنقص من حقوق أحد شيئاً .

---

(١) الحجرات : ١٣ .
(٢) المجادلة : ١١ .
(٣) النساء : ٩٥ .

وحتى التقسيم الاجتماعى لبعض الطوائف العاملة فى المجتمع كتقسيمهم فى بعض كتب النُظُم الإسلامية إلى « أرباب دولة » و « أرباب صنائع » و « أجراء » .

وتقسيمهم - على هذا النحو كما نرى - تَغْلبُ عليه المهَنيّة والحِرَفيّة لا الطَبَقية وهو رصد للواقع ، لا يفرضُ حواجز بين الطبقات كالحَواجز التى كانت تفصَل السادة عن الأقنان ، أو الأشراف عن الغوغاء فى المجتمعات غير الإسلامية ، بل إن التلاحَم عن ذريف المصاهرة والمعاملات الاجتماعية المختلفة قائم بينَ هذه الشرائح ، وكلُّها - أيضاً - أمام القانون والقضاء سواءٌ ، بل إن كلَّها فى الصلاة والحجِّ سواءٌ .

ونختم حديثنا عن المساواة الإسلامية بهذا المثل القاطع للدلالة على مَدَى استئصال الإسلام للنزعات العُنْصُرِيَة والطَبَقِيّة ، وإقراره للتفاوت الخُلُقىُ والسلوكى والفكرى وحده .

تحكى كتب التاريخ أنه لما ذهب المسلمون لفتح مصر ، وتوغلوا فيها حتى وقفوا أمام بابليون رَغَبَ المقوقس فى المفاوضة مع المسلمين ، فأرسل إليهم وفداً ليعلمَ ما يريدون ، ثم طلب أن يُرْسلُو إليه وفداً ، فأرسل إليه عمرو ابن العاص عشرة نفرفيهم عبادةُ بن الصامتَ ، وكان عبادةُ شديدَ السواد طويلاً حتى قالوا إن طوله عشرة أمتار ، وأمره عمرو بن العاص أن يكون هو الذى يتولى الكلام مع المقوقس ، فلما دخلوا على المقوقس تَقَدَّمَهُم عبادة ، فهابة المقوقس لسواده ، وقال لهم : نحُّوا عنى هذا الأسود وقَدِّمُوا غيَره يُكلِّمُنى ، فقال رجال الوفد جميعاً : إن هذا الأسود أفضلَنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيَرنا والمقدم علينا وإنما نرجع جميعاً إلى قوله . فقال المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ؟ وإنما ينبغى أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ، إنه وإن كان أسودَ كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً وسابقة وعقلاً ورأياً وليس يَنْكَرُ السوادُ فينا ، فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسودُ وكلِّمْنى برفق فإنى أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامُك علىّ ازددتْ لك هيبةً .

فقال عبادة - وقد رأى فزع المقوقس من السواد - : « إن فى جيشنَا ألفَ أسودِ هم أشدُّ سواداً منى »[١] .

---

(١) نقلاً عن : « من روائع حضارتنا » للمرحوم الدكتور / مصطفى السباعى ، ص ٦٥ .

وبعد قليل فتح جيش المساواة والعدالة مصر ، وانتصروا على المقوقس والرُّومان جميعاً .

الأساس الخامس : التوازن بين الفرد والمجتمع :

لعل البشرية ما شَقِيَتْ بقضية كقضية عَلاقة الفرد بالمجتمع فمعظم الانقلابات والثورات والمذاهب المتصارعة فى عالم اليوم إنما تتصل بهذه القضية بسبب أو بآخر .

والغريب أن هذه المذاهبَ كلَّها نَسِيتْ ـ فى غمرة صراعها ـ قوانينَ الفطرة ، ونسيت أن الفردَ أساسُ المجتمع ، وبالتالى فبدون فرد قوىّ يستحيلُ قيام مجتمع قوىّ .

وقد نسيتْ أيضاً أن النزعة الفردية والشعورَ الاستقلالى للذات نزعةٌ فطريةَ لا يمكنُ سَحقَها إلا إذا سُحِقَ الإنسانُ كلُّه .

ونسيت أن هذا الإنسانَ الفردَ كائنٌ اجتماعى ، وأنه بدون تجميع ـ بدءاً من آدم وحواء ـ لم يكن فى الإمكان تطور التجمع البشرى واستمراره .

أى أنها نسيت ـ بتعبير وجيز ـ أن النزعة الاجتماعيةَ ضروريةٌ وفطريةُ أيضاً .

إن الخطين معاً ـ الخط الفردى والخط الاجتماعى ـ فطريان ، ففى كل نَفْس سَوِيَة ميلٌ للشعور بالفردية المتميزة بالكيان الذاتى ، وميل مقابل للاندماج فى الجماعة والحياة معها وفى داخلها . . ومن هذين الميلين معاً تتكون الحياة »[1] .

إن الإنسان ـ حين يجوع وحين يتألم وحين يفرح وحين يؤدى عملاً وحين يحب الخير لنفسه . . فى كل هذه الحالات وغيرها يفعل ذلك ويحس بها انطلاقاً من فرديته وحدَها ، لكنَّه مع ذلك يستمدّ نزعتَه الاجتماعية من ميله للأصدقاء والزملاء والجيران وحاجته إلى المعاونة إلى الأهل والأقارب . . أى أن الخطين ـ بإيجاز ـ ضروريان ومتكاملان »[2] .

---

(١) الأستاذ : محمد قطب ، دراسات فى النفس الإنسانية ، ص ١٣٠ .

(٢) راجع فصل « الفردية والجماعة » المرجع السابق .

وقد ذهبت الرأسمالية فى الغرب إلى إبراز الفردية وتعميقها ، حتى لا يبقى للكيان الاجتماعى إزاءَ طغيانها وجودٌ ملائمٌ .

وفى المقابل ذهبت الشيوعية والاشتراكيات إلى إبراز الجماعة ، محطمة فى طريقها كلَّ نزعة فردية فى الإنسان . .

ففى هذه المجتمعات لا وجود للإنسان الفرد بالمعنى الوجودى الحقيقىّ ، فالمواطن ليس إلا عددية مهنية لا رأىَ له ولا إرادة ولا إمكانية استقلال فردىّ فى أىٍّ جزئية من جزئيات الحياة .

والمذهبان ـ كما نرى ـ متناقضان مع قانون الفطرة ، وكلاهما لا يؤدى إلى تحقيق الفرد الراشد أو المجتمع الراشد ، بل يؤديان إلى نتيجة سيئة هى طحنُ الفرد والمجتمع مهما طال الزمان .

أمامنهج الإسلام فى علاج هذه العلاقة بإعتبارها جُزْءًا من منهجه فى علاج المسألة الاجتماعية فيتلخص فى المقومات التالية :

١ ـ حفظ الكيان الفردى ، مع الملاءمة بينه وبين الكيان الاجتماعى ، فهما ليسا طرفى نقيض بل هما متكاملان متعاونان .

٢ ـ إحداث توازن بين الفرد والمجتمع ، فى مجال حقوق كل منهما وواجباته .

٣ ـ إحداث توازن نفسى وخُلُقى فى داخل الفرد ، ليكونَ مُنْطَلَقَاً لتوازنه مع المجتمع .

٤ ـ والمجتمع ـ أيضاً ـ بطبقاته المتوازنة ، وقِيمه الإسلامية المتوازنة ـ مادياً وروحياً ـ يفرض توازنَه على الفردَ .

٥ ـ ومما يَدْعَمُ هذا التوازن إقامتُه ـ فى الإسلام ـ على وعى المسلم بحق الجماعة ، وشعوره بالواجب ، وتنديد الإسلام بالنزعات الانعزالية التى تُنَمِّى الأثَرَةَ والفردية ، وجعلَ الإسلامَ كلَّ عملِ اجتماعىّ نافع عبادةً من أفضل العبادات إذا توفرت النية الحسنة »(١) .

(١) لمحات فى الثقافة الإسلامية ، بتصرف ، ص ٢٤٢ .

٦ ـ ويقرر الإسلام أن التعاون فى المجتمع من قبَلِ الفرد إنما يتم اختيارياً عن رغبة ذاتية وهذا التعاون ليس قاصراً على جانب واَحَد ، ولكنه متعدد الجوانب ويتعدد فيه التوازن والتعادل ، حتى لا تقومَ ظواهرُ الحقد الطَبَقىّ والصراعُ الاجتماعىّ .

٧ ـ وهذا التوازن تصونه عقيدةٌ دينية ، تُهذِّبُ ضميرَ الفرد فى جانبٍ من جوانبها ، وتحفظ للجماعة قوتَها وسلامتَها فى جانبُ آخر .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

الفصل السادس

الإسلام والتيارات الاقتصادية الحديثة

١ ـ سياسة الإسلام الاقتصادية.

٢ ـ الأسس العقدية للاقتصاد الإسلامي.

٣ ـ الأسس الأخلاقية للاقتصاد الإسلامي.

٤ ـ الأسس التشريعية للاقتصاد الإسلامي.

٥ ـ المذاهب الاقتصادية المعاصرة.

سياسة الإسلام الاقتصادية

لا تنفصل سياسة الإسلام الاقتصادية والمالية [١]، عن الشجرة الإسلامية المتكاملة ، ذات الأصول المُوحَى بها ، والملامح الإنسانية العامة .

وليس ما يُقَدِّمُه الإسلامُ من تشريعات اقتصاديه ومالية إلا جزءاً لا بُدَّ أن يرتبطَ بالكلِّ الذى هو الإسلام عقيدةً وشريعةً .

وفى ضوء هذا الأساس الواضح تَتِمُّ معالجَةُ السياسة الاقتصادية الإسلامية فى مستويات ثلاثة :

١ ـ مستوى الأسس العَقَديّة والفكْرية .

٢ ـ مستوى الأسس الأخلاقية الإنسانية .

٣ ـ مستوى الأسس التشريعية .

الأسس العقدية للاقتصاد الإسلامي :

ليس الإسلام نظرية مادية ترسم عالم الإنسان من خارجه ، بل الإسلام قبل كل شيء دين سماوي تتحرك كل تشريعاته صَوْبَ الغاية الكبرى التى تُلَخصُها الآيةُ الكريمة : ﴿ وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ﴾ فعبادة الله وإسلام الوجه له هو غاية الاقتصاد والاجتماع فى الإسلام .

يقول الدكتور محمود أبو السعود : « إن الاقتصاد الإسلامى يتميز عن غيره بأنه جزءَ من عقيدة لا تَقْبَلُ التجزئة ، ولا تحتمل الشرك ، ولا يستطيع أن يعيش الفرد فى ظلها عبداً لشهواته ، لاهثاً وراءَ رغائبه الحسيّة ، إنه اقتصاد يرمى إلى السمّو بالإنسان إلى مرتبة المخلوق المتصل بخالقه أملاً وعملاً ومصيراً » .

ويحدد الأستاذ « محمد باقر الصدر » فى كتابه : « اقتصادنا » خصائص الاقتصاد الإسلامى بأنه : يمتاز بالواقعية والأخلاقية فى وسائله وغاياته ، ويرتبط بالعقيدة التى هى مصدر التموين الروحى لمذهبه .

---

(١) المقصود بالمال فى الاصطلاح الاقتصادى : كل ما ينتفع به على وجه مادى ، أو كل ما يقوَّم بثمن .

وحقيقةً فإن الإنسان فى نظر الإسلام يملك الأشياء ، ويتصرف فيها ، لكنه لا يتحرر فى تصرفاته من حكم الله وأمره وتوجيهه ، وحدوده ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾(١) ، ففى هذه الآية القرآنية اعتبارات خمسة للملكية فى الإسلام :

أ ـ أن لله الملك أساساً وابتداءً .

ب ـ وجوب ابتغاء الإنسان فى عمله وجهَ الله .

جـ ـ ألاَّ يهمل الإنسان حقَّه فى الاستمتاع الحلال على أن تتوفر النية الخيِّرة .

د ـ وجوبُ الإحسان إلى المحتاجين جزاءَ ما أحسن الله إليه .

هـ ـ ألا يكون فى تصرُّفه بثروته ، وإنتاجه ، وصناعته ، فسادٌ فى الأرض أو إساءةٌ إلى الخلق (٢).

وتُعَد ملكية الله للمال هى الأصل فى النظرة الاقتصادية الإسلامية وتَنْبثقُ عن هذه النظرة أحقيةُ كلِّ الناس فى مال الله وليس الأغنياء إلا مستخلفين عَن الله ووكلاءَ له وليس لهم حق الاستئثار به ، واكتنازه ، وترك قطاعات كبيرة من الناس تموت جوعاً أو مرضاً ، والقرآن فى هذا : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (٣) ، ويقول : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (٤)، ويقول شهيد الإسلام الأستاذ عبد القادر عودة فى بحث له عن السلطة المالية : « أما اعتبارُ المال مالُ الله ، وليس أحد أحق به من أحد ، فهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما أُعطيكم ، ولا أمنعُكم إنما أنا قاسم ، أضع حيثُ أُمِرتُ » .

وعنه ـ عليه السلام ـ أخذ عمرُ بن الخطاب هذا المبدأ الاقتصادى العادل ، فقال قولته المشهورة : « والله ما أحدٌ أحقُّ بهذا المال من أحد ، وما أنا بأحق به من أحد ،

---

(١) القصص : ٧٧ .
(٢) الأستاذ : أحمد محمد جمال : محاضرات فى الثقافة الإسلامية ص : ٢٣٨ .
(٣) النور : ٣٣ .
(٤) الحديد : ٧ .

والله ما من المسلمين أحد إلا وله فى هذا المال نصيب ، ولئن بقيتُ لكم ليأتَيَنَّ الراعى بجبل صنعاء حظَّه من هذا المال وهو يرعى مكانه » [1] .

والزكاة المفروضة المتشعبة الفروع ليست مجرد ركن من أركان الاقتصاد الإسلامى ، بل هى ركن من أركان العقيدة الإسلامية ، التى يقوم عليها البناء الإسلامى كله ، وانطلاقاً من هذا التصور وحده حارب أبو بكر المرتدين ، قائلاً لمن ناقشوه فى الأمر : « والله لا أُفَرِّقُ بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتُهم عليه » .

الأسس الأخلاقية للاقتصاد الإسلامى :

يَبْنى الإسلام نظريته الاقتصادية - بعد ربطها بالعقيدة على أسس أخلاقية إنسانية، تمثل الوعاء الذى تَنْصَب فيه التشريعات الاقتصادية .

وتتضح ضرورة هذه الأسس حينَ نُدْركُ أن الإنسانَ ليس آلة تحرك بقوانين جافة، وبالتالى - لابد لكى تنجحَ أيةُ نظريةَ من أن يُمَهَّدَ لنجاحها بوعاء إنسانىّ أخلاقى وبمناخ ملائم للتطبيق .

وأبرز الأسس الأخلاقية للاقتصاد الإسلامى هى :

١ - احترام الفطرة البشرية ، وعدم الاصطدام بها ، سواء عن طريق صيانة الملْكية الفردية ، أو حفظ حقوق المجتمع فى المال .

٢ - التبغيض فى سيطرة المال المطلقة ، والتحذير منها ، ولهذا المعنى تذهب الآيات القرآنية الكريمة : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [2] .

٣ - جعل المال وسيلة لا غاية ، وعنصراً واحداً من عناصر الحياة ، وليس التفسير الوحيد لأنشطة الحياة ، أوالمؤثر الوحيد فيها .

٤ - الوسطية والاعتدال : ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ

---

(١) نقلاً عن : « محاضرات فى الثقافة الإسلامية » ص ١٥٠ .

(٢) التغابن : ١٥ .

فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (١) ، ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (٢) .

٥ - تقييد التصرفات الفردية ، بانعدام الضرر ، فالقاعدة الأصولية هى تطبيق الحديث الشريف : « لا ضرر ولا ضرار » « عن طريق » درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح .

٦ - إعطاء الناس جميعاً حقاً فى المال فى حدود حاجتهم أولاً ، وطاقتهم ثانياً .

٧ - محاربة العجز والفقر والتسوّل والضعف ، وتشجيع المشى فى الأرض ، والسعى فيها ، والعمل الشريف وإن كان ذلك العمل فى النظرة الاجتماعية السطحية هزيلاً .

٨ - إقرار حق معرفة أصل الكسب عن طريق تحرّى مصادره وتطبيق قانون : « من أين لك هذا ؟ » ، وقد كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - وعمر من بعده - يحاسبون عُمَّالهم على مصادر ثرواتهم ، ويصادرون ما يأتى عن طريق استغلال النفوذ ، وما إلى ذلك .

٩ - تحريم الاكتناز ، وتبشير أهله بالعذاب الأليم .

١٠ - الحث على صلة الأرحام ، ولا تتحقق الصلة بغير المساعدة المادية فى حالة العوز .

١١ - الحث على البر والرحمة ، والتعاون بين المسلمين .

١٢ - إعطاء الحاكم المسلم حق توظيف أموال الأغنياء ، وفق ما تقتضيه المصلحة العامة .

١٣ - كما أن للحاكم أن يفرض فى المال حقوقاً غيرَ الزكاة فى حالة حاجة المجتمع إلى ذلك .

---

(١) الإسراء : ٢٩ .
(٢) الفرقان : ٦٧ .

١٤ - إعطاء المسلم المضطر الحق في مقاتلة مانع طعامه أو شرابه الذي يحفظ به حياته - وهو فائض عن حاجة المانع - حتى يحصل على حق الحياة وإذا مات مسلم جوعاً في مدينة أو قرية أو حي من الأحياء اعتبر أهلُ الحي قتلة إن علموا بجوعه ، وكلُّهم ملزمٌ بالإسهام في دفع ديته ، كما مرَّت الإشارة إلى ذلك في كلام ابن حزم .

١٥ - الحجر على السفيه المبذر أو العاصي - لأن المال ليس ملكاً خالصاً للشخص يتصرف فيه تصرفاً سيِّئاً كما يريد .

١٦ - رفض الإسلام للاحتكار في المال أو غيره : ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ (١) .

١٧ - تحريم الإسلام للربا سواءٌ كان بسيطاً أو مركباً - لأن الربا من أكبر صور الاستغلال والتدمير .

١٨ - تشجيع الإنفاق في سبيل الله ، والصدقة ، وإكرام الجار والضيف ، والقرض الحسن ، والصبر على المعسر ، وتفريج الكربات .

١٩ - تحريم الآفات الأخلاقية الاقتصادية كالغشِّ والخداع ، وترويج السلع بالحلف والتضليل ، والكذب بعامة .

٢٠ - محاربة التَّرف ، والنظر إليه على أنه سبيل الهلاك ، وتدمير الحضارات : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾(٢) .

ومما لا شك فيه أن هناك ضوابط أخلاقية إنسانية أُخرى يُمكنُ أن تندرجَ تحت هذه الأُسس التي ذكرناها ، وقد وضُعت كلها لحماية التشريعات الاقتصادية ، وتهيئة الجّو المناسب لنجاحها ، وبالتأكيد فإن المذاهب المادية التي لا ترتبط بعقيدة دينية كالرأسمالية ، والشيوعية - لا تستطيع الاتكاء على هذه الأسس ؛ لأنها أسس

(١) الحشر : ٧ .
(٢) الإسراء : ١٦ .

تخاطب داخلَ الإنسان ، وترتبط بحبه لله وخشيته له ، وانتظار ثوابه فى الآخرة ، وكلُّها معان لا تَهْتَمُّ بها ولا تَنْطَلِقُ منها التصوراتُ والقوانين المادية .

الأسس التشريعية للاقتصاد الإسلامى :

على الرغم من الضمانات التى يفرضها الإسلام لحماية المجتمع ككل فإنه ـ أيضاً فى الجانب المقابل ـ يفرض ضمانات لحماية الملكية الفردية ، باعتبارها الأساس فى البناء الاقتصادى الإسلامى ، ما لم تصل إلى درجة الطغيان ، و التخريب للمجتمع .

أ ـ الضمانات :

وضمانات الملكية الفردية فى الإسلام هى :

١ ـ حق الدفاع عن المال بالقوة المسلحة إذا كان ذلك ضرورة .

٢ ـ تحريم السرقة ، وتشريع قطع يد السارق بشروط محددة : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ (١) .

٣ ـ تحريم الغصب : « من اقتطع مالَ امرئٍ مسلمٍ ـ بغير حق ـ لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبان » (٢) .

٤ ـ تحريم أكل أموال الناس بالباطل .

٥ ـ تشريع الميراث الذى هو طريق أيضاً من طرق الملكية الفردية ، وهو أيضاً حماية لأصحاب الحقوق .

٦ ـ تحريم خيانة الأمانة .

ب ـ وسائل الملكية :

أما مصادر الملكية فى الإسلام فأهمها المصادر التالية :

١ ـ العمل الذى يمتدُّ ليشمل جميع وجوه النشاط الإنسانى المشروعة ، سواء كانت

(١) المائدة : ٣٨ .
(٢) رواه أحمد .

باليد أم بالآلة ، أم بالفكر والعقل ، كالصيد ، والتجارة ، والزراعة ، والصناعة ، و العلم ، ﴿ وأَن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ (١) ، ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ (٢) ، وقال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما يَرْويه عن ربه : «قال الله ـ عز وجل ـ ثلاثةٌ أنَا خصمُهم يوم القيامة : رجل أَعْطَى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنَه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يُعْطِه أَجْرَه » (٣) .

٢ ـ إحياء الموت من الأرض التى لا مالك لها ، وليست بملك عام للأمة .

٣ ـ الغزو : وينشأ عنه فى الإسلام ملكية السلب وتقسيم الغنائم وما يستحقه الغازى أو المجاهد من الدولة له ولذويه .

٤ ـ إعطاء الحاكم بعض الأرض التى لا مالك لها .

٥ ـ الهدايا أو الهبات أو الصدقات إذا كان مستحقاً .

٦ ـ استخراج ما فى باطن (الركاز) وما يلحقه ، ما لم تفرض الظروف الاجتماعية اعتباره ملكية عامة ، وتُعَوِّضُ عنه الفردَ .

٧ ـ الميراث : بحدوده التى رسَمَتْها الشريعةُ الإسلامية (٤) .

جـ ـ قيود على الملكية الفردية :

لكن إلى جانب ما ذكرنا هناك قيود على الملكية الفردية أهمها :

١ ـ مشروعية مصادرها ، بحيث لا تكون مسروقة أو مغتصبةً أو من ربا .

٢ ـ عدم اكتنازها ، لها جانباً وظيفياً اجتماعياً .

٣ ـ عدم تبديدها ، بالإسراف الناتج عن السفه ، وقلة الدين .

٤ ـ عدم استعمالها فى الحرام ، كالزنا ، والقمار ، وغيرهما .

---

(١) النجم : ٣٩ .
(٢) التوبة : ١٠٥ .
(٣) رواه البخارى .
(٤) راجع الأستاذ سيد قطب « العدالة الاجتماعية » ص ١١٩ وما بعدها .

٥ ـ إخراج حق الله فيها بشروطه المعروفة فى كتب الفقه .

د ـ حقوق الله فى المال :

وحقوق الله فى المال هى :

١ ـ الزكاة : وهى فريضة دينيّة ماليّة وعينيّة وشُرِعَتْ لضمان تماسك المجتمع ولحماية الأمة من الصراع والاضطراب ، والحقد والفاقة .

ومستحقو الزكاة هم المُحَدَّدَون فى الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ (١) .

أما المجالات التى تجب فيها الزكاة فهى متعددة منها :

أ ـ المال : وفيه ربع العُشر (٥ , ٢٪) (الذهب والفضة وما يقوم مقامهما) .

ب ـ التجارة : وفيها ربع العشر (٥ , ٢٪) .

جـ ـ الركاز : وفيه الخُمس (٢٠ ٪) .

د ـ الحبوب والثمار : وفيها العُشر إذا سقيت بماء السماء ، ونصف العشر إذا سقيت بالجهد البشري .

هـ ـ زكاة الفطر .

و ـ وهناك مجالات أخرى كثيرة تجب فيها الزكاة ولا مجال لحصرها ، كالماشية من إبل وبقر وغنم وعقارات ، وحُلِيّ ، وتُحَف ذهبية ، وغيرها ، مما يقاس عليها .

٢ ـ والزكاة هى الحد الأدنى المفروض ، وأما حين تحتاج الدولة الإسلامية ، فإن الإسلام يعطى الحاكم حق فرض ضرائب إضافية للجهاد أو لمعالجة الأزمات الطارئة أو لغير ذلك ، ففى المال حقوق غير الزكاة .

---

(١) التوبة : ٦٠ .

هـ ـ واجبات الدولة الاقتصادية :

وعلى الدولة تجاه الأفراد والمجتمع ـ في المقابل ـ واجبات اقتصادية أهمها :

١ ـ مراقبة الملكية الفردية حتى لا تَطْغَى ولا تَسْتَبِد ، فَتَقْضِى بذلك على الطبقات الفقيرة .

٢ ـ حماية المصالح الاجتماعية والمرافق العامة .

٣ ـ توفير الحاجات الأساسية للإنسان من مأكل ومشرب ومسكن وملبس ودواء وتعليم .

٤ ـ توفير العمل الشريف للمسلم ، وحمايته من البطالة والتسول فى حدود طاقتها .

٥ ـ حماية الضعفاء كالأرامل واليتامى ، و العجزةَ ومَنْ فى حكمهم .

٦ ـ منع الفساد عن طريق محاربة الرشوة ، السرقة ، والغصب ، بتطبيق حدود الله .

هذه بإيجاز هى الخطوط الكُبرى الرئيسة للاقتصاد الإسلامى وواضح لكل من يدرسها بالتفصيل الكافى ، أنها متميزة متفردة ترتكزُ على دعائم لا تتوافر لأىّ منهج اقتصادى آخر ، ولعل فيما قاله « المسيوليون روشى » فى كتابه : « ثلاثون عاماً فى الإسلام » ما يوجز ذلك بوضوح ، يقول :

« إن هذا الدين هو أفضل دين عرفتُه فهو دين طبيعىّ اقتصادىّ أدبىّ ؛ ولقد وجدتُ فيه حلّ المسألتين ، الاجتماعية والاقتصادية اللتين تشغلان بال العالم طُرّاً

الأولى : فى قول القرآن : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فهذه أجمل مبادئ التعاون الاجتماعى .

والثانية : فى فريضة الزكاة من مال كل ذى مال بحيث يحق للدولة الإسلامية أن تستوفيَها غصباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طَوْعاً » [1] .

---

(١) راجع « محاضرات فى الثقافة الإسلامية » ص ٢٥٠ .

المذاهب الاقتصادية المعاصرة
ومقارنتها بالنظام الإسلامى

ينتشر فى العالم اليوم مذهبان هما : الرأسماليّة ، والشيوعيّة .

ويُخيّلُ لبعض السذج أن هذين المذهبين تنحصر فيهما طرق تنظيم الحياة وتحقيق التقدم ، وأنه لا طريق سواهما ، مع أن الطريقين معاً هما السبب الأكبر فى تعاسة البشرية واختلال توازنها وجرّها إلى حروب وحشيّة مدمرة .

الرأسمالية :

١ ـ تقوم الرأسمالية على أساس تلك القاعدة الاقتصادية التى عبَّر عنها « آدم سميث » فى قولته المشهورة « دَعَهُ يعمل دعه يمرّ » أى على أساس الحرية المطلقة فى الاقتصاد ، وانعدام القيود الاجتماعية « والأخلاقية أيضاً » على الحركة الاقتصادية للمجتمع .

٢ ـ وفى هذه النظرية يقف المال ذهباً وفضة فى « البورصة » أو الأسواق المالية ـ كعمود رئيسىّ للنشاط الاقتصادى ـ والمال ليس وسيلةَ تبادل فقط ، بل هو نفسه ـ فى أسلوب الربا ـ وسيلة ربح ، وحتى ولو لم يتعرض للمغامرة ، والربح والخسارة بطرق الاستثمار الحقيقى .

٣ ـ وإنطلاقاً من الحرية المطلقة والاعتماد على المال كأساس للحركة الاقتصادية ، يتكالبُ الأفرادُ فى الحصول على الأرباح وابتكار شتى الوسائل المشروعة وغير المشروعة للحصول على الربح ، فطرق الدعارة والخمور والقُمار كلها مقبولة ، وقانونية فى النظام الرأسمالى .

٤ ـ والأفراد كأجزاء بلا قيود ـ من حقهم أن يملكوا وسائل الإنتاج نفسها ، كحقول النفط ومناجم الذهب والحديد ، ويملكوا بالتالى وسائل التوجيه « كمحطات الإذاعة والتليفاز » وما إلى ذلك .

٥ ـ ولأن الربح هو الغاية الوحيدة ، انبثقت ظاهرة فتح الأسواق العالمية الجديد فانطلق المجتمع الرأسمالى ينشر الحروب والدمار ، ويستعمر شعوباً ويستذلها ، لكى تكون مناطق إمداده بالمواد الخام التى يصنّعها ويجنى منها الأرباح الفاحشة .

٦ ـ وتعتمد الرأسمالية على قوانين تسيّر حركتها مثل قانون المزاحمة ، أى التهام التاجر الكبير للتاجر الصغير ، والقانون المتمركز على الإنتاج وحصره عن طريق تصفية الشركات الكُبْرىَ للشركات الصغرى ، بالإضافة إلى قانون الربح الذى ذكرناه .

٧ ـ وبَدَهِيٌ أن هؤلاء الذين يتحولون إلى رأسماليين يعيشون حياةً غايةَ فى التّرف ، بينما تَسْحَقُ طبقاتٌ أخرى كثيرة بجانبهم لا تجد ضرورات الحياة .

نتائج النظام الرأسمالى :

١ ـ وكما هو واضح ، فإن الأسس الإنسانية ، والأخلاقية تكاد تكون معدومة فى النظرية الرأسمالية ، بالإضافة إلى أن الأساس المادى هو كل شىء فى هذه النظرية .

٢ ـ ويصور «بلزاك» الرأسمالية فى جوهرها بعبارته الساخرة الشهيرة «تقف دائماً فوق الميثاق قطعة الخمسة فرنكات المقدسة النبيلة الفتية القادرة أبداً على كل شىء» !!

إنها عبودية مطلقة للمادة ، تستعذب فى سبيلها أسوأ الطرق وأكثرها وعُورَةَ .

٣ ـ والاحتكار هو أظهر جريمة من جرائم الرأسمالية ، وعلى سبيل المثال ففى الولايات المتحدة تسيطر على صناعة التعدين ثمانية احتكارات أكبرها «تروست الفولاذ» وفى السيارات «جنرال موتورز» ، وهلم جرا [(١)] .

أما التُّجَّارَ الصغار فطريقهم الإفلاس والإنسحاق .

٤ ـ والتناقض ظاهرة طبيعية فى هذا النظام ، فمع أنه فى سنة ١٩٣٤م مات فى البلاد الرأسمالية مليونان وأربعمائة ألف شخص من الجوع . . فى هذه السنة نفسها

---

(١) راجع مقال «الرأسمالية والإنسان العربى» مجلة المجتمع الكويتية ، عبد الحليم عويس (أغسطس ٧٣) .

أتْلَفَتْ الولاياتُ المتحدة الرأسمالية أكثر من مليونى عربة من الحبوب ، ٢٦٧ ألف طن من السكر ، ٢٦٠ ألف طن من الأرز ، و٢٥ ألف طن من اللحم ، وكثيراً من المواد الأخرى .

وهذا كله حفاظاً على مستوى الأسعار خضوعاً لقانون العرض والطلب !!

٥ ـ ونتيجة ضياع فئات بأكملها بتأثير الاستغناء بالآلة عن العنصر البشرى ، تنتشر ظواهر الانتحار والجنون والجرائم الاجتماعية والاخلاقية الكثيرة .

٦ ـ إن الإسلام كما يرفض فى الرأسمالية هذه المادية المستذلة وإتلاف خيرات الله ويرفض أيضاً إطلاق الحرية الشخصية بلا حدود ، ويرفض الطرق غير المشروعة للربح ، كما يرفض « الربا » كعمل استغلالى بشع وأسلوب فاحش رخيص للكسب .

الشيوعية :

وتتفق الشيوعية ـ ومثلها الاشتراكيات المختلفة ـ مع الرأسمالية فى الأساس المادى ، ففى النظريتين ليس هناك اعتراف بالله أو بفضله ، وليس هناك بالتالى إلتزام بالأخلاق والقيم الإنسانية .

وكل الفَرْق بين النظريتين : أن الرأسمالية تمارس أخطاءها باسم الفرد ، أما الشيوعية فتمارس الأخطاءَ نفسَها باسم شىء يُسمَّى المجتمع ، أو الطبقة العاملة «البروليتاريا» .

وتتلخص أسس الشيوعية الاقتصادية فى العناصر التالية :

١ ـ إزالة الملكية الفردية تماماً ، وتحقيق ملكية الدولة لكل شىء لأن الملكية الفردية ـ فى رأيهم ـ سبب الشرور والبلاء .

٢ ـ النظر إلى التطور فى المجتمعات والتاريخ البشرى على أنه نتائج مباشرة لتطور وسائل الإنتاج والتشكيلات الاقتصادية ، فالاقتصاد « المادة » المحرك الوحيد للحياة .

٣ـ الاعتماد على صراع الطبقات كوسيلة من وسائل تطوير المجتمع .

٤ـ إغفال الاعتبارات الدينية والأخلاقية والإنسانية ، سواء فى مرحلة النظرية برفض هذه القيم الغيبية غير العلمية « الميتافيزيقا » ـ كما يقولون ـ أو من باب التطبيق الذى يعتمد علي العنف الدموى كأسلوب لتصفية أعداء الشيوعية والاشتراكية .

٥ـ تهبط الشيوعية بالإنسان إلى قيمة الحيوان حين تحصره فى دائرة الماديات التى يتمتع بها حيوان الغابة أيضاً .

٦ـ كما أنها بإعطائها المادة هذه المكانة تتجاهل الطاقات الموضوعية الأخرى كالروح والمشاعر والضمير والأفكار .

نتائج النظام الشيوعى :

وأخطاء الشيوعية أكثر من أن تحصر ، ولعل أهم هذه الأخطاء هى :

١ـ تحويل الحياة إلى غابة صراعية يسودها العنف المادى والدموى .

٢ـ تفريغ المجتمع من معانى الحب والرحمة والتعاون عن طريق نشر الإلحاد والكفر بالقيم الدينية والإنسانية .

٣ـ قتل المواهب الفردية ، ووأد الفطرة البشرية ، عن طريق حرمان الإنسان من جنى ثمار كدحه نظراً لإلغاء الملكية الفردية .

٤ـ لم تنجح الشيوعية والاشتراكيات المختلفة فى تحقيق الكفاية والعدل ، وتحويل الفقراء إلى أغنياء ، بل نجحت فى إفقار الأغنياء وإذلالهم .

٥ـ سحق الكيان الفردى للإنسان ، وتحويله إلى قالب حجارة ، أو إلى رقم عددىّ مُمتَهَن .

مميزات الاقتصاد الإسلامى وعناصر تفوقه :

١ـ شمول الإسلام لمصلحتى الفرد والمجتمع فى نظريته الاقتصادية ، مع تحقيق التوازن بينهما .

٢ ـ تدعيم الجوانب الأخلاقية والعقدية كأساس لإقامة اقتصاد أخلاقى بنَّاء .

٣ ـ الحفاظ على الجوانب المشرقة فى الكيان الإنسانى ، بدءاً من الاعتراف بحق الله المُنْعم الرزاق ، وانتهاءً بتعميق معانى الرحمة والإيثار والتعاون .

٤ ـ النظرة إلى المال على أنه قيمة واحدة من قيم كثيرة تحرك المجتمع ، مع عدم مصادرة حق الفطرة البشرية فى الكسب المشروع والملكية الفردية .

٥ ـ منع الاستغلال والاحتكار والتمايز الطبقي سواء كان ذلك باسم الفرد أو الدولة .

٦ ـ حماية كل الطبقات الاجتماعية وتحقيق التضامن الاجتماعى للمجتمع .

والحق أن مزايا الإسلام أكثر من أن تحصر ، لكننا نكتفى فى هذه اللمحة العابرة بهذا القدر ، ففيه دلالة على تفوق الاقتصاد الإسلامى بصورة لا تقبل جدلاً .

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (١) .

---

(١) الإسراء : ٩ .

الفصل السابع

الإسلام والتظم السياسية

١ ـ أسس النظام السياسى الإسلامى.

٢ ـ الأنظمة السياسية المعاصرة.

٣ ـ تفوق النظام السياسى الإسلامى.

٤ ـ الإسلام والعلاقات الدولية.

الموازنة بين نظام الإسلام السياسى والأنظمة المعاصرة

يرتبط النظام السياسى فى الإسلام بالتصور الإسلامى الشامل للكون والحياة وما قلناه فى علاج المسألة الاجتماعية والمسألة الاقتصادية ، ينسحب ـ أيضاً ـ على النظام السياسى فى الإسلام .

وإذا كانت بعض المذاهب الحديثة ، تعتبر العدالة الاقتصادية مكملة للعدالة السياسية (وهذا نظرىٌّ فقط) فإن الإسلام يعتبر العدالة السياسية جزءاً لا ينفك عن العدالة الاقتصادية والاجتماعية والعقيدة الإسلامية ، والفرق بين الإسلام وهذه المذاهب أن هذه المذاهب اشلاء متفرقة من « الرقاع الفكرية » المتعارضة أحياناً والنظرية الجدلية فى أكثر الأحايين .

(نظام الإسلام السياسى)

أسس النظام السياسى فى الإسلام :

ينظر الإسلام إلى النظام السياسى على أنه الحارس لعقيدة الأمة وسلامة بنائها الداخلى ، ومصالحها الخارجية .

ولما كانت الأمة الإسلامية ذات طبيعة خاصة كأمة مستخلفة عن الله فى الأرض تقوم على إقرار الحق بين الناس فبالتالى أخذت هذه الأمة كل مقومات نظامها السياسى منَ طبيعة الإسلام كرسالة عالمية ممتدة فى الزمان والمكان .

والنظام السياسى الإسلامى يرتكز على الأسس التالية :

الإيمان بالله :

فالنظام السياسي لا ينفصل عن العقيدة ، بل هو الحارس لها ، وبالتالى كان الإيمان بالله وما يقتضيه من اتباع أساليب شريفة وصولاً إلى غاياتٍ شريفةٍ هو الأساس الأوَّل للنظام السياسى الإسلامى .

لا حاكم إلا الله :

فإذا كانت بعض النظم تدعو إلى أن « الشعب هو مصدر السلطات » وأنه واضع الدستور ، فإن الإسلام يرد الحكم كله إلى الله . . يرده إليه دستوراً وقوانين ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ (١) ، ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

ثبات الأصول والتصورات :

والدول الإسلامية لا يؤسس بنيانها ـ إذا كانت إسلامية حقاً ـ إلا على قانون الله الذى جاء به النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مهما تغيرت الظروف (٣) ، فدستورها وتصوراتها يمتازان بالثبات ، لأنهما صادران عن الله المحيط الخبير .

غايات روحية إنسانية :

وللنظام السياسى فى الإسلام غايات تحققها الدولة الإسلامية (٤) ، فلا فصل بين الدين والدولة فى الإسلام ، وهذه الغايات تلخصها الآية الكريمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٥) .

المساواة التامة :

وما دام القانون صادراً من عند الله فهو لا يحابى طبقة ولا فرداً ، ولا يسمح باستبداد من نوع ما ، وبالتالى فالمساواة التامة أساس من أسس هذا النظام ، ولم توجد فى الإسلام كهانة أو حكومات بالمعنى اللاهوتى الكَنَسى « الثيوقراطية » ، والدولة فى الدستور الإسلامى خاضعة لأحكام الشريعة كالأفراد تماماً .

الحرية :

ففى النظام الإسلامى لا عبودية لغير الله ، و لم يتحدث الإسلام كثيراً عما

(١) يوسف : ٤٠ .
(٢) النساء : ٦٥ .
(٣) انظر : أبو الأعلى المودودى . نظرية الإسلام وهديه ص ٢٣ .
(٤) المرجع السابق، ص ٤٥ .
(٥) آل عمران : ١١٠ .

عُرِفَ حديثاً بمصطلح الحرية ، لأنه نظر إلى الحرية على أنها حق من الحقوق الطبيعية التى لا تحتاج إلى جدل ، سواء كانت حريةَ عقيدة أو رأى ،أو غير ذلك فى الحدود المرسومة .

الشـورى :

فى القرآن الكريم سورة بأكملها تسمى « الشورى » وهو تؤكد اهتمام الإسلام بهذا الأساس الخطير سواء فى مرحلةاختيار الحاكم ، أو فى إدارة الحكم ، وقد كان الرسول ـ علية الصلاة والسلام ـ يستشير أصحابه ـ مع نبوته وفضله ـ وإذا كانت الشورى واجبة على رسول الله فهى على غيره أوجب [١] ، وقد طبقها أبو بكر وعمر مع فضلهما وذكائهما ، وجدير بالذكر أن الشورى تعنى مشاورة أهل الحل والعقد ، أى قادة الدين والعلم ، فهم وحدهم القادرون على الوصول إلى الأفضل والأكمل .

العـدالة :

والعدالة الإسلامية ركيزة من ركائز النظام السياسى وهى عدالة إلاهية فى ـ بالتالى ـ لا تحابى النفس أو القريب ، ولا يرتفع فوقها أحد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [٢] ، وحتى غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى « أهل الذمة » لهم حقوق تتوافر فيها أسْمَى أنواع العدالة ، سواءٌ فى الحقوق أو الواجبات .

« وحسبنا هذه العناصر فى الحديث عن أسس السياسة الإسلامية ، ونتناول فى أسطر قضية الحاكم المسلم لأهميتها » .

الحاكم المسلم ماله وما عليه :

تعتبر الدولة الإسلامية دولة فكر وعقيدة وليست دولة عنصرية أو قومية ،

---

(١) الأستاذ : عفيف طياره . روح الدين الإسلامى ، ص ٢٩٥ .
(٢) النساء : ١٣٥ .

ـ وبالتالى ـ فهى تلتزم فى قواعدها بشروط ومبادئ ومقررات الإسلام ، وسواء أطْلق على الحاكم اسم (خليفة) أو (ولىّ الأمر) أو (أمير المؤمنين) أو غيرها ، فالمهمُّ تحقيق أسس السياسة الإسلامية التى ذكرناها آنفاً ، والمهم ـ أيضاً ـ أن تتحقق فى هذا الحاكم خصائص مُعيّنة ، يتفق أكثر الفقهاء والمؤرخين على أنها تتركز فى الشروط الآتية :

١ ـ الإسلام ، ويدخل فيه الالتزام بفرائض الدين ، وتقوى الله وخشيته .

٢ ـ البلوغ .

٣ ـ العقل وسلامة الأعضاء والحواس .

٤ ـ العدالة على شروطها الجامعة .

٥ ـ العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل .

٦ ـ الذكورة .

٧ ـ الحرية .

وهذا الحاكم المسلم يختار عن طريق الشورى بين أهل الحلّ والعقد ، وليستْ هناك صورة تطبيقية ضرورية لأسلوب الشورى ، فقد تباينت صُوَرُ الاختيار بالشورى بين الاختيار المباشر من أهل الحلّ والعقد ، أو اختيار الخليفة السابق بعد استشارته لأهل الحلّ والعقد ، أو غير ذلك .

وواجبات الحاكم المسلم هى بإيجاز : قيادة الأمة الإسلامية لتأدية رسالتها العالمية ، عن طريق تقوية الداخل والخارج فى إطار الشريعة الإسلامية ، وحراسة العقيدة الإسلامية ، ونشرلوائها ، ونشر العدل بين الناس ، ومراقبة ولاته وعمالّه ، وغير ذلك مما يحقق قوة الأمة الإسلامية ونشر رسالتها بين الناس وإذا أدى الحاكمُ ما عليه من واجبات وجبتْ له الطاعةُ على الأمة فى غيرِ معصية ، والنُّصرَةَ والنصحُ .

أما إذا قصّر ، أو خان الأمانة ، أو أصبح عاجزاً عن القيام بمهامّه فقد وجب عَزلُه .

الأنظمة السياسية المعاصرة :

تسود عالم اليوم نظريتان سياسيتان متعارضتان : الرأسمالية التى تقفُ فى الطرف الأقصى للفردية « اليمين » ، والشيوعية التى تذيب الفرد تماماً وتقف فى الطرف الأقصى « اليسار » ، ونحن نستطيع إذا تخطينا دائرة الشعارات البراقة أن نَلْمَحَ طبقة مسيطرة فى كلا النظامين ، وطبقات كثيرةً مقهورةً فى كلا النظامين أيضاً ، والفرق بينهما ليس أكثر من فرق فى الأسلوَب فقط .

الرأسمالية كنظام سياسى :

حقيقةً إن الرأسمالية تطلق حرية الفرد ، لكن أىّ حرية هى ؟ إنها حرية الانطلاق الشهوانى والفوضوى . . . الحرية الغرائزية الحيوانية التى لا تضبطها قيود إنسانية أو أخلاقية .

وهى حرية شكلية فى محتواها الأخير ، لأن حرية العبث الأخلاقى عملية سهلة يستطيع أن يمارسها الإنسان فى العالم الشيوعى وهو يمارسُها فعلاً .

فضلاً عن أن الحرية السياسة محكومة بالقهر الاقتصادى الذى تمارسه طبقات كبار الرأسماليين ! ! والرأسمالية نظام طبقى سياسى أيضاً . . يقف فى قمته حزب أو حزبان يتقاسمان الغنائم ، وكثيراً ما تعتمد هذه الأحزاب على وسائل غير مشروعة فى الوصول إلى السلطة كدفع الرشاوى وشراء أصوات الناخبين ، ومحاباة المناصرين وأهل الثقة وما إلى ذلك .

وللحرية السياسية فى المجتمع الرأسمالى جانب سيء بارز فهى تزكى روح الفردية (الأنانية) فى المجتمع ، وتنعدم بالتالى العواطف البشرية وفضائل النخوة والشجاعة والفروسية والكرم ، ويكون البقاء للأقوى وحده « السوبرمان » وفى الرأسمالية لا مجال للدين والأخلاق ، سياسياً واقتصادياً « وميكافيللى » الرأسمالى هو مؤصل نظرية « الغاية تبرر الوسيلة » أى أنَّ الطرق السياسية الدنيئة الرخيصة جائزة إذا كانت الغاية هى مصلحة الرأسمالية ، وقد تلقف هذا المبدأ اليهود وروّجوا له و«بروتوكولات » حكماء صهيون تقول بذلك : « يتحتم أن يكون حكم تلك

الحكومات ماكراً خداعاً . . إن هذا الشر هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هدف الخير ، ولذلك يتحتم ألا نتردد لحظة فى أعمال الرشوة والخديعة والخيانة إذا كانت تخدمنا فى تحقيق غاياتنا » [١] .

الشيوعية كنظام سياسى :

وأول ما يؤخذ على الشيوعية هو ماديتها المدمرة التى تقتل الروح والأخلاق وتنكر أشرف الولاءات وهو الولاء لله الواحد الخالق ، وهذه الخصيصة تنسحب على الجانب السياسى كما تنسحب على غيره . ونتيجة لهذه الخصيصة سحق الشيوعيون الفرد وقتلوه معنوياً ونفسياً وفكرياً ، وحَوَّلوه إلى ترس فى دولاب العمل الذى تحركه زمرة قليلة فى اتجاه مصالحها وحدها مهما رفعت من شعارات .

وبتأثير هذه المادية النفعية لجأ الشيوعيون إلى نفس مبدأ «ميكافيللى» السابق فاستعملوا فى السياسة أدنأ الطرق وأكثرها رجعية وحيوانية ويقول «لينين» فى ذلك : يجب على المناضل الشيوعى أن يتمرس بشتى طرق الخداع والغش والتضليل فالكفاح من أجل الشيوعية تبارك شتى الوسائل المناهضة للأخلاق ، ما دامت هذه الوسائل تساعد على تحقيق الشيوعية .

وإلى جانب استخدام الشيوعية للوسائل الحيوانية ـ لجأت أيضاً إلى ما عرف بالعنف الثورى الدموى ـ فى مقابل الإباحية الديمقراطية فقتلت شعوباً بأكملها ، ومن ضحايا الشيوعية الشعبان المسلمان : الألبان ، والشعب الإسلامى الكبير فى الاتحاد السوفيتى ، بالإضافة إلى المسلمين فى الصين ، وفى البلاد الاشتراكية الأخرى ، وقد بلغ ضحايا المسلمين فى الاتحاد السوفيتى ثلاثة ملايين مسلم[٢] ، ويقول ـ ستالين ـ أحد طغاة الشيوعيين الكبار ـ بعد أن قتل خمسة ملايين نفس ـ يقول هذا الطاغية فى تبرير الوسائل الدموية : « إنكم لا تستطيعون الهرب من الكوارث الطبيعية كالزلازل والعواصف التى تقتل الملايين ، ولكن تقبلونها

(١) البروتوكول الأول : ترجمة خليفة التونسى .
(٢) تقول الاحصاءات : إن عدد المسلمين تناقص ٥٠ ٪ فى نصف القرن الأخير بالبلاد السوفيتية .

صاغرين ، فكيف لا تقبلون عمليات التطهير التى تقوم بها السلطات الشيوعية ؟ »!!
وفى النظام الشيوعى لا توجد أىّ صورة من صور الحرية السياسية ، فلا وجود للمعارضة أو النقض ، ولا يوجد أىّ مظهر من مظاهر حرية العقيدة أو الفكر ، ولا ضمانات تحمى حقوق الإنسان الفطرية أو السياسية .

تفوق النظام السياسى فى الإسلام :

ومن عرضنا لأسس النظام السياسى الإسلامى وللأسس التى تقوم عليها النظم المعاصرة يتضح لنا تفوق النظام السياسى فى الإسلام .

ذلك ؛ لأنه نظام لا يَسْحَقُ الفردَ ولا المجتمع وهو يوازن بين مصلحتيهما فى تناغم وانسجام تام فهو يحفظ حرية الفرد وحقه فى العدالة والمساواة ، ويحفظ للمجتمع ركائزه ودعائمه حتى لا تَهتز أو تَتَدَاعَى أمامَ طغيان الفردية .

وهو نظام لا يبتر الصلة بالله ، ـ وبالتالى ـ يراقب الله فى أساليبه وغاياته ، ولا يلجأ إلى الدموية العنيفة ، احتراماً للإنسانية التى كرمها الله ، ولا إلى الوسائل الهابطة التى تنتجها المذاهب المعاصرة من يمين ويسار .

وهو يحدد بوضوح العلاقة بين الدولة والشعب ، حتى لا يتصارعا أو يَطْغَى أحدُهما على الآخر ، والأهمُّ فى هذه العلاقة أن الحاكم والمحكومين سواءٌ أمامَ القانون ، فلا طبقيَّة يمكن أن تكون مُميَّزة ، للفرد أو للدولة ، ولا صراع بين طبقات .

والضمير يحتل مكاناً توجيهياً فى السياسة الإسلامية ، وقد أدى الضمير دوره فى السياسية الإسلامية بطريقة لم تتكرر فى التاريخ ، فَتَمَيَّزَ المسلمون فى سياستهم بالوفاء بالوعود والتعفف عن الدماء ، ومناصرة المظلوم ، ومحاربة الطواغيت .

والنظام السياسى الإسلامى نظام عالمىٌّ متكامل ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ ، ﴿ **فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى** ﴾ وإذا كان اليهود ينظرون إلى غيرهم نظرتَهم إلى أميين » مستباحى العرض والمال ، وإذا كان الشيوعيون ينظرون إلى «البرجوازيين » النظرة نفسها ، فالإسلام انطلاقاً من مبدأ ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾

يحترم الحقوق الإنسانية للبشرية كلها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [1]، صدق الله العظيم .

الإسلام والعلاقات الدولية :

إذا كانت الجوانب الاجتماعية والاقتصادية تمثل السياسة الداخلية للدولة الإسلامية فإن العلاقات الدولية ، تمثل السياسة الخارجية لهذه الدولة .

وبإمكاننا ـ باطمئنان كبير ـ أن نقول : إن الخصائص الأخلاقية والإنسانية التى أرسَى الإسلامُ دعائمَها كمبادئ عامة ، تمتد من السياسة الداخلية إلى السياسة الخارجية ، فالإسلام فى كل تشريعاته وخصائصه كلٌّ منسجمٌ يَهْدُفُ إلى غايات نبيلة ويعتمدُ ـ فى وصوله إليها ـ على وسائلَ نبيلة كذلك .

وفقهاء الإسلام يقسمون العالم ثلاثة أقسام :

١ ـ دار الإسلام ، وهى كل البلدان الإسلامية ، وعقيدتها واحدة وشريعتُها واحدة .

٢ ـ دار الحرب وهى الدولة المعادية للإسلام المتاخمة لبلاده التى لا يأمن المسلم فيها على دمه أو عرضه أو ماله .

٣ ـ دار العهد ، وهى الدول التى بينها وبين المسلمين عهود .

وقد تحدثنا عن دار الإسلام حين تحدثنا عن المفاهيم الاجتماعية الاقتصادية والسياسية العامة فى الصفحات السابقة .

أما دار الحرب ودار العهد فهما موضوع حديثنا هذا .

الأسس العامة للعلاقات الدولية فى الإسلام :

يضع الإسلام قواعد عامة فى تعامله الدولى ، يبنى على أساسها تعاملَه مع الإنسانية خارج دار الإسلام أى مع دار الحرب ودار العهد . .

فالإسلام ـ أولاً ـ دينُ الله لكلِّ الناس لم يأت لجنس دون جنس ، فهو عقيدة

---

(١) الحجرات : ١٣ .

منفتحة ، وليست مُغلقة ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

والإسلام لم يأت حرباً على الإنسانية ، بل ناشراً للواء السلم والرحمة والحب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ (١) ، ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾(٢) .

والأمة الإسلامية مسئولة عن نشر الخير والمعروف بين الناس ، فليست هى بالأمة السلبيّة ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٣) .

وإعداد القوة - بالتالى - أمر هام بالنسبة للأمة الإسلامية ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (٤) .

والحرب فى الإسلام إنما شرعتْ لمنع الطواغيت عن مقاومة الحق والعدل ، ولدفع الأذى عن المؤمنين ، ولإرهاب الباطل حتى لا يفكر فى غزو الحق ، ومع ذلك فهذه الحرب لها آداب إنسانية ، ولم يشهد التاريخ تطبيقاً لها يقارب التطبيق الإسلامى الإنسانى الفريد .

والحرب فى الإسلام جزء من رسالته فى تحرير المستضعفين فى الأرض ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً ﴾(٥) .

والمسلمون ملزمون بالوفاء بكل الوعود والعهود والمواثيق التى بينهم وبين الكفار ، ولا يجوز لهم اهتبال الفرص ونقض العهود : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾(٦) .

---

(١) البقرة : ٢٠٨ . (٢) النساء : ٩٠ .
(٣) آل عمران : ١٠٤ . (٤) الأنفال : ٦٠ .
(٥) النساء : ٧٥ . (٦) النحل : ٩١ .

والتسامح ركيزة أساسية فى سياسة الإسلام ، وكان له دوره فى نشر الإسلام ، وإقبال الشعوب عليه .

هذه بإيجاز شديد هى الأسس العامة للعلاقات الدولية فى الإسلام ، وهى ليست شعارات مزيفة ، بل هى واقع تاريخى حى بَهَرَ الأوربيين أنفسَهم فتحدثوا عنه بإطناب وجعلوه من أبرز مزايا الإسلام .

والإسلام كله مزايا لو أبصروه بعين الحق .

من الواقع التاريخى :

ويؤكد الواقع التاريخى تطبيق المسلمين الحى النادر لهذه الأسس . .

والصور التى يذكرها التاريخ لا تعطى الإسلام امتيازه فى جانب العلاقات الدولية فحسْب ، بل هى فى الوقت نفسه دليل على الجدب الناتج عن التدهور الخلقى الذى يتَّسِمُ به أتباع الديانات الأخرى التى خلا تاريخُها من كلٍّ صورِ الإنسانية .

وما مواقف الصليبيين عنا ببعيدة حين حاصروا معرة النعمان بسوريا ، وأعطوا أهلها عهوداً ثم غدروا بهم ، وقتلوهم عن آخرهم ، وهم أكثر من مائة ألف ، وما جرائمهم ببعيدة أيضاً حين شددوا الحصار على مدينة القدس ، وأعطوا أهلها الأمان فلما دخلوها ذبحوا كلَّ من فيها حتى تحولت المدينة إلى أنهار من الدماء .

ولا نستطرِدُ فى ذكر هذه الصور الكريهة ، فليستْ ما نهدف إليه ، وإنما هدفُنا توضيح الأسس التى كانت عليها العلاقات الدولية فى الإسلام الناحية التطبيقية والعملية .

بعد تسعمائة سنة من مجزرة بيت المقدس الآنفة الذكر نجح صلاح الدين الأيوبى فى استرداد بيت المقدس من أيدى الصليبيين ، فماذا فعل بمن فيها من النصارى ؟

لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف أعطاهم صلاح الدين الأمان على أنفسهم وأموالهم . . فلم يقتل واحداً منهم ، وإنما سمح لهم بالخروج مقابل مبلغ زهيد

يدفعه القادرون منهم ، وقد تجاوز عن فقرائهم ، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً ، فلم يأخذ منهم شيئاً ولما أراد البطريرك الفرنجي الخروج سمح له بالخروج ومعه من أموال الكنائس الكثير فاقترح أحد المسلمين أخذ هذه الأموال فأبى صلاح الدين ، وقال : «لا أغدرَ بهم» .

والأكثر من ذلك أن كثيراً من النِّسوة النصرانيات ذهبن إليه يشتكين الفقر والحاجة إلى المأوى والعائل ، فأطلق الأسرى من رجالهن ، وأعطاهن مالاً كثيراً [(١)] .

ولما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية دون عهد أمان دخل إلى كنيسة «أياصوفيا» وكان قد لجأ إليها رجال الكنيسة ، فأحسن استقبالهم ، وأكدَّ حمايته لهم ، وطلب من النصارى الفزعين الموجودين فيها أن يذهبوا إلى بيوتهم آمنين ثم نظم شئونهم ، وترك لهم حق اتباع كنائسهم الخاصة ، وقوانينهم المِلّية ، وتقاليدهم المتعلقة بالأحوال الشخصية ، وترك للقساوسة انتخاب بطريرك لهم فانتخبوا «جناديوس» واحتفل السلطان بانتخابه بنفس الأبَّهة التي كانت متبعة في عهد البيزنطيين ، وجعل له حرساً خاصاً من الانكشارية ، ثم أعلن السلطان اعترافه بقوانين الكنيسة الأرثوذكسية ووضعها تحت رعايته ، ثم جمعت واشتريت كل الآثار النصرانية التي نُهبت يوم الفتح وسُلِّمتْ للكنائس والأديرة [(٢)] .

فهل يضم التاريخ الصليبي أو اليهودي في كل أدواره صوراً تشابهُ هذه الصور أو تقاربها ؟؟

إن الخبائثَ والفتن وصور التخلف والتحلل وغيرها من المظاهر التي تركها الاستعمار الأوربي الحديث في كل البلاد التي دخلها أوضح إجابة حيّة شاهدة على طبيعة حضارتهم .

وإن الأخلاق الحضارية ، ومظاهر الفروسية ونواحي العمران التي تركها المسلمون في الأندلس وصقلية ، وجزر البحر الأبيض الأخرى والتي لا زالت حيّة

---

(١) نقلاً عن المرحوم الأستاذ / مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ، ص ٩٩ـ١٠١ .
(٢) المرجع السابق .

يعترف الأوربيون بفضلها ، ويحتفلون بها [١] كتراث خالد عاش بينهم هذه الأخلاق والآثار العمرانية التى اتصلت بنور الإسلام واستضاءت به هى أكبر دليل على طبيعة حضارتنا الإسلامية ذات الرسالة الإنسانية الخالدة ، وهى المَعْلَم الثابت الذى يحدد دورنا فى التاريخ .

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [٢] ، صدق الله العظيم

---

(١) تقيم أسبانيا بين الحين والحين احتفالات ضخمة لأبطال حضارتنا الإسلامية والعربية من أمثال : ابن حزم الأندلسى ، ولسان الدين بن الخطب ، ومن الشعراء كابن زيدون ، وابن عباد ، وابن عمار ، وغيرهم .

(٢) الصف : ٨

هذا الكتاب

- هذا زاد من الثقافة الإسلامية أعتقد أن شبابنا ، وكثيرا من مثقفينا ، فى حاجة إليه، فى عصر أصبحت فيه " الثقافة " مقوماً كبيرا من مقومات الشخصية الحضارية لكل أمة، وأصبح الصراع الثقافى أبرز صور الصراع ....

- أجل : إن زماننا - كما يقول " رايت ملس " هو زمان القلق واللامبالاة بصورة لاتسمح للعقل أن يفعل مفعوله الهادئ ، ولاتسمح للشعور الرقيق النبيل أن يكون له حضوره الفعال ...!!

- وقد اضطرب أمر الفكر الإنسانى ، لكثرة ما زين فيه من باطل ، وما انحرف فيه الإنسان عن الفطرة ، حتى أصبح الوصول إلى الحق - وإلى الحلول الصحيحة المطابقة للسنن الكونية والاجتماعية - أمرا متعذرا غاية التعذر ...

- وبالتالى ، فلم يعد بالإمكان تخليص الأفكار الحديثة من الجراثيم التى أصبحت كالسرطان لا تنفصل إلا ببتر العضو نفسه ...

- وهذا الكتاب الذى طبع عدة طبعات يقدم أصول الثقافة الإسلامية - من مصادرها - فى نظرتها لله والإنسان والحياة والكون ....

- فجزى الله المؤلف الدكتور عبد الحليم عويس خير الجزاء...



رقم الإيداع
٨٤/٤٧٨٦